إيمي إيتورانتا

@ketab_n
Follow Me
27.6.2014

حُرّاسُ الماء

دار المنى

@ketab_n
Follow Me

حُرّاسُ الماء

@ketab_n
Follow Me

إيمي إيتورانتا

النص العربي:
علاء الدين أبو زينة

دار المنى

Twitter: @ketab_n

حُرّاس الماء

Twitter: @ketab_n

ISBN 978 91 87333 19 4
Arabic edition Bokförlaget Dar Al Muna AB 2014
Text © Emmi Itäranta 2012
Original edition published by Teos Publishers
Original title in Finnish: TEEMESTARIN KIRJA
Arabic edition published by agreement with Tammi Publishers
and Elina Ahlback Literary Agency, Helsinki, Finland
Printed in Sweden
This work has been published with the financial assistance
of FILI-Finnish literature Exchange

www.daralmuna.com

This edition has been published with a subsidy
by the* spotlight on Rights*
initiative of the Abu Dhabi International Book Fair, United Arab Emirates

Twitter: @ketab_n

فاتحة

كل شيء أصبح جاهزاً الآن.

كلَّ صباح، لسبعة أسابيع، ظللتُ أكنُسُ أوراق الأشجار المتساقطة عن بلاطات الممر الحجرية إلى بيت الشاي. تسعاً وأربعين مرة انتقيتُ حفنة من الأوراق المكنوسة وبعثرتها على الحجارة مرة أخرى، حتى لا يبدو أنّ الممر قد كُنس. ذلك أحدُ الأشياء التي طالما أصرّ أبي عليها.

قالت لي سانيا ذات مرة إن الموتى لا يحتاجون أن يُرضيهم أحد. ربما لا يفعلون. ربما أفعل. أحياناً لا أعرف الفرق. كيف يمكن أن أعرف، وهم المقيمون في دمي وعظامي، وكل ما تبقى منهم هو أنا نفسي؟

لم أجرؤ على الذهاب إلى الينبوع طوال سبعة أسابيع. أمس، أدرت مقبضَ حنفية الماء في المنزل، ووضعتُ فم قربة الماء على فم الحنفيّة المعدني. حادثتها بحلو الكلام وبقبيح الكلام، وربما صرختُ وانتحبتُ، لكن الماء لا يعبأ بأحزان الإنسان. إنه يسيل دون أن يبطئ أو يسرِّع مسيره في غياهب الأرض، حيث الصخور وحدها هي التي تسمعه، وحسب.

Twitter: @ketab_n

جادَ الأنبوب ببضع قطرات في قِربتي، ربما بملء ملعقة فقط.

أعرف ما يعنيه ذلك.

هذا الصباح، أفرغتُ ما تبقى من ماء في القِربةِ في المرجل، جلبتُ بعض الخُثّ المجفَّف من السقيفة إلى بيت الشاي ووضعت المِقدَح بجوار الموقد. فكرتُ بأبي الذي خالفتُ رغباته، وبأمي التي لم تشهد اليوم الذي أصبحتُ فيه مُعلِّمَ شاي.

فكرت بسانيا. أملت أن تكون حاضرة هناك، حيث سأذهب.

ثمةَ ضيفٌ مألوف الوجه يسير في الممر، ويعرضُ لي يداً أصبحتُ مهيأة لقبولها.

لن يدور العالم أبطأ أو أسرع عندما نمرُّ كلانا عبر البوابة معاً.

كل ما يتبقى هو ضوءٌ على الماء، أو ظلّ مُتحوِّل.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الجزء الأول: حُرّاسُ الماء

الذي يتغيّر، وحدَه، يمكنُ أن يبقى.
وي ولونغ، «طريق الشاي»

القرن ٧ من عصر تشيان القديمة

Twitter: @ketab_n

الفصل الأول

الماء هو الأكثر طلاقة بين كل العناصر. هكذا قال لي أبي يوم أخذني إلى مكان لا وجود له. وقد أخطأ أبي في أمورٍ كثيرة، لكنه كان محقاً في هذا، ولذلك ما أزال أومن به. الماءُ يُماشي القمر ويحضنُ الأرض، لا يخشى الموتَ في النار ولا العيش في الهواء. إذا خطوتَ داخلاً فيه برفق، كان لك أشبهَ بجِلْدِك، لكنّك إنْ ضربته بقوة، يمزقُك. ذات مرة، عندما كان ثمّةَ شتاءاتٌ في العالم، شتاءاتٌ باردة، شتاءاتٌ بيضاء، شتاءات يمكن أن تتدثّر فيها وتتزلّج على ثلجها وتدخل منها إلى الدفء، كنتَ تستطيع أن تمشي على الماء المتبلور الذي كانَ يدعى الجليد. وقد رأيتُ الجليد، كُتلَه الصغيرة فقط، من صنيعة البشر. طوال عُمري ظللتُ أحلمُ بكيف يمكن أن يكون المشي على بحر متجمد.

الموت رفيقُ الماء الوثيق. يستحيل أن ينفصل الاثنان، ويستحيل فصلهما عنا لأنهما ما نحنُ منه في نهاية المطاف: من طلاقة الماء، وقُرب الموت. الماء ما له بداية ولا نهاية، لكن للموت كلا الاثنتين. الموتُ كلا الاثنتين. أحياناً، يتنقّلُ الموت محباً في الماء. وأحياناً يطردُ الماءُ الموت، لكنهما يمضيان دائماً معاً، في العالم وفينا.

هذا، أيضاً، تعلمته من أبي، لكني أعتقد الآن أنني كنت سأتعلمه وحدي دونه، بالقدر نفسه..

Twitter: @ketab_n

أستطيع أن أختار بدايتي.
ربما، سأختار نهايتي.
البدايةُ كانت اليوم الذي أخذني فيه أبي إلى مكان لا وجود له.

حدث ذلك بعد أسابيع قليلة من إنهائي الاختبارات العامة الإلزامية لكلّ المواطنين في سنة البلوغ. ومع أنني أبليت فيها حسناً، لم يكن ثمة شك بأنني سأبقى في التلمذة الحالية مع والدي بدلاً من إكمال دراستي في المدينة. كان ذلك اختياراً وجدت نفسي ملزمة به، وبالتالي، ربما لم يكن اختياراً حقاً. لكنه بدا أنه جعل والدي سعيداً، ولم يجعلني تعيسة، وكانت تلك الأشياء هي التي تهم في ذلك الوقت.

كنا في حديقتنا خلف بيت الشاي، وأنا أساعد والدي في تعليق قِرب الماء الفارغة لتجف. كان بعضها ما يزال يقطر الماء على ذراعي، لكننا كنا قد علقناها مُسبقاً رأساً على عقب بالسنانير المثبتة على رف معدني، وتخللتها أشعة الشمس التي تقطّرت في الأحجبة ومرت عبر سطوحها الشفافة. وشابت قطرات بطيئة دواخلها قبل أن تنساب ساقطةً على العشب في نهاية المطاف.

"لمعلم الشاي وشيجة خاصة بالماء والموت،" قال لي أبي وهو يتفحص واحدة من القِرَب باحثاً عن الشقوق. "الشاي لا يكون شاياً بلا ماء. وبلا شاي، لا يكون معلِّمُ الشاي معلِّمَ شاي. معلِّم الشاي يهبُ حياته لخدمة الآخرين، لكنه يحضر مراسم الشاي بصفته ضيفا مرة واحدة في حياته فقط، عندما يشعر بأن نهايته تدنو. عندئذ، يأمر خليفته بتهيئة الطقس الأخير، وبعد أن يُقدّم له الشاي، ينتظر وحيداً في بيت الشاي حتى يطبق الموت يداً على قلبه ويوقفه."

رمى أبي قِربةَ الماء على العشب حيث تنتظرها مُسبقاً اثنتان أخريان. لم يكن إصلاح القِرب ينجح دائماً، لكنها مكلفة، مثل كل شيء مصنوع من البلاستيك المتين، وعادة ما كان الأمر يستحق المحاولة.

"هل سبق وأن أخطأ أحدٌ في أي وقت؟" سألتُ. "هل ظنّ أحد أنّ نهايته قادمة عندما لم يكن الوقت قد حان بعد؟"

Twitter: @ketab_n

"ليس في عائلتنا،" قال. "سمعتُ عن معلِّم من العالَم القديم، أمر ابنه بتهيئة الطقس الأخير، واستقر مستلقيا على أرضية بيت الشاي، لكنّه سار بعد ذلك عائداً إلى منزله بعد يومين. ظنّ الخَدم بدايةً أنه شبح، وأصيب أحدهم بنوبة قلبية. كان معلم الشاي قد خلط بين وفاته هو وبين موت خادمه. بعد ذلك، أحرقوا جثة الخادم وعاش سيده بعده عشرين عاماً أخرى. لكن ذلك لا يحدث كثيراً."

صفعتُ ذبابةَ خيل حطّت على ذراعي. لكنها اندفعت مُقلِعةً بأزيزٍ صاخب، تماماً في الوقت المناسب. كان طوق قلنسوتي الواقية من الحشرات محكماً وضيقاً، لكنني كنت أعرف أن خلعها سيجتذب الكثير من الحشرات.

"كيف تستطيع أن تعرف عندما يكون موتك قادماً وقريباً؟" سألتُ.

"إنكَ تعرف،" قال أبي. "كما تعرف حُبّك، أو كما تعرف في حُلم أن الشخص الآخر في الغرفة مألوف، حتى لو أنك لا تألف وجهه." أخذ مني قِربة الماء الأخيرة. "اذهبي وأحضري زوجاً من فوانيس يراعات الضوء من شرفة بيت الشاي، واملئيهما لي."

تساءلتُ عن حاجته للفانوسين ولم يكن الوقت قد تجاوز بواكير العَصر بعد، حتى أن الليالي في هذا الوقت من العام لا تُغرِق الشمس تماماً في مُحيط الأفق. ذهبتُ إلى بيت الشاي وتناولتُ زوجاً من الفوانيس من تحت المقعد الطويل. كانت يراعة ضوء متوترة الجناحين تدور في قاع أحدهما. هززتُ الفانوس وتركتُها تخرج عند غيضة شجيرات التوت. يراعات الضوء تحب التوت أكثر ما يكون، ولذلك مضيتُ في هزّ الفروع فوق الفانوسين حتى تجمعت حفنة من اليراعات الزاحفة الناعسة في داخل كل منهما. أغلقتُ الأغطية وأخذت الفانوسين لأبي.

كان يحمل القِربَ الفارغة على ظهره، واختفت تعابيره وراء قلنسوة الحشرات. مددتُ له يديّ بالفانوسَين، لكنه أخذَ واحداً منهما فقط.

"نوريا، حان الوقت لأريكِ شيئاً"، قال. "تعالَي معي".

مشينا عبر المستنقعات الجافة الممتدة خلف منزلنا إلى قاع منخفض، ثم صعدنا صوب أعلى المنحدر. لم تكن مسيرة طويلة، لكن العرَق الدَّبِق ألصق شعري بفروة

Twitter: @ketab_n

رأسي. عندما بلغنا القمة حيث تبدأ حديقة الصخور، خلعت قلنسوتي الواقية من الحشرات. كانت الريح قوية جداً حتى أنه لم يكن هناك الكثير من ذباب الخيل والبراغيش هنا مثلما في محيط المنزل.

كانت السماء صافية ساكنة. أحسستُ بالشمس مشدودة على بشرتي. توقف والدي، ربما ليختارَ طريقه. استدرتُ لأنظر إلى أسفل. كان منزل معلّم الشاي وحديقته رقطةً من الخضرة العائمة في مشهد العشب المسفوع والحجارة العارية المتلاشية. وتبقّع الوادي ببيوت القرية. وعلى الجانب الآخر ارتفع جبل ألفينفارا وانخفض. وأبعدَ، خلف منحدراته حيث الأراضي المرويّة، لاحت في الأفق بقعة من غابات التنّوب غامقة الخضرة. وأبعد في ذلك الاتجاه كان البحر، لكنه لا يمكن أن يُرى من هنا حتى في الأيام المشرقة. في الاتجاه الآخر، امتدّ تشابك جذوع أشجار الغابة الميتة المتحللة. أيام طفولتي، كانت ثمة بعض أشجار البتولا المتفرقة التي لم تكبُر لترتفع أعلى من مستوى خصري، والتقطتُّ ذات مرة حفنة كاملة من ثمار عنب الثور من هناك.

امتد دربٌ بجوار حدود حديقة الصخور، وانعطف أبي إليه. في هذا الجانب، كان سفح التل مليئاً بالكهوف. كنتُ كثيراً ما أتيتُ لألعب هنا عندما كنت أصغر سناً. وما أزال أتذكّر يوم عثرت عليّ أمي ذات مرة هنا وأنا ألعب لعبة صياد الجبل مع سانيا واثنين من الأطفال الآخرين. صرخَت يومها بأبي الذي نسي مراقبتي، وجرتني من ذراعي كل الطريق إلى البيت. ولم يُسمح لي باللعب مع الأطفال من القرية مدة شهر. لكنني حتى بعد ذلك، كنت أنسلُّ إلى الكهوف مع سانيا كلما غابت والدتي في رحلاتها البحثية، وكنا نلعب ألعاب المستكشفين والمغامرين والعملاء السريين من تشيان الجديدة في صحراء المتوسط. كانت هناك عشرات من الكهوف، إن لم يكن مئات، وقمنا باستكشافها بالشمولية التي ظنناها ممكنة. كنا نبحث دائماً عن الممرات السرية والكنوز المخفية، من النوع الذي تقرأ عنه

Twitter: @ketab_n

في الكتب القديمة أو قصص الجيب، لكننا لم نعثر على أي شيء سوى الحجارة الجافة الخشنة.

توقف والدي أمام فم مغارة له شكل رأس القط، ثم مرّ عبره دون أن ينطق بكلمة واحدة. كان المدخل منخفضاً. احتكت ركبتاي بالصخر عبر قماش سروالي الرقيق، وواجهت صعوبة في إدخال الفانوس والقلنسوة الواقية من الحشرات معي. في الداخل كان الهواء بارداً وساكناً. توهج الفانوسان بخفوت بينما يتصاعد الوميض المائل إلى الصفرة من يراعات الضوء في الغبش الكامد.

عرفتُ الكهف. كنتُ قد تقاتلت لأجله مع سانيا ذات صيف، عندما أرادتْ استخدامه مقرّاً لجمعية المستكشفين المركزية وبالغة الأهمية لتشيان الجديدة. أصررتُ يومها على أن فيه الكثير من المساحة المهدورة، لأن سقفه يصبح منحدراً بحدة عند المؤخرة، ولأنه بعيدٌ جداً عن المنزل بحيث يصعبُ تهريب الطعام إليه بلا عناء. وفي نهاية المطاف، اخترنا كهفاً أصغر وأقربَ إلى بيتي.

زحف أبي نحو الجزء الخلفي من الكهف. رأيته يقف ويدفع بيده اليمنى مباشرة في الحائط –هكذا بدا لي– ورأيت حركة ذراعه. أطلقَت الصخرة فوقه صريفاً خافتاً وانفتحَ فيها ثقب مظلم. كان الكهف منخفضاً جداً هناك، حتى أن رأسه عندما انتصب أصبح على مستوى الثقب الذي انزلق من خلاله، آخذاً معه الفانوس. ثم رأيت وجهه يطلُّ عليّ من خلال الثقب.

"هل أنتِ قادمة؟" قال.

زحفتُ إلى الجزء الخلفي من الكهف وتحسّستُ الحائط حيث رأيته يفتح الكُوّة. كان كل ما استطعت أن أراه في ضوء الفانوس المرتعش هو الصخور الخشنة، لكن أصابعي عثرت بعد ذلك على تشكيل ضيق يشبه الرفّ، وقد انفتح وراءه شرخ واسع، واكتشفتُ مقبضاً صغيراً مخبأ فيه. كان من المستحيل رؤية الصدع تقريباً بسبب الطريقة التي تشكلت عليها الصخور.

"سوف أوضح لاحقاً كيف يعمل كل شيء،" قال والدي. "الآن تعالي إلى هنا."

Twitter: @ketab_n

تبعتُه عبر الكُوّة.

فوق الكهف كان واحدٌ آخر، أو بالأحرى نفق بدا وأنّه يقود مباشرة إلى قلب التل الأجرد. على السقف، مباشرة فوق الفتحة، كان أنبوب معدني يجاوره خطاف كبير. لم تكن لدي أي فكرة عن سبب وجودهما هناك. وعلى الجدار كان زوج من المقابض. أدار والدي أحدهما، فانغلقت الكوّة. أصبح وهج الفانوسين أكثر إشراقاً في ظلام النفق الدامس. خلع والدي قلنسوة الحشرات وقربة الماء التي يحملها على ظهره ووضعهما على الأرض.

"يمكنكِ ترك قلنسوتكِ هنا،" قال. "لن نحتاج إليها أكثر من ذلك في الأمام."

انحدر النفق مائلاً نحو داخل التل. ولاحظتُ أن الأنبوب المعدني يمتد على طول النفق. لم تكن المساحةُ تكفي لأمشي منتصبةً، وحكَّ رأس أبي السقف في بعض الأحيان. كان الصخر تحت أقدامنا ناعماً أملسَ بشكل غير متوقع هنا. تشبَّثَ ضوء فانوسي بطيّات القميص على ظهر أبي، وتشبثت الظلمة بالخدوش على الجدران. استمعتُ إلى صمت الأرض المحيط المختلف عن الصمت فوق سطح الأرض: أكثف، وأهدأ. بدأت أميّزُ بالتدريج صوتاً متصاعداً متمدداً في قلب التل، مألوفاً وغريباً مع ذلك. لم يسبق لي وأن سمعت من قبل تدفقه الحر، المدفوع كُليَّةً بوزنه وإرادته فقط. كان أقرب إلى صوت المطر وهو يدقّ النوافذ أو مياه الحمام وهي تنسكب على جذور أشجار الصنوبر، لكن هذا الصوت لم يكن داجناً ولا نحيلاً، لم يكن مقيداً بحدود من صنع الإنسان. وقد لفّني وضمني فيه، حتى أصبح قريباً كالجدران، كثيفاً كالظلام.

توقف أبي، ورأيت في ضوء الفانوس أننا وصلنا فتحة بين النفق وكهفٍ آخر. انسرح الصوت عالياً. استدار أبي لينظر إليّ. خفق ضوء اليراعات وتموج على وجهه مثلما يتموج الضوء على وجه الماء، ومن خلفه استمرت العتمة في الغناء. توقّعتُ أن يقول لي شيئاً، لكنه أدار ظهره ببساطة وعبر من خلال الفتحة. وتبعتُه.

حاولت أن أرى في الأمام، لكن وهج الفانوسين لم يصل بعيداً. استقبلنا الظلام بالدمدمة. كان ذلك شيئاً أشبه بهدير ماء ساخن في قاع مرجل حديدي، وإنما

Twitter: @ketab_n

أكثر؛ مثل صوت ألف أو عشرة آلاف قِدرٍ شرِعَ فيها الماء توّاً بالغليان، وأدرك معلم الشاي أن الوقت حان ليرفعه الآن عن النار، وإلا تحوّل إلى بخار وتلاشى، ولم يعد يمكن القبض عليه. شعرت بشيء بارد ورطب على وجهي. مشينا بضع خطوات إلى أسفل، وعلى ضوء يراعات الضوء، وصلنا أخيراً مصدر الصوت. رأيت الينبوع المختبئ للمرة الأولى.

هرع الماء خارجاً من داخل الصخرة مثل الأوتار والخيطان وجدائل الوميض، في صحائف هائلة تمزق سطح البركة في قاع المغارة حينَ تعصف به؛ تلوّى حول الصخور وانطوى في دوّامات ولوالبَ ملتفاً حول نفسه؛ تمخض ورقص وتكشف مرة أخرى. ارتعد السطح تحت قوة الحركة. وتدفق تيار نحيلٌ من البركة باتجاه الجرف الحجري فوق المدخل الذي أتينا من خلاله، ثم اختفى في باطن الأرض تحته. استطعت أن أرى شيئاً بدا مثل لطخةٍ بيضاء على الجدار الصخري فوق سطح الماء، ومقبضاً آخر أبعد في الجدار. حثني أبي ودفعني إلى حافة البركة.

"جرّبيه،" قال.

غمستُ أصابعي في الماء وتحسّستُ قوته. تحرك على يدي مثل التنفس، مثل حيوان، مثل جِلْدِ شخص آخر. كان بارداً، أبرد بكثير من أي ماء أعرفه. لعقتُ أصابعي بعناية، مثلما تعلمتُ أن أفعل منذ كنتُ صغيرة جداً: لا تشربي ماء لم تتذوقيه أولاً.

بدا ضوء الفانوس مطوياً على وجه أبي عندما ابتسم، ثم، ببطء، جفّت ابتسامته.

"أصبحتِ في السابعة عشرة، نضجتِ الآن وأصبحتِ كبيرة كفاية لتفهمي ما سأقوله لك،" قال أبي. "هذا المكان غير موجود. هذا الينبوع جفَّ منذ وقت طويل. هكذا تقول القصص، وهكذا يعتقد حتى أولئك الذين يعرفون القصص الأخرى، القصص عن ينبوع في التل كان يهَب الماء للقرية كلها ذات مرة. تذكّري. هذا الينبوع غير موجود."

"سوف أتذكر،" قلت له، لكنني لم أدرك حتى وقت لاحق أي نوع من الوعد

Twitter: @ketab_n

هذا الذي قطعتُ. ليسَ الصمتُ فارغاً أو غير جوهريّ، وغير لازم لتقييد الأشياء الداجنة بالسلاسل، إنه عادةً ما يحرس قوى قويّة بما يكفي لتُحطِّم كل شيء.

عدنا خلال النفق. وعندما وصلنا إلى المدخل، التقط أبي قِربةَ الماء التي كان قد تركها هناك، وعلقها على الخطاف في السقف. وبعد أن تأكد من أن فَمَ القربة مفتوح، أدارَ واحداً من المقبضَين على الحائط. سمعتُ ضوضاء كهربائية، شبيهة بالأصوات التي تصدرها أجهزة التبريد في مطبخنا، وهديراً مختلفاً أيضاً عما سبقه، كما لو أنه حبيسٌ في داخل المعدن. وفي لحظة، انفجر تيار ماء نفاث قوي من السقف مباشرة في القِربَة.

"هل صنعتَ أنتَ كل هذا؟" سألتُ. "أم أنها أمي؟ هل خطَّطَتْ هذا؟ هل بنيتما هذا معاً؟"

"لا أحد يعرف على وجه اليقين مَن هو الذي بنى هذا،" قال أبي. "لكن معلِّمي الشاي ظلوا يعتقدون دائماً أنه واحدٌ منهم، ربّما الأول الذين استقر هنا قبل أن تختفي الشتاءات وتبدأ هذه الحروب. الآن، الماء وحدَه هو الذي يتذكّر."

أدار كلا المقبَضَين. تباطأ اندفاع الماء وخمدَ شيئاً فشيئاً، وانفتحت الكُوّةُ مرة أخرى.

"أنتِ أولاً،" قال.

دلّيتُ نفسي من خلال الفجوة. أغلقَ أبي القِربةَ بإحكام، ثم أنزلها بعناية إلى الكهف حيث أخذتها منه. وعندما انغلقت الكُوّة مرة أخرى، لم يبدُ الكهفُ أيَّ شيء سوى محض كهف، بلا أسرار.

خفَت وهج يراعات الضوء وتلاشى سريعاً في ضوء النهار. وعندما وصلنا الحديقة، رفعَت أمي الجالسة تحت المظلة عينيها عن الملاحظات التي تستخلصها من كتاب ثقيل في حضنها. أعطاني أبي الفانوسَين، وتمايلَت ظلال أوراق الشجر على البلاطات الحجرية وهو يسير نحو بيت الشاي حاملاً قربة الماء على ظهره. كنتُ سأتبعُه، لكنه قال: "ليس الآن."

وقفتُ ساكنة وأنا أحمل فانوساً في كل يد، واستمعت إلى يراعات الضوء وهي

Twitter: @ketab_n

تضرب جدرانهما الزجاجية المخبوزة بحَرِّ الشمس. وعندما تكلمت أمي فقط فكرت بفتح أغطية الفانوسين.

"احترقتِ ثانية في الشمس. قالت. "أينَ ذهبتِ مع أبيكِ؟"

انطلقَت يراعات الضوء من الفانوسين قافزة في الهواء واختفت في الأدغال.

"إلى مكانٍ لا وجود له،" قلت. في تلك اللحظة نظرت في وجهها، وعرفتُ أنها تعرف أينَ كنا، وأنها كانت قد ذهبت إلى هناك هي أيضاً.

لم تقل أمي المزيد، ليس عندئذٍ، لكن السَّكينةَ غادرتْ وجهَها.

في وقت متأخر من الليل، عندما استلقيتُ في سريري تحت شبكة الحماية من الحشرات وراقبتُ ضوء شمس الليل البرتقالي وهو ينسكبُ على أشجار الصنوبر، سمعتُها تتحدث مع أبي في المطبخ لفترة طويلة. لم أستطع سماع الكلمات التي يقولانها، لكنني ميّزتُ فيها شيئاً قاتماً قطع كل المسافة إلى أحلامي.

Twitter: @ketab_n

الفصل الثاني

كانت الأرض ما تزال تنتُّ برد الليل الصقيعيّ عندما ساعدت أبي في تحميل قِرب الماء المكسورة على العربة الواطئة في الجزء الخلفي من الدراجة نصف الآلية. والتمعت سطوحها البلاستيكية المخدوشة في ضوء الشمس الصباحية. ربطتُ أشرطة سميكة حول القِرَب، وعندما تأكدتُ من أنها ثابتة بما فيه الكفاية، ألقيت بحقيبتي المحبوكة من أعشاب البحر على كتفي، وجلست في مقعد قيادة الدراجة.

"استفيدي من يوكارا،" قال والدي. "سوف يعطيكِ حَسماً." كان يوكارا هذا أقدم معالجي البلاستيك في القرية وصديقاً لأبي. لم أكن أثق به منذ انكسرَت قِرب الماء التي أصلحها لنا قبل سنة مرة أخرى بعد قليل من الاستخدام فقط. لذلك لم أقل شيئاً، وإنما هززتُ رأسي فقط بطريقة يمكن تفسيرها على أنها موافقة. "ولا تستهلكي كل اليوم،" قال أبي. "لدينا ضيوفٌ قادمون غداً. سأحتاج إليك في تنظيف بيت الشاي."

دستُ الدواسة لتشغيل الدراجة نصف الآلية. كان أحد الألواح الشمسية مكسوراً وأصدر المحرك صريفاً، ولذلك اضطررت إلى قيادة الدراجة بتحريك البدالات كل المسافة تقريباً على الطريق المُترَب بين الأشجار ذات الخضرة الذهبية المتموجة حول منزلنا. فقط قبل حافة الغابة استقرت الدراجة على دوران هادئ،

Twitter: @ketab_n

ثابت. قدتُ الدراجة والعربة المقطورة بحذر إلى الطريق الأعرض، وأقفلت الدواسات وتركتُ قدميّ تستريحان عليها بينما تمضي الدراجة متمهلة نحو القرية. أحسستُ بهواء الصباح ينداحُ هشاً على ذراعَيّ العاريتين، ولم يكن هناك الكثير من ذباب الخيل بعد. خلعتُ قلنسوتي الواقية من الحشرات، تاركة للريح والشمس أن تغسلا وجهي. كانت السماء زرقة جافة عارية، وكانت الأرض ساكنة، ورأيت حيوانات صغيرة تتحرك في غبار الحقول باحثةً عن الماء.

بعد أن مررت ببضعة بيوت على حافة القرية، تشعَّب الطريق. كان الطريق إلى محل يوكارا للتصليح إلى اليسار. توقفت قليلاً وترددت، ثم واصلت طريقي إلى اليمين حتى رأيت سياج الأوتاد الأزرق المتكسّر أمامي.

مثل معظم مباني القرية، كان منزل سانيا واحداً من منازل العالَم الماضي، مكوناً من طابق واحد وعدة غرف، وحديقةٍ ومرآبٍ للمركبات من الزمن الذي كان فيه معظم الناس يمتلكون مركبات التكنولوجيا السابقة السريعة. وقد تم إصلاح الجدران مرّة إثر مرّة، وأخبرني والدا سانيا بأنه كان للبيت ذات مرة سقف شبه مستوٍ بلا ألواح شمسية، ولو أنه صَعُبَ عليّ أن أتخيل ذلك.

عندما توقفتُ خارج البوابة المفتوحة، رأيتها تقف في الفناء الأمامي وتفرغ بقايا قربة ماء في حوض معدني، وقد أطلقت العنان لسيل من السُّباب. كان الباب الأمامي مفتوحاً ينعتق منه دفقٌ بالكاد يُسمع لصوت جهاز أخبار خارجاً من داخل المنزل عبر ستارة واقية من الحشرات تغطي إطار الباب. لم تكن سانيا ترتدي القلنسوة الواقية من الحشرات، وعندما نظرَت باتجاهي، رأيت أنها لم تنم.

"الدجّال الوضيع باعني ماءً مالحاً،" قالت، وهي تدس شعرها الأسود خلف أذنيها بعصبية. "لا أعرف كيف فعل ذلك. لقد تذوقت الماء أولاً، كما أفعل دائماً، وكان جيداً. كانت أسعاره فظيعة، لذلك اشتريت نصف قِربة فقط، ولكن، حتى ذلك كان مالاً مهدوراً."

"أيّ نوع من الأوعية كان لديه؟" سألتُ وأنا أقود الدراجة عبر البوابة إلى الفناء.

"واحد من تلك الأوعية عتيقة الطراز،" قالت سانيا. "وعاءٌ كبير شفاف فوق

Twitter: @ketab_n

منصة، وأنبوبٌ يبيع منه الماء."

"حيلة الأنبوب المزدوج،" قلت. "رأيتها في المدينة العام الماضي. داخل المنصة يوجد وعاء سري فيه ماء مالح. للأنبوب زوج من الإعدادات، واحد يأخذ الماء من حاوية المياه العذبة، والثاني من أخرى مخبّأة. يعرض البائع عينة للتذوق من الماء الصالح للشرب، لكنه يغير إعدادات الأنبوب بعد ذلك ويبيع منه المياه المالحة."

حدّقَت سانيا في وجهي للحظة، ثم قالت: "حُمّق وغباء." كنت أعرف أنها تتحدث عن نفسها. لا بدّ أنها أنفقت معظم ميزانية الأسبوع على المياه المالحة.

"كان يمكن أن يحدث ذلك لأي شخص،" قلتُ لها. "ما كنتِ لتعرفي. ربما يكون تحذير الآخرين فكرة جيدة، مع ذلك."

تنهدت سانيا. "رأيت بعض الأشخاص الآخرين يشترون منه في سوق المساء مباشرة قبل وقت الإغلاق. ربما يكون قد ابتعد الآن على الأرجح، باحثاً عن غبيّ آخر."

لَم أقل ما كنت أفكر فيه جهاراً: أكثر من مرة سمعت والديّ يقولان كيف أن رؤية الكثير من عمليات الاحتيال عادة ما تعني أن الأوقات تصبح أكثر قسوة، بغض النظر عن المرات التي يكرر فيها جهاز الأخبار أن كل الاضطرابات مؤقتة وأن الحرب تحت السيطرة. في أفضل الأوقات كان يحدث نقص ماءٍ في بعض الأحيان، لكن الناس تمكنوا غالباً من تصريف أمورهم بحصصهم الشهرية، ولم يكن السقاءون يتكلفون عناء التجوال. ومع أن تجار الماء المتجولين الذين يتوقفون أحياناً في القرى الصغيرة كانوا يبيعون بأسعار مرتفعة، فقد كانوا يعلمون أيضاً كيف يمكن أن تتعرض أعمالهم بسهولة للخطر، ولم يكونوا يتعاملون بتساهل مع أيّ منافسين يبيعون مياهاً غير صالحة للشُّرب. لم يكن السقاءون نكراتٍ وأناساً لا يسمع بهم أحد، لكن هذا المحتال الأخير هو الثالث الذي يظهر في قريتنا في غضون شهرين. وهذا النوع من الزيادة المفاجئة في الأعداد عادة ما يعني أن هناك شائعات قوية في المدن عن خطط جديدة وأكثر صرامة لتوزيع الحصص، بل ربما تقنين، ولذلك اختار بعض السقّائين

Twitter: @ketab_n

مغادرة الأسواق المزدحمة في المدن بحثاً عن منافسة أقل وزبائن أكثر سذاجة.

"أهو أنبوب مائكم لا يعمل جيداً مرة أخرى؟" سألتُ.

"قطعةُ الخردة القديمة تلك يجبُ نبشها واستبدالها بأخرى جديدة،" قالت سانيا. "كنت سأفعل ذلك بنفسي لو أنّ لدي الوقت. مرضَتْ مينيا مرة أخرى في الأسبوع الماضي، ولا أجرؤ على إعطائها من ماء صنبورنا حتى لو كان مغلياً. يقول أبي إنه ماءٌ جيدٌ بشكل رائع، لكنني أعتقد أنه زرع في بطنه معدة من حديد بعد شربه الماء القذر سنوات عديدة".

كانت مينيا، شقيقة سانيا الصغيرة التي عمرها عامان، مريضة باستمرار منذ ولادتها. وفي الآونة الأخيرة، أصبحت أمهما، كيرا، متوعكة أيضاً. لم أقل لسانيا، لكنني كنتُ قد رأيت مرة أو اثنتين في نصف ضوء المساء المتأخر هيكلاً غريباً يجلس عند بوابتهم، بهيئة نحيلة وقاتمة، ليس قاسياً ولكنه يعرف بشكل ما أنه لن يكون موضع ترحيب في أي مكان يذهب إليه. كان ساكناً وهادئاً، ينتظر بأناة، لا يخطو داخلاً، ولكنه لا يتحرك مبتعداً أيضاً.

تذكرتُ ما كان قاله لي أبي عن الموت ومعلِّمي الشاي، وعندما نظرت إلى سانيا الغارقة في ظلال الساعات التي قضتها بلا نوم على وجهها الذي ليس أكبر عمراً من وجهي، انهالت صورة ذلك الشيء، المنتظِر عند بابهم، فجأة على عظامي.

بعضُ الأشياء لا ينبغي أن تُرى. بعض الأشياء لا يجب أن تُقال.

"هل تقدمتِ بطلبٍ إذن لإصلاح أنابيب مياهك؟"

أفلتت سانيا صوتاً متهكماً. "أتظنين أن لدينا الوقتُ لانتظار كل عملية تقديم الطلب؟ لديّ كل قطع الغيار التي أحتاجها تقريباً. لكنني لم أعرف فقط كيف أفعل ذلك دون أن يلاحظ حرسُ الماء."

قالت ذلك بشكل عرَضي، كما لو أننا نتحدث عن شيء تافه ومألوف، وليس عن جريمة. فكرتُ بحرس المياه، بوجوههم الجامدة خلف قلنسواتهم الزرقاء الواقية من الحشرات، بسيرهم منتظم الخُطى وهم يجوبون الشوارع الضيقة في أزواج، متحقّقين من استخدام الناس الشهري لحصصهم من الماء ومُنفِّذين العقوبات. كنت قد

Twitter: @ketab_n

سمعت عن الضرب والاعتقالات والغرامات، والهمسات التي تدور في القرية عن أمور أسوأ، لكنني لم أعرف ما إذا كانت الشائعات صحيحة. فكّرت بأسلحة الحرس: سيوف لامعة طويلة رأيتهم يقطعون بها الحديد وهم يلهون في الشارع بقطعة من أنبوب ماء غير قانوني صادروه من منزل امرأة عجوز.

"أحضرتُ لكِ شيئاً لتصلحيه،" قلتُ، وبدأت بفك الأشرطة من حول حِملي من قِرب الماء. "لا عجلة بهذه. كم ستتقاضَين؟"

أحصت سانيا القِرَب بتمرير إصبعها على طول الكومة. "نصف يوم عمل. ملء ثلاث قِرب."

"سوف أدفع لك أربعا." كنت أعرف أن يوكارا كان سينجزُ العمل بملء قِربتين فقط، لكنني لم أهتم.

"بأربع سأُصلح لكِ واحدة من هذه على الفور."

"أحضَرتُ لكِ شيئاً آخر أيضاً." أخرجتُ كتاباً رقيقاً من حقيبتي. نظرَت سانيا إليه وأطلقت صوتاً صغيراً مستثاراً."

"أنتِ الأفضل!" ثم أعتمَت ملامحُها مرة أخرى. "أوه، لكنني لم أنتهِ من قراءة السابق بعد."

"لا يهم. قرأتُهما عدة مرات."

أخذَت سانيا الكتاب بتردد، لكنني رأيت أنها سعيدة. مثل معظم العائلات في القرية، لم يكن لدى عائلتها كتب. كانت القصص على الجهاز الإلكتروني أرخص ويمكن شراؤها من أي سوق، بخلاف كتب الورق.

حملنا القِرب ودُرنا بها حول المنزل إلى ورشة عمل سانيا التي كانت قد بنتها في الفناء الخلفي. كان السقف مصنوعاً من القصب البحري، وتكوَّنت ثلاثة من الجدران من شبكات الوقاية من الحشرات الممدودة بين أعمدة الدعائم الخشبية. وشكل حائط المنزل الخلفي جدار الورشة الرابع. سحبَت سانيا الباب السلكي المنسوج بعناية وأغلقته خلفنا بالمزلاج حتى لا يفتحه تيار الهواء.

وضعتُ القِرَب على مقعد التخطيط الخشبي الطويل في الوسط. وضعَتْ سانيا

Twitter: @ketab_n

البقية فوقه وحملَت واحدة إلى الطاولة الطويلة بجوار الجدار الصلب. كان أبي قد وضع علامة على مكان القَطْع بلون الشمندر، على شكل بُحمة غير منتظمة فوق سطح القِربة.

شغّلت سانيا موقداً يعمل بطاقة الشمس وأخذت أسلاكه تتوهج بلهب أحمر-برتقالي. تناولَت صندوقاً يحتوى على قطع بلاستيكية للترقيع من تحت الطاولة واختارت واحدة. راقبتُها وهي تتناوب على تسخين القربة والرقعة بحذر، حتى يلين السطحان ويُصبحا دبِقَين. ثم رأيتُها تثبت رقعة البلاستيك فوق الشقّ. وبعد التأكد من أنه غطى القَطع في القربة، تبدأ بتسوية الوصلة وتمليسها لتجعلها مُحكمَة.

بينما كنت أنتظر، تطلعتُ حولي في أرجاء الورشة. كانت سانيا قد جلبت المزيد من خردة البلاستيك منذ زيارتي الأخيرة قبل بضعة أسابيع. وكما هي الحال دائماً، امتلأت المناضد الطويلة بالأدوات، والفراشي، وجِرار الطلاء، والرفوف الخشبية، وفوانيس الإضاءة الفارغة، والكثير من الأجزاء والقطع التي لم أستطع التعرف إليها. ومع ذلك، احتلَّتْ معظم مساحة المكان صناديقُ خشبية تفيض بخردة البلاستيك والمعادن. كان المعدن هو الذي يصعب العثور عليه أكثر من البلاستيك، لأن الأجزاء الأكثر فائدة منه أُخِذت إلى المدينة ليصهرها الجيش منذ عقود، وبعد ذلك جمع الناس معظم ما يمكن استخدامه في شيء مفيد من مقابر المعادن. كان كل ما يمكنك أن تستخرجه بالنبش في تلك الأماكن في تلك الأيام هو قطع عشوائية عديمة الفائدة، لا صلة لأيّ منها بالأخرى.

أما البلاستيك الخردة، من ناحية أخرى، فبدا أنه لن ينفد أبداً، لأن بلاستيك العالَم الماضي كان يستغرق عدة قرون ليتحلل، خلافاً للبلاستيك الخاص بنا نحن. كان الكثير منه قليل الجودة أو متضرراً بشدة حتى أنه لا يمكن إعادة تدويره لأي شيء مفيد. لكنك إذا حفرتَ أعمق، فإنه يمكن أن تقع على كنوز في بعض الأحيان. كانت أفضل المكتشفات هي أجزاء من تكنولوجيا العالَم الماضي المحطومة، حيث كان المعدن والبلاستيك متداخلين ومصممين لفعل أشياء لم يعد يفعلها عالَمُنا الحاضر. في بعض الأحيان، كان يمكن العثور على قطعة من الآلات

Twitter: @ketab_n

المهجورة ما تزال سليمة إلى حد ما، أو أنه يمكن إصلاحها بسهولة، وكنا نتعجب لكونهم رموها في المقام الأول.

في واحد من الصناديق تحت الطاولة، كانت مجموعة من الأوعية البلاستيكية المكسورة: أكواب، صحون، وإبريق ماء. تحتها استقرّ زوج من المستطيلات البلاستيكية السوداء في حجم الكتب التي لديّ في غرفتي في المنزل وشكلها تقريباً، بسماكة بضعة سنتيمترات. كان أحد جوانبهما ناعماً مستوياً، لكن على الجانب الآخر ثقبان أبيضان مستديران مثل العجلات، ولهما تروس. كانت واحدة من حواف أحد المستطيلين فالتة، وقد امتدّ خارجاً منها شريطٌ ناعمٌ داكنٌ لامع. وكانت على البلاستيك كتابة صغيرة بارزة معظمها لم يكن مقروءاً، لكنني استطعت تمييز ثلاثة حروف: VHS.

"ما هذه؟" سألتُ.

كانت سانيا قد انتهت من تنعيم الوصلة على القربَة، واستدارت نحوي.

"ليست لديَّ فكرة،" قالت. "عثرتُ عليهما وأنا أنبش قمامة البلاستيك في الأسبوع الماضي. أعتقد أنها كانت أجزاء متحركة من آلة ما من التكنولوجيا السابقة، لكنني لا أستطيع التفكير فيما استُخدمت."

وضعَتْ سانيا الوعاء البلاستيكي الذي أصلحَتْهُ على رفّ. سوف يحتاج البلاستيك بعض الوقت حتى يلتحم تماماً. التقَطتْ حقيبة ظهر كبيرة عن الطاولة وحملَتها على ظهرها.

"هل تذهبين معي للبحث في الخُردة إلى أن يبرد الوعاء؟ سألَتْ.

بعد أن قطعنا بضعة مقاطع سكنية، كنتُ سأنعطف إلى الطريق التي اعتدنا سلوكها للبحث في مقبرة البلاستيك. لكن سانيا وقفت وقالت، "دعينا نسلك تلك الطريق."

لفتَتْ تلك العلامة انتباهي على الفور. ثمة منزل خشبي على جانب الطريق. كان طلاؤه المتشقق المتلاشي أصفر اللون ذات يوم، وكان أحد الألواح الشمسية على السقف ناقصاً زاوية. لم يكن المبنى يختلف عن معظم المنازل الأخرى في القرية:

Twitter: @ketab_n

شُيِّد في حقبة العالَم الماضي وتم تعديله لاحقاً ليلائم ظروف العالَم الحاضِر. لكنه تميّز من بين الجدران الناصلة عديمة اللون والساحات المتلاشية، لأنه المنزل الوحيد في الشارع الذي استقرّ على بابه طلاء جديد. كانت دائرة زرقاء لامعة قد رُسِمت على سطح الباب الخشبي البالي، شديدةَ اللمعان حتى أنها بدت رطبة. لم أكن قد رأيت واحدة مثلها قبل الآن.

"ما هذه؟" سألتُ.

"دعينا لا نتحدث هنا،" قالت سانيا وهي تسحبني بعيداً. رأيت أحد الجيران يخرج من المنزل المجاور. رأيته يتجنب النظر إلى المنزل ذي العلامة ويسرِّع خطواته عندما اضطر إلى السير بجواره. وفيما عداه، كان الشارع مهجوراً.

تبعتُ سانيا إلى طريق متعرج. اختلسَتْ نظرة من حولها، وعندما لم يكن هناك أحد في مرمى النظر، هَمسَت، "كان المنزل مُراقباً، ثم ظهرت الدائرة على الباب في الأسبوع الماضي. إنها علامة ارتكاب جريمة مياه خطيرة."

"كيف تعرفين؟"

"أمي أخبرتني. توقفَتْ زوجةُ الخباز عند باب هذا المنزل في أحد الأيام، وخرج لها اثنان من حَرس المياه فجأة من العدم وسألاها عن أي شأن لها هناك. قالا إن الناس الذين يعيشون في المنزل مجرمو مياه. سمحا لها بالذهاب فقط بعد أن أقنعتهما بأنها توقفت هناك لتبيع كعك بذور عباد الشمس."

كنتُ أعرف الذين يعيشون في المنزل. زوج وزوجة بلا أطفال مع والديهما المسنين. عانيتُ وقتاً صعباً وأنا أتخيلهم مذنبين بارتكاب جريمة مياه.

"ما الذي حدث للسكان؟" سألْتُ. فكرتُ بوجوههم البسيطة المنهكة وملابسهم الفقيرة.

"لا أحد يعرف على وجه اليقين ما إذا كانوا ما يزالون في الداخل أو أنهم أُخِذوا بعيداً،" أجابت سانيا.

"ماذا تظنين أنهم سيفعلون بهم؟"

نظرَت سانيا إليّ وهزّت كتفيها وصمتت. تذكرتُ ما قالَته عن بناء أنبوب ماءٍ

Twitter: @ketab_n

غير مشروع. اختلستُ نظرة ورائي. كان البيت والشارع قد اختفيا عن الأنظار، لكن الدائرة الزرقاء ظلت تومض أمام عيني: وشماً متقرحاً على جِلد القرية، جِدَّ ملتهبٍ حتى يتعذر الاقتراب منه بأمان، مدثَّراً بالصمت.

واصلنا السير في طريق متعرج.

عبرنا جدولاً ضحلاً موحلاً يسيل في المكان بالقرب من مقبرة البلاستيك. عندما كنا أطفالاً لم يكُن يُسمح لنا بالقدوم إلى هنا. قالت أمي إن الأرض حول المكان سامّة، وإن المشي في المقبرة خطير، يمكن أن تنزلق القدم في أي وقت ويمزق شيء حاد ما الملابس والبشرة. آنذاك، كنا نخطط لغزواتنا السرية إلى مقبرة البلاستيك بعناية، ونأتي عادة في الوقت بين النهار والليل، عندما لا يكون المكان مظلماً بحيث نحتاج فوانيس إضاءة، ولا يكون هناك ما يكفي من الضوء ليتعرف علينا أحد عن بُعد.

كان مدفَن البلاستيك هذا مكاناً كبيراً، وعِراً، ومليئاً بالجروف الصخرية، حيث تصادفك الزوايا الحادة والسطوح الخشنة والحواف المستقيمة والشظايا المسنّنة وترتفع بحدّة، وعلى غير توقُّع. وقد ظلت وديانُه الحادة التي تتموج هابطة صاعدة تحوِّل شكلَها باستمرار. كان الناس ينقلون أكوام القمامة من مكان إلى آخر، ويدوسون أنحاءه حتى تمتلئ وتكتظّ، ويحفرون الثقوب الكبيرة ويقيمون التلال بجوارها بحثاً عن قطع البلاستيك والخشب الصالحة للاستعمال، التي لا تكون شديدة التشوه إلى درجة فقدان الشكل تحت طبقات القمامة. وحتى الآن، ما تزال رائحة المقبرة ومشهدها المألوفان يعيدان لي ذكرى الحذاء الطويل الذي كنت أرتديه دائماً حتى لا تُخدَش ساقاي –خشونة نسيجه، وكيف كنتُ أحسّ بقدميّ زلقتين وساخنتين داخله.

الآن أنتعلُ صندلاً بنعال خشبية لا يغطي حتى كاحليّ، لكنني أصبحتُ أكبر سناً والنهارُ يبدو اليوم أكثر إشراقاً. تحطَّم البلاستيك الميت تحت ثقل خطواتنا، وطنّت ذبابات الخيل وغيرها من الحشرات بصخبٍ حول رؤوسنا المقنعة بالقلنسوات المضادة للحشرات. كنتُ قد أسدلتُ أكمامي وعقدتهما بإحكام على المعصمين،

Twitter: @ketab_n

وأنا أعرف أي أجزاء الجلد العاري تجتذب قدراً أكبر من الحشرات، وأن كاحليّ سينتفخان ويحمرّان بحلول المساء.

أبقيتُ عيناً باحثة عن أيّ شيء يستحق الجمع، لكنني مررت فقط بأشياء غير مثيرة للانتباه: صحائف بلاستيكية مغضنة بيضاء قذرة؛ أحذية غير مريحة بوضوح ذات كعب طويل مكسور، رأس دمية متحلل. توقفت واستدرت لأنظر ورائي، ولم أجد سانيا هناك. ثم رأيتها على بعد أمتار قليلة، تجلس القرفصاء وتحفر لاستخراج شيءٍ ما من كومة خردة. اقتربتُ منها عندما كانت تسحبُ ما بدا صندوقاً له غطاء من خليط غير متجانس من الأواني المكسورة، والعلّاقات الملتوية الشوهاء والشظايا الطويلة السوداء.

كان الصندوق في شكل مستطيل؛ لم يسبق أن رأيت واحداً مثله من قبل. بدا أن السطح الأسود المخدوش كان ناعماً ولامعاً ذات مرة. في نهاية كل من طرفَي المستطيل كانت دائرةٌ غائرةٌ مغطاة بشبكة معدنية مُحكَمَة.

"سمّاعات،" قالَتْ سانيا. "رأيتُ قِطَعاً مماثلة على أشياء أخرى من التكنولوجيا الماضية. كان هذا يُستخدم للاستماع إلى شيء ما."

بين السمّاعات، ثمّة تجويف غائر مستطيل الشكل، أعرض قليلاً من راحة يدي. وكان له غطاءٌ مكسور يمكن فتحه من الزاوية العلوية. وفوق الآلة بعض المفاتيح، وصفٌّ من الأزرار التي نُقشت فيها أسهم صغيرة تشير في اتجاهات مختلفة، بينها زرٌّ واحد أكبر من الأزرار الأخرى. وعندما يُدار، يتحرك مؤشر أحمر على مقياس مدرج معلَّم بتكوينات رقمية لا تعني شيئاً: ٩٢، ٩٨، ١٠٤، وهكذا. وفي الطرف الأيمن من المقياس تمكن رؤية الحروف MHz (ميغاهيرتز). وفي منتصف اللوحة العلوية، توجد فجوة مستديرة مسنَّنةٌ أكبر قليلاً من تلك التي في اللوحة الأمامية، مغطاة جزئياً بغطاءٍ شفّاف.

عرفتُ دون سؤال أن سانيا ستأخذ الآلة معها إلى المنزل. وقالت ملامح وجهها إنها شرعت منذ الآن في تخيُّل داخل الآلة المختفي خلف الغطاء في ذهنها، ورأت نفسها وهي تفتح الجهاز، وتستظهر ترتيب الأجزاء المختلفة عن ظهر قلب، وتزوده

Twitter: @ketab_n

بالطاقة من أحد المولدات الشمسية لترى ما سيحصل.

تجوَّلنا في مدفَن البلاستيك فترة أطول، لكننا لم نجد سوى القمامة المعتادة فقط: لعب مكسورة؛ شظايا لا يمكن التعرف إليها، أطباق تالفة وأشلاء متعفنة لا نهاية لها من أكياس البلاستيك. وعندما استدرنا لنعود إلى القرية، قلتُ لسانيا:

"أتمنى لو استطعت أن أحفر كل المسافة إلى القاع. ربما سأفهم العالَم الماضي عندئذ، والناس الذين تخلصوا من كل هذا ورموه في القمامة."

"أنتِ تنفقين الكثير من الوقت في التفكير بهم." قالت سانيا.

"أنتِ تفكرين بهم أيضاً،" قلتُ لها. "ما كنتِ ستأتين إلى هنا لولا ذلك."

"ليس هم ما أفكر به،" قالت سانيا. "آلامهم فقط، ما كانوا يعرفونه وما تركوه لنا." توقفَتْ ووضعَتْ يدها على ذراعي. أحسسْتُ بملمس أطراف أصابعها الدافئ عبر نسيج أكمامي، وبحرق الشمس من حوله -نوعين مختلفين متجاورين من الحرارة. "لا جدوى من التفكير بهم، نوريا. هم لم يفكروا بنا، أيضاً."

حاولتُ ألا أفكر بهم، لكن عالَمهم الماضي ينزِف متسللاً إلى عالمِنا الراهن، إلى سمائه، إلى غباره. هل ينزف العالَم الحاضر، العالَم الكائن الآن عائداً إلى عالمهم الماضي، إلى العالَم الذي كان؟ أتخيل واحداً منهم يقف بجانب النهر الذي أصبح الآن أثر جرح جافٍّ في مشهدنا، امرأة ليست صغيرة ولا كبيرة، أو ربما رجلا، لا يهم. شعرها بنيٌّ شاحب وهي تنظر إلى الماء الذي يندفع بجوارها، ربما موحلاً، ربما صافياً، فينما ينزِفُ داخلاً في أفكارِها شيءٌ ليس كائناً بعد.

أحبُّ أن أفكر بأنها تستدير، وتعود إلى البيت وتفعل شيئاً واحداً بشكل مختلف في ذلك اليوم بسبب ما تخيّلَتْه، ثُمَّ مرة أخرى في اليوم التالي، وأخرى في الذي يليه.

ومع ذلك، أرى "هيَ" أخرى، تستديرُ عائدة ولا تفعل أي شيء بشكل مختلف، ولا أستطيع أن أعرف أي واحدة منهما هي الحقيقية وأيهما مجرد انعكاس في ماء ساكنٍ صافٍ، حادٌّ الملامح بما يكفي ليخلط المرء بينه وبين الأصل.

أنظرُ إلى السماء وأنظر إلى الضوء وأنظر إلى شكل الأرض، هي ما هي عليه

Twitter: @ketab_n

بكليّتها، ولكنها ليست هي مع ذلك، والنزيف لا يتوقف أبداً.

تحدثنا قليلاً في طريق عودتنا إلى منزل سانيا.

وقفَتْ سانيا في ظل الشرفة بينما أقوم بتثبيت القِرَب التي تم إصلاحها على العربة. دستُ على دواسة دراجتي. أضاء النهار من حولنا طويلاً ومشرقاً، وهي بدَتْ طويلة، نحيلة، زرقاء رماديّةً في الظل الداكن.

"نوريا،" قالت. "والأجرة."

"سأجلبُ لكِ ملء أول قربتين في وقت لاحق اليوم، " قلت. وعندما شرعت في الانطلاق نحو منزل معلم الشاي، رأيتها تبتسم. كانت ابتسامةً هزيلةً وبلا لون، لكنها كانت ابتسامة، مع ذلك.

لن يكون أبي مسروراً.

Twitter: @ketab_n

الفصل الثالث

في وقت متأخر من بعد ظهر اليوم التالي قطعتُ الممرّ من بيت الشاي باتجاه البوابة. توقفتُ على الطريق بجوار حديقة الصخور لألتقط بعض النعناع. تموَّجت الرمال الشاحبة حول الصخور الرمادية الداكنة مثلما يحيط الماء بالجزُر المهجورة. انبثقت نبتات الشاي الثلاث خارجة مُباشَرةً من حافة الرمل نحو السماء، واضحةً مثل لهب أخضر. وضعتُ أوراقَ النعناع في فمي ومضيت إلى الأكمة الصغيرة في ظل شجرة الصنوبر بجوار الباب، حيث استطعت رؤية الطريق من خلال ظلال الأشجار المتناثرة. كانت أشدُّ حرارة النهار قد مرت مُسبقاً، وبدا زيُّ معلم الشاي الطقوسي بارداً ولطيفاً على جِلدي. ومع ذلك، كان الصندل صلب النعل غير مريح تحت قدميّ المتعبتين، وكانت ذراعاي تؤلمانني أيضاً.

كان والدي قد نهض بعد ساعات قليلة من النوم في الضوء الذهبي الشاحب لليلة بيضاء، تحوَّلت إلى صباح. لم يكن يوقظني دائماً مبكراً هكذا في أيام أداء مراسم الشاي، لكنه لم يكن رؤوفًا هذه المرة. كنت أعرف أن ذلك هو عقابي غير المعلن على تأخري كثيراً في منزل سانيا في اليوم السابق. كلَّفني بأداء مهمة بعد أخرى، وأحياناً ثلاثاً في آن واحد. وبحلول الوقت

Twitter: @ketab_n

الذي نهضَت فيه والدتي لتناول الإفطار، كنت قد مشّطتُ حديقة الصخور، وحملتُ عدة قِرب ماء إلى بيت الشاي، وكنستُ الأرض مرتين، وعلقتُ فوانيس إضاءة مزينة في الخارج والداخل، وشمَّستُ ملابس الطقوس، وغسلتُ أكواب الشاي والأوعية وجفَّفتُها، ووضعتها على صينية خشبية، وكنستُ الغبار من الحوض الحجري في الحديقة، ونقلت المقعد الطويل في الشرفة ثلاث مرات قبل أن يرضى أبي بوضعه.

هكذا، كان شعوراً بالفرج هو الذي راودني حين مشيت إلى البوابة لانتظار ضيوفنا، بعد أن أطلق أبي سراحي من واجباتي في تهيئة الاستعدادات أخيراً. لم أتناولْ أي شيء منذ وجبة الإفطار، ومضغتُ أوراق النعناع حتى أطردَ جوعي. وجدت صعوبة في إبقاء عينيَّ مفتوحتين في ضوء شمس ما بعد الظهيرة الباهت. خفقَ رنين جرس الريح الخافت المعلق في الحديقة في أذنيّ. كان الطريقُ مهجوراً والسماء تندالُ عميقة فوقي، وأحسست في كل مكان من حولي بالتحولات الصغيرة الجارية في نسيج العالم، بحركة الحياة نفسها وهي تتمدد وتنكمش.

اضطربت الريح وعادت فهدأت مرة أخرى. انسابت المياه المختفية في صمت الأرض. غيّرَت الظلال أشكالها ببطء.

في نهاية المطاف رأيت حركة على الطريق، وشيئاً فشيئاً بدأت أميز هيئة شخصين بملابس زرقاء في عربة آلية يقودها شخص ثالث. وعندما وصلوا إلى حافة الأشجار، قرعتُ جرسَ الريح الكبير الذي يتدلى من شجرة الصنوبر. وبعد لحظة سمعت ثلاثَ دقات تأتي من جهة بيت الشاي، وعرفت أن أبي مستعدٌّ لاستقبال الضيوف.

توقفت العربة الآلية بالقرب من البوابة في ظل سقف محبوك من القصب البحري بُني ليُظلل مركبات الضيوف، وترجل منها الرجلان في الزي العسكري لجيش تشيان الجديدة. ميّزتُ الأكبر سناً: كان اسمه بولين، وهو ضيف شاي منتظم يأتي إلينا كل بضعة أشهر قاطعاً كل الطريق من مدينة كوسامو، ويدفع

Twitter: @ketab_n

جيداً دائماً ماءً وبضائعَ. كان أبي يقدّره لأنه يعرف آداب مراسم الشاي وطقوسه، ولا يطالب أبداً بمعاملة خاصة على الرغم من مكانته. كما أنه كان يألف العادات المحلية، بما أنه ينحدر أصلاً من قريتنا. كان مسؤولاً رفيع الرتبة، والحاكم العسكري لتشيان الجديدة في المناطق المحتلة من الاتحاد الإسكندنافي. وتحمل سترته شارة سمكة فضية صغيرة.

أما الضيف الآخر، فلم أكن قد رأيته من قبل. ومن السمكتين الفضيتين على زيه العسكري، فهمت أنه صاحب رتبة أعلى من بولين. وحتى قبل أن أرى وجهه من خلل حجاب قلنسوة الوقاية من الحشرات الرقيق، أعطتني وقفته وتحركاته الانطباع بأنه أصغر سناً من الاثنين. انحنيت وانتظرت أن ينحنيا رداً على تحيتي. انعطفتُ إلى طريق الحديقة. مشيتُ أمامهما بخطو بطيء قصداً حتى أعطيهما الوقت للدخول في صمت طقوس الشاي المتئد.

التمع العشب في الشمس أمام بيت الشاي: كان أبي قد رشه بالماء كرمز للنقاء، كما هي العادة. غسلتُ يدي في الحوض الحجري الذي كنت قد ملأته من قبل، وحذا الضيفان حذوي. ثم جلسا على المقعد الطويل في الانتظار. وبعد لحظة، دق الجرس داخل بيت الشاي. زلقتُ بابَ مدخل الضيوف إلى جانب، ودعوت الضيفين إلى الدخول. ركع بولين عند المدخل المنخفض ببعض الصعوبة، ثم زحف من خلاله. ووقف الضابط الأصغر سناً ونظر إليّ. بدت عيناه سوداوين وقاسيتين خلف القلنسوة الواقية من الحشرات.

"هل هذا هو المدخل الوحيد؟" سأل.

"هناك واحد آخر لمعلِّم الشاي، يا سيدي، لكن الضيوف لا يستخدمونه أبداً." وانحنيتُ.

"في المدن يعثر المرء الآن بالكاد على معلمي شاي يطلبون إلى ضيوفهم الركوع عند الدخول،" أجاب.

"هذا بيت شاي قديم، يا سيدي." قلت. "وقد بُني ليجسد الفكرة

Twitter: @ketab_n

القديمة: أن الشاي يخصُّ الجميع على قدم المساواة، ولذلك يركع الجميع قبل الطقوس على قدم المساواة." لم أنحنِ هذه المرة، وظننتُ أنني لمحتُ الانزعاج على وجهه قبل أن يستقر تعبيره على ابتسامة مهذبة ساكنة. لم يقل المزيد، وإنما هبط راكعاً على ركبتيه وعبر من خلال المدخل إلى بيت الشاي. تبعته وانزلقتُ داخلةً وأغلقتُ الباب ورائي. ارتجفَت أصابعي قليلاً على الإطار الخشبي. أملتُ ألا يلحظ أحد ذلك.

كان الضيف الأكبر سناً قد جلسَ قرب الجدار القريب وجلس الأصغر بجانبه. جلستُ عند مدخل الضيوف. كان أبي يجلس على ركبتيه قبالة الضيوف، وبمجرد أن خلعنا قلنسواتنا الواقية من الحشرات، انحنى.

"أهلاً، رائد بولين. هذا سرور طال انتظاره. الكثير من الماء تدفق منذ زرتنا آخر مرة." كان أبي يلتزم التزاماً صارما بآداب المراسم، لكنني استطعت أن أسمع دفئاً طفيفاً في صوته، مُدَّخراً فقط للأصدقاء والزبائن القدماء.

انحنى الرائد بولين.

"مُعلِّم كيشيو، يسعدني أن أكون في بيت شايكَ مرة أخرى. جلبتُ ضيفاً معي، وآمل أن يستمتع بشايك بقدر ما أفعل." التفتَ إلى رفيقه. "هذا القائد تارو. وقد انتقل لتوّه فقط إلى هنا من إقليم جنوبيٍّ بعيد في تشيان الجديدة، ورغبتُ أن أرحب به بدعوته لتذوُّق أفضل شاي في الاتحاد الإسكندنافي."

الآن ولم يعد يرتدي قلنسوة الحشرات، رأيتُ بوضوح أن تارو أصغر سناً من بولين. كان وجهه ناعماً، ولم يكن أي شَيب يتخلل شعره الأسود. لم يتغير التعبير على وجهه عندما انحنى بالتحية.

بعد أن رحب أبي بتارو بانحناءة أخرى، ذهب إلى غرفة الماء وعاد سريعاً وهو يحمل مِرجلاً. وضعه في الموقد على الأرض فوق الجفت الجاف الذي أشعله بالمِقدَح. طقطقَت حجارة الصوان وهي تصطدم بعضها ببعض. سمِعتُ حفيفَ ثيابه وهو يذهب إلى غرفة الماء مرة أخرى ويعود بصينية

Twitter: @ketab_n

خشبية عليها كوبان وزوج من أباريق الشاي، واحد معدني كبير وآخر صغير من الخزف. وضع الصينية بجوار الموقد على الأرض، واختار مكانه بحيث يستطيع أن يرى الماء في المرجل. كنت أعرف أن الرائد بولين يفضل الشاي الأخضر الذي يتطلب ألا يكون الماء ساخناً جداً. "عندما تستطيعين أن تحصي عشر فقاعات صغيرة في قاع المرجل، يكون الوقت قد حان لرفع الماء ووضعه في إبريق الشاي،" كان أبي قد علَّمني. "خمس فقاعات قليل جداً، وعشرون كثير جداً."

عندما وصل الماء درجة الحرارة المناسبة، متَح أبي بعضاً منه من المرجل في إبريق الشاي الكبير. أيامَ كنتُ طفلة، كنت أتعقب حركاته وأحاول تقليدها أمام المرآة حتى تؤلمني ذراعاي وعنقي وظهري. لكنني لم أصل أبداً إلى نفس السلاسة والتدفق غير المقيد الذي رأيته فيه: كان مثل شجرة تنحني في الريح، أو خصلة شعر تعوم في الماء. بدت حركاتي خرقاء جامدة مقارنة بحركاته. "إنكِ تحاولين نسخ الحركة الخارجية،" كان يقول لي في ذلك الحين. "يجب أن يأتي الدفق من الداخل ويمر عبرك بلا هوادة، بلا توقف، مثل التنفس أو الحياة."

فقط بعد أن بدأت أفكرُ بالماءِ، بدأت أفهم ما قصده.

الماء ليست له بداية ولا نهاية، وحركات معلِّم الشاي وهو يُعِدُّ الشاي ليست لها أي منهما، أيضاً. كل سكتةٍ، كل سكنة هي جزء من التيار. وإذا بدا وأنه توقف، فذلك لأن حواس الإنسان لا تكون كافية لإدراكه فقط. ثمة الدفق نفسه، يعلو ويتلاشى ويتغير فحسب، مثل الماء الذي يغلي في مرجل الحديد، مثل الحياة.

عندما أدركت ذلك، بدأت الحركات تغوص داخلة من سطح جِلدي وعضلاتي المتوترة وتذهب أعمق، تحت جلدي.

سكب والدي الماء من إبريق الشاي الكبير في الإبريق الأصغر الذي يضمّ أوراق الشاي. ثم سكب شايه الرائق المختمر بسرعة من الإبريق الأصغر في

Twitter: @ketab_n

الأكواب من أجل تدفئتها. وكخطوة نهائية للإعداد، ملأ إبريق الشاي الصغير مرة أخرى بالشاي الذي في الكؤوس، ناقعاً جوانب الإبريق الخزفية بينما تفرج الأوراق داخله عن نكهتها. خففت الفوانيس المتدلية من السقف بهدوء، ناثرة ضوءها على الماء الذي ينتشر على الصينية. ونفَساً وراء نفَس، تركتُ نفسي تغوص في الطقس وتستغرق في الأحاسيس من حولي: التماعات الضوء الضارب إلى الصفرة؛ عبق الشاي الحلو، المعشوشب؛ غضون نسيج سروالي وهي تنضغط على ساقيّ؛ قعقعة إبريق الشاي المعدني الرطبة عندما وضعه أبي على الصينية. كلها اشتبكت واندغمت في تيار واحد تتسرب أنفاسه من خلالي، ويسكُن الدم في عروقي، ويأخذني أقرب وأعمق في داخل اللحظة، حتى شعرت كما لو أنني لست الشخص الذي يتنفس بعد الآن، وإنما الحياة نفسها هي التي تتنفس من خلالي، وتصلني بالسماء من فوقي والأرض من تحتي.

ثم، انقطع الدفق.

"قد يقول البعض أن هذا هدرٌ كاملٌ للماء." قال القائد تارو هذه الكلمات. كان صوته منخفضاً ولِيناً بشكل غريب. وجدتُ صعوبة في تخيُّل أي شخص يقود الجيوش بمثل هذا الصوت. "من النادر أن تجدوا أحداً هذه الأيام يمكن أن يتكلف مؤونة إنفاق الماء على طقس شاي كاملٍ غير مختصر،" واصل تارو.

مع أنني لم أكن أنظر إلى أبي، أحسستُ بأنه تجمَّد، كما لو أن شبكة غير مرئية انشدت تحت جلده.

إحدى القواعد غير المكتوبة لمراسم الشاي هي أن الأحاديث خلاله تُقتَصَرُ على ملاحظات حول نوعية الماء والشاي، ومحصول السنة في مناطق الري، والطقس، والأصول والحِرَفية في صناعة أدوات الشاي أو زخرفة بيت الشاي. لم تكن المسائل الشخصية تناقَش فيه، ولا يتم الإدلاء أبداً بملاحظات انتقادية.

Twitter: @ketab_n

تغيّر بولين كما لو أن يراعَة زحفَت إلى داخل بزته العسكرية.

"كما قلتُ لكَ، تارو، المعلِّم كيشيو مهنيٌّ من الأكثر تميزاً. من دواعي الشرف أنه أبقى على طقس الشاي دون تغيير لأولئك منا الذين يتمتعون بمزية الاستمتاع به،" قال دون أن ينظر إلى تارو. وإنما نظر بدلاً إلى أبي بعطف.

"أفهم هذا،" قال تارو. "لكنني لا أستطيع سوى الإعراب عن دهشتي من استطاعة معلم الشاي في مثل هذه القرية النائية إنفاق الماء بكل هذا السخاء. يجب أن تعرف، رائد بولين، أن حفل الشاي بكل أشكاله في العالم الحالي ليس أكثر من مجرد أثر قديم غير أصيل ومرتبك لأشكال العالَم الماضي التي طواها النسيان. لذلك سيكون من الطيش الزعم بأن الحفاظ على التقاليد يتطلب إهدار الماء".

بدا وجه أبي مقدوداً من حجرٍ لا يتحرك، لكنه يخفي تيارات قوية تحت السطح. تحدث بهدوء بالغ.

"سيدي،" قال أبي، "أؤكد لكم أنني أمارس مراسم الشاي تماماً كما تم تمريرها عبر عشرة أجيال منذ انتقل أول معلِّم شاي إلى هذا البيت. لم يتغيّر فيه أدنى تفصيل."

"ليس أدنى تفصيل؟" سأل تارو. "هل كان من العرف دائماً، عندئذ، أن يقبل معلّمو الشاي النساء كمتدربات؟" أومأ في اتجاهي وشعرتُ بحرارة الدم تلون وجهي، كما كانَ يحدثُ كثيراً عندما ينتبه إليّ الغرباء.

"كان العرف دائماً أن يمرِّرَ الآباء مهاراتهم إلى أبنائهم، وابنتي هنا سوف تكون معلم شاي رائعاً يمكنني أن أفتخر به،" قال أبي. "نوريا، لِمَ لا تقدِّمين الحلويات مع الشاي الأول؟"

أول فنجان من الشاي المختمر، أو "الشاي الأول"، كما هو معروف، كان يعتبر أهم جزء من الطقس، وستكون أي محادثة غير لائقة في تلك المرحلة إساءة خطيرة، ليس لمعلم الشاي فحسب، وإنما للضيوف الآخرين

Twitter: @ketab_n

كذلك. ظل تارو صامتاً بينما أقدِّمُ وعاءً من القش يضم حلويات شاي صغيرة كنتُ قد أعددتها في ذلك الصباح من العسل وقطيفة الدقيق. ظل وجه والدي ساكناً وغير قابل للقراءة بينما يضع حصص الشاي في الأكواب. قدم الكوب الأول للرائد بولين، والثاني للقائد تارو. تنشق بولين رائحة الشاي فترة طويلة قبل أن يتذوقه ويغلق عينيه، وأبقى الشاي في فمه دون أن يبتلعه مباشرة لكي يشعر بنكهته الكاملة. وتارو، من جانبه، رفع الكأس إلى شفتيه، شرب رشفة طويلة ثم رفع عينيه. كانت ابتسامة غريبة ترتسم على وجهه.

"كان بولين على حق،" قال. "إنّ مهارتك مدهشة حقاً، معلِّم كيشيو. لا يستطيع حتى معلّمو الشاي في العاصمة، الذين يُزوّدون بانتظام بماء طبيعي عذب من خارج المدينة، تحضير مثل هذا الشاي صافي المذاق. لو أنني لا أعرف أفضل، لظننتُ أن هذا الشاي صُنع بماء ينبوع وليس من ماء البحر المحلّى."

بدا الهواء ساكناً لا يرفّ عندما وضع أبي الصينية، وتحرك شيء بارد ثقيل تحت قلبي. فكرتُ بالماء السري الذي ينسابُ عميقاً داخل الصخور الساكنة في جوف التل.

لم أعرف من كان هذا الرجل، أو ما هو السبب الحقيقي لزيارته؛ ومع ذلك، شعرت كما لو أن في خطاه، حيث أبلى حذاؤه بلاط الممر وحرك سيقان العشب بأناة حتى أن الهواء وحده هو الذي أحس، شعرتُ كما لو أنّ هيكلاً نحيل الهيئة تعقب موضع خطواته وتبعه عبر الحديقة، ثم كل الطريق إلى شرفة بيت الشاي. كان ذلك الهيكل صبوراً لا يَمَل، ولم أُرد أن أنظر في اتجاهه، أو أن أفتح الباب المنزلق وأراه هناك تحت الأشجار أو بجوار الحوض الحجري، ينتظر. لم أعرف ما إذا كان أبي قد أحسّ بالشيء نفسه، لأنه لم يكن يسمح لأفكاره بأن تظهر على وجهه.

شرب الرائد بولين من كأسه، وقال: "يُسعدني أن شايكَ أعجب القائد تارو. لقد نُقِل إلى هنا للإشراف على الحكومة المحلية، وهو يعمل حالياً في ارتباط وثيق معي."

Twitter: @ketab_n

مسح تارو فمه.

"أنا مكلف بشكل خاص بوضع حد لجرائم المياه وجلبها تحت السيطرة،" قال. "ربما تكونون قد سمعتم بأنها ازدادت في الاتحاد الإسكندنافي في الآونة الأخيرة." توقف حتى ملأ صمتُه الغرفة. "أنا على يقين أننا سنرى بعضنا كثيراً في المستقبل."

"لكم ذلك سار،" قال أبي وانحنى. وحذوتُ حذوه.

"إنه يحظى بتقدير كبير في العاصمة،" واصل بولين. "وأقول إن أي شخص يحظى بحمايته محظوظ، لكنني لا أود الإيحاء بأن تشيان الجديدة ليست مكاناً يضمن العيش المتساوي للجميع." ضحك من عبارته الخاصة، وابتسمتُ أنا وأبي بخضوع.

قدَّم أبي جولة أخرى من الشاي. وقدمتُ أنا المزيد من الحلويات، وأخذ كل من بولين وتارو واحدة لكل منها. وتحدث تارو إلى أبي مرة أخرى.

"لا أستطيع سوى أن أعجب بحديقتك، يا معلم. ليس من المعتاد أن يرى المرء مثل هذه الخضرة في مكان بعيدٍ كثيراً عن مناطق السقي. كيف تستطيع أن تمدّد حصتك من الماء –لا لتكفي عائلتك وحسب، وإنما كل نباتاتك أيضاً؟"

"لأسباب مهنية، من الطبيعي أن تكون حصة معلِّم الشاي من المياه أكبر شيئاً ما من حصص معظم المواطنين،" عقَّب بولين.

"من الطبيعي،" قال تارو، "لكنه يظل عليّ أن أتساءل عن أي أنواع من التضحيات يتطلبها الحفاظ على مثل هذه الحديقة. قل لي، يا معلم كيشيو، ما هو سرك؟"

قبل أن يتسنى لأبي أن يقول أي شيء، تكلم بولين.

"ألم نصرف وقتاً كافياً في اللغو الفائض بينما كنا نستطيع الاستمتاع بالشاي بصمت وننسى أحزان العالم الخارجي لفترة قصيرة؟" كان ينظر إلى تارو. ومع أن صوته لم يكن حاداً، استطعتُ أن أسمع شيئاً من الحِدّةِ مخبأً في داخله. حدق تارو فيه لحظة وجيزة مكتومة الصوت، ثم استدار ببطء لينظر إلى أبي ولم يحول عينيه عنه وهو يتحدث.

Twitter: @ketab_n

"ربما تكونُ على حق، رائد بولين. ربما أدخر أسئلتي لزيارة أخرى، والتي آمل أن أتمكن من القيام بها في وقت قريب." وسكَت.

بعد ذلك، قيل القليل من العبارات السطحية، ولم تكن لأي منها أي علاقة بالماء، بطعم الشاي أو بالحديقة. ومعظم الوقت، انتشر الصمت في أنحاء بيت الشاي ولفَّنا بعباءته مثل دخان يتصاعد ببطء من نار خفيّة.

انتهت الحلويات.

فرغ إبريق الشاي الكبير، ثم المرجل.

ينتهي الاحتفال عندما لا يعود هناك المزيد من الماء.

في النهاية، انحنى الضيفان مستأذنَين بالمغادرة ووضعا القلنسوتين الواقيتين من الحشرات على رأسيهما. قُدتُ الطريق عبر الباب المنزلق المنخفض نفسه الذي كنا قد استخدمناه في الدخول. في الخارج، كانت غلالة المساء الصيفي الرقيقة قد امتدت بين النهار والليل. توهجت يراعات الضوء بخفوت في مصابيحها المعلقة من الطنف. تبعني الرائد بولين والقائد تارو إلى البوابة حيث رفع سائق العربة بصره عن لعبة "جونغ سوليتير" في جهازه المحمول، شرب جرعة كبيرة من قِربة صغيرة، وقوم ظهره واستعدَّ للمغادرة. صعد الضيفان إلى العربة وقالا عبارات الوداع الرسمية.

عدت إلى بيت الشاي. حول قرص شمس المساء المتأخر، اتخذت السماء لون أزهار الجرس الليلكية النامية بجوار المنزل. كان الهواء ساكناً وسيقان العشب تستدير باتجاه الليل.

مسحت الأكواب والأواني والأدوات بعناية ووضعتها في مخدعها، ثم ساعدتُ أبي في تنظيف بيت الشاي. كانت أطرافي ثقيلة عندما شرعت أخيراً في إفراغ الفوانيس. اختفت يراعات الضوء في الأدغال، ورأيت وهجها وهو يومض بين الأوراق. خرج أبي من بيت الشاي في زي المعلِّم، حاملاً بيده قلنسوته الواقية من الحشرات. ورسم ضوء السماء الليلية المنصهر خطوطاً على وجهه.

"أعتقدُ أنكِ قد تعلَّمتِ ما يكفي لتصبحي معلّم شاي في احتفالات منتصف

Twitter: @ketab_n

الخريف عندما يكتمل القمر." كان ذلك هو كل ما قاله قبل أن يمضي نحو البيت. وقد فوجئت بتصريحه، لكن الصمت الذي تلا جعلني أكثر قلقاً بكثير مما يمكن أن تصنع أي كلمات.

أعدتُ الفوانيس ثانية إلى بيت الشاي، ولففتها بالقماش واحداً واحداً، ووضعتها داخل الصندوق الخشبي حيثُ تُحفظ. سكبتُ يراعات الضوء من أحدها في فانوس عاديّ غير مزخرف من أجل ضوئي الليلي الخاص.

سِرتُ حول بيت الشاي، بين الأشجار وعلى العشب لفترة طويلة. خفف ندى الليل لدغات الحشرات الحارقة اللاذعة على كاحلي. لم أرَ الهيكل النحيل القاتم ينتظر تحت أشجار الصنوبر، أو يعبر حديقة الصخور أو يجلس في شرفة بيت الشاي، لكنني لم أعرف ما إذا كان ذلك فقط لأنني لم أكن أنظر في الاتجاه الصحيح.

Twitter: @ketab_n

الفصل الرابع

استلقيتُ في سريري واستمعتُ إلى نقر يراعات الضوء البطيء المتفرق على جدران الفانوس الزجاجية. لم تكن ثمة حاجة حقيقية للفانوس، لأن الشمس كانت ما تزال مصباحاً برتقالياً ذهبياً معلقاً في الأفق، مثقلاً بأنفاس آخر الليل، كانت السماء تنفرش حولها شفافة، وتدفق الضوء إلى غرفتي عبر شبكة الحشرات المُسدلة على النافذة. في الطرف الآخر من المنزل كنت أسمع أصوات أبي وأمي خافتة، وقد اختنقت الكلمات المخبأة وأصبحت غامضة في المسافة. كنتُ أسمعهما يتحدثان هكذا كل ليلة تقريباً منذ زارنا الرائد بولين والقائد تارو، ثم تبقى أمي بعد ذلك مستيقظة لوقت أطول كثيراً مما تفعل عادة. حاولَتْ أن تظل هادئة، لكنني كنت أسمع حركتها القلقة وهي تتجول بين غرفة مكتبها والمطبخ، ورأيت وهج فانوسها الخافت من خلال الشق تحت بابي وهي تمر جيئة وذهاباً.

كنت أحمل في يدي واحداً من الكتب القديمة التي بقيَت في البيت، قصة رحلة خلال فصل الشتاء. كنت أعرفها عن ظهر قلب، وتدفقت الكلمات مراوغة على الصفحات أمام عيني، وكأنها تتجنب الوقوع في قبضة أفكاري. لم أكن أفكر بالقصة. كنت أفكر بالعالم الذي كُتِبتْ فيه.

حاولتُ في كثير من الأحيان أن أتصور كيف كانت الشتاءات في العالَم الماضي.

Twitter: @ketab_n

كنت أعرف شكل الظلام: كلَّ خريف حول أعياد منتصف الفصل، كان الليل يلتقي بالنهار كي يتبادلا الأماكن وتتحول السنة نحو فصل الشتاء. خلال أشهر الشفَق الستة، تشتعل الفوانيس الكبيرة في كل غرف المنزل كل ساعة، وتضاء المصابيح الشمسية بجانبها في سواد المساء العميق مثل الحبر. ومن على قمة التل، يستطيع المرء أن يرى وهج المدن البعيدة في السماء المعتمة: هالة كولوياري البعيدة، الواضحة في الشرق، حيث المناطق المروية والبحر، والومضات التي تكاد لا تُرى من مدينة كوسامو البعيدة في الأفق الجنوبي. عندئذٍ تفقد الأرض اخضرارها الشحيح. والحديقة تنتظر عودة الشمس، صامتة وعارية.

من الناحية الأخرى، كان مجرد تخيل البرودة أمراً صعباً. اعتدتُ ارتداء طبقات أكثر من الملابس خلال الموسم المعتم وحمل الجفت من المستنقع المستنفد من أجل المواقد والمباخر بمجرد أن تنفد الطاقة الشمسية، في العادة مباشرة بعد أعياد انتصاف الشتاء. ولكن، حتى حينئذ، نادراً ما تهبط الحرارة في الخارج إلى أقل من عشر درجات، وفي الأيام الدافئة، كنت أسير بالصندل، تماماً مثلما في الصيف.

عندما كان عمري ست سنوات، قرأت في كتاب من العالَم الماضي عن الثلج والجليد، وسألت أمي عنهما. التقطت واحداً من مجلداتها السميكة رصينة المظهر عن رف كان عالياً جداً بالنسبة لي في ذلك الوقت، وأرتني الصور —ثمة أشكال بيضاء متلألئة، مستديرة وحادة، في مناطق غريبة، مضيئة مثل الضوء المتبلور– قالت لي إنها ماءٌ اتخذ شكلاً مختلفاً في درجات حرارة منخفضة، في ظروف لا يمكن إنتاجها في عالَمنا الحالي إلا بشكل اصطناعي، لكنها كانت ذات مرة جزءاً طبيعياً من الفصول وحياة الناس.

"ما الذي حدث لها؟" سألتُ. "لماذا لم يعد لدينا ثلج وجليد الآن؟"

نظرَت أمي إليّ، وإنما من خلالي أيضاً، كما لو أنها تحاول أن تُبصِر من خلال الأفكار والكلمات والقرون، إلى شتاءات مضت وانقضت منذ زمن سحيق.

"تغيَّر العالم،" قالت. "المعظم يعتقدون أنه تغير من تلقاء نفسه، أنه استنفدَ حصته ببساطة. لكن الكثير من المعرفة فُقد خلال عصر الشفق، وهناك أولئك

Twitter: @ketab_n

الذين يعتقدون أن الناس هم الذين غيروا العالم، عن غير قصد أو بقصد".

"ماذا تعتقدين أنتِ؟" سألتُ.

ظلت صامتة طويلاً، ثم قالت: "أعتقد أن العالم ما كان ليصبح ما هو عليه اليوم لولا الناس."

في مخيلتي، توهَّج الثلج بضوء أبيضَ خافت، كما لو أن مليارات من يراعات الضوء طرحَت عنها أجنحتها، وغطت بها الأرض. أصبحت الظلمة أكثر شفافية وأخف وزناً في عقلي عندما فكرت بها على خلفية الوميض الأبيض الفضي، وملأني الحنين إلى العالَم الماضي الذي لم أعرفه أبداً. تصورت أسماك النُّور تلمع على صفحة السماء فوق الثلج المشع، وفي بعض الأحيان، أضاءت الشتاءات المفقودة أكثر إشراقا من الصيف.

ذات مرة أجريت تجربة. ملأت دلوا بالماء وأفرغت كل الثلج الذي وجدته في الثلاجة فيه، وتسللت به إلى غرفتي وأغلقتُ الباب. دفعت يدي داخل دثار الماء المُثلَج، وأغلقت عينيّ واستحضرت مشاعر شتاءات العالَم الماضي التي كنت قد قرأت عنها الكثير من القصص. استحضرتُ مشهد صحائف ثلج بيضاء تتساقط من السماء وتغطي الدروب التي تعرفها قدماي، وتدثِّر المنزل الذي يحتفظ بذكرى البرد في جدرانه وأساساته. تخيلتُ هطول الثلوج وهو يطلي التلال، ويحوِّل سطوحها الصخرية إلى مشاهد ناعمة كالنَّوم، مهيأة لإغراقك، مثله. استحضرتُ صورة قشرة جليدية بصفاء الزجاج وهي تلفُّ الحديقة، وتحفظ خضرة نصال العشب وتجمِّدُ الماء طويلاً في البراميل والأنابيب. تخيلت فروع الأشجار المتجمدة الرائقة التي تصنعها، وقرَبَ الماء المتصلبة وهي تتدلى من الطنف، عندما تصفقها الريح بعضها ببعض.

فكرتُ بالماء، المتحول بلا انتهاء. فكرتُ باللحظة المؤجلة، حين تتوقف الحركة في بلورة ثلج أو قشرة من جليد. سكون، صمت. نهاية، أو لعلها بداية.

شقت شفرة الثلج الذائب الثقيلة المثلمة طريقها إلى عظامي. فتحتُ عينيّ. كان النهار خارج النافذة يضطرم بلهب طويل ساطع، محولاً الأرض ببطء إلى غبار ورماد. سحبتُ يدي من الماء. كان جلدي محمرّاً ومخدوراً، وأصابعي تؤلم، لكن

Twitter: @ketab_n

باقي جسدي كان دافئاً، ولم أكنْ أقرب بأيّ حال إلى شتاءات العالَم الماضي. لم أستطع أن أتخيل برداً شاملاً غامراً بذلك المقدار. ومع ذلك، فإنه كان موجوداً ذات مرة، وربما ما يزال موجوداً في مكان ما. أخبرتني أمي أنه في خضم المحيط الشمالي، حيث يدومُ النهارُ ستة أشهر، ويحكم الليل النصف الآخر من السنة، حيث وقعَت أعنف معارك حروب النفط، ربما ما تزال هناك جزر صغيرة من الجليد، تطفو في البحر المهجور، صامتة وبلا حياة، حاملة ذكريات العالم الماضي حبيسة فيها، مستسلمة ببطء للماء، وذائبة في أحضانه. تلك كانت آخر بقايا الغطاء الجليدي الهائل الذي أقام ذات مرة على أعلى قمم العالم، مثل حيوان كبير رابض يحرس القارات بلا حراك.

حين كبرت، كثيراً ما سعيت إلى المزيد من الكتب على الرفوف العالية في مكتب أمي، متعطشة لأي شيء يمكن أن يساعدني على فهم الشتاءات الضائعة وتخيُّلها. قضيت أياماً وأسابيع وأنا أدرس الخرائط والصور غير المألوفة والتقاويم القديمة الغريبة التي تقيس الوقت بدورات الشمس، وليس القمر. تحدثَت الكثير منها عن درجات الحرارة والفصول والطقس، والأراضي الغريقة والمحيطات التي دفعت شواطئها في اليابسة، وكلها تحدثَت عن الماء، لكن الكتب لم تتَّفق دائماً في كل شيء. سألتُ أمي ذات مرة عما يعنيه هذا. هي تسمي نفسها عالمة. إذا لم يتفق العلماء بعضهم مع بعض، سألت، هل يعني ذلك أنه ليسَ هناك مَن يعرفُ حقاً؟ فكَّرت في ذلك طويلاً ثم قالت إن هناك طرقاً مختلفة للمعرفة، وفي بعض الأحيان يستحيل أن يعرف المرء أي الطرق هي الأكثر صواباً.

شيئاً فشيئاً تعلمتُ أن كتب أمي، مع كل ما تقدمه من الرسوم البيانية والكلمات الغريبة والشرح المفصل، لم تكن تقول كل شيء. كنتُ أتساءل عن كيف سيكون ملمس الثلج على كفي قبل أن يذوب إلى ماء، أو كيف سيبدو الجليد في يوم شتائي في مشهد مزجج بالشمس ترتسم فيه أُطُر الظلال بحدة، لكنه ترتب عليّ أن أبحث عن تلك القصص في كتب أخرى. انتابتني خيبةُ أمل من رف

Twitter: @ketab_n

الكتب العالي ومحتوياته التي وعدَت بالكثير، لكنها تجاهلت الأكثر أهمية مع ذلك. أيّ نفع في معرفة تكوين بلورة الثلج، إذا لم يستطع المرء ابتعاث الإحساس ببرودتها على جلده ومشهد بريقها أمام عينيه؟

جنحَت المحادثة بين والدَيّ إلى أذنيّ أعلى صوتاً من السابق. كانت أمي تحكي بصوتها المعقول، وكانت إجابات والدي موجزة. نهضتُ لأغلق الباب. صرّت الأرضية الخشبية تحت خطواتي. استطعتُ أن أشم عبق الصنوبر في الهواء المنعش المتدفق عبر النافذة. كانت ذبابة خيل كبيرة تئز بين الزجاج والستارة الشبكية الواقية من الحشرات.

تماماً عندما كنتُ أغلق الباب، سمعتُ رنين جهاز الرسائل يعلن صوتَ هويتي بعيداً من أسفل الرواق عند المدخل. مشيتُ إلى الرواق حيث يومض جهاز الرسائل باللون الأحمر. إلى: نوريا، قال النص على الشاشة. تناولتُ جهاز الرسائل من على رف الحائط ووضعتُ إصبعي على الشاشة لتسجيل الدخول. ظهر اسم عائلة سانيا: فالاما. فوجئت قليلاً. نادراً ما تستخدم سانيا جهاز الرسائل. كان لعائلتها حساب مشترك واحد فقط، وقد اشتروا جهاز رسائلهم مستعملاً وقديماً. كان يتعطل أوقاتاً أطول من تلك التي يكون فيها صالحاً، على الرغم من محاولات سانيا المستمرة لضبطه، أو ربما –جزئياً– نتيجة لهذه المحاولات بالذات. اخترتُ خيار "أقرأ" على الشاشة وانتظرتُ أن تظهر الرسالة الخطية المكتوبة بخط سانيا المتقافز. تعالَي غداً، كتبَت سانيا، وأحضري معكِ كل أشرطة الكاسيت. اكتشافٌ محتمَل!!

كانت كلمة "اكتشاف" واحدة من التعبيرات الأكثر أهمية في مفردات سانيا. وعادة ما تعني أنها خرجت باستخدام ما لشيء منهوب من مقبرة البلاستيك. لم أكن دائماً مقتنعة تماماً بأن الاستخدامات التي اخترعتها تتفق مع المقاصد الأصلية للأشياء، لكنني شعرت مع ذلك بالفضول إزاء ما اكتشفته. التقطتُ قلم جهاز الرسائل من على رف الحائط، وكتبتُ: "قبل الظهر" على الشاشة، وأرسلت الرسالة.

أصبحتُ أقرب إلى صوتَي والديّ الآن. كانا يثرثران وراء فجوة باب المطبخ.

Twitter: @ketab_n

تطوَّحَتْ رائحةٌ خافتةٌ من حساء الأعشاب البحرية في الهواء. وبينما كنت أستدير لأعود إلى غرفتي، لفتت كلمات أمي انتباهي.

"... لو أنكَ تقولُ لهم الآن، بينما لم يفت الأوان بعد؟"

لم أستطع فهم إجابة أبي المغمغمة.

"سوف يحرص على أن يتركونا لشأننا،" واصلَت أمي. "إذا عرف الجيش عن-" خفضَت صوتها وتلاشت نهاية الجملة.

سمعتُ أبي يسير جيئةً وذهاباً في المطبخ. وعندما أجاب، كان صوته صارماً لا يتزعزع.

"أنا أثقُ ببولين فقط قدرَ ما يمكن أن يثقَ المرء بجندي."

لم يكن هذا مفاجئاً. كان أبي يرى أن معظم ضباط الجيش لصوص، ولم أكن أعتقد أنه مخطئ. ومع ذلك، فاجأني ردُّ أمي.

"كنتَ تثق به أكثر ذات مرة،" قالت.

صمتَ أبي لحظة قبل أن يجيب، "كان ذلك منذ وقت طويل."

لم تتسنّ لي أكثر من لحظة لأتساءل عن معنى تلك الكلمات قبل أن تقول أمي شيئاً بصوت خافت، ثم سمعتُ اسمي.

"إنها هي التي أفكر بها،" أجاب أبي. "هل تودّين أن تصبح واحداً من معلمي الشاي في المدن؟ إنهم ليسوا أكثر من خونَة، حيوانات أليفة للجيش. وإلى جانب ذلك، ما يزال الكثيرون هناك يعتقدون أن جعل المرأة معلم شاي هو شيءٌ يخالف التعاليم. إنها تنتمي إلى هنا."

"يمكنُها أن تتعلَّم حِرفة أخرى،" قالت أمي.

ماذا عني، هل يسألني أحد عما أريد؟

"هل تقترحينَ أن أقطع سلسلة أسرتنا من معلمي الشاي؟" كان صوت أبي حاداً مليئاً بالدهشة.

لم أستطع سماع رد أمي، لكن لهجتها أصبحت أشد قسوة.

"إن هذا لا يتعلق حقاً بنوريا، ولا حتى بالينبوع." بدا أبي غاضباً الآن. "إنه

Twitter: @ketab_n

يتعلق بأبحاثك. إنك تحتاجين تمويلَهم."

خطوتُ ببطء أقربَ إلى باب المطبخ، محاذرة كي لا أحدث صوتاً. كانَ الأمر يصبح مثيراً للاهتمام.

"أنا لستُ في صفهم، لكنني ربما أريدهم أن يصدقوا أنني كذلك،" قالت أمي. "لم يحقق أحد في الموارد المائية للأرض المفقودة بشكل صحيح منذ وقوع الكارثة. هذا المشروع، إذا قُيِّض له أن ينجح-" وفقد الكلام شكله مرة أخرى لأنها خفضت صوتها، وسمعتُ نهاية الجملة فقط، "... ذلكَ أقل أهمية من معتقداتك البالية وتقاليدك الفارغة؟"

بدا صوت أنفاسي عالياً في أذنيَّ حتى أنني خشيت أن يسمعاه. حاولتُ أن أزفر ببطء وبلا صوت.

"ربما تبدو فارغة بالنسبة لك، لأنكِ لستِ معلم شاي،" قال والدي بهدوء، وسقطت كل كلمة من كلماته ثقيلة في الهواء. "ومع ذلك، بعض الأشياء تسير عميقاً جداً بحيث لا نستطيع أن نوقف تدفقها. من الجهل الاعتقاد أن الأرض والماء يمكن امتلاكهما. الماءُ لا ينتمي لأحد. لا يجب أن يأخذه الجيش لنفسه، ولذلك يجب الحفاظ على السر."

تمدّد الصمت في الهواء الراكد القاتم بينهما وبيني وأنا أقف على الجانب الآخر من الباب. وعندما تكلَّمَت أمي ثانية، لم يكن هناك أي شرخ في صوتها الصافي كالزجاج.

"إذا لم يكن الماء ينتمي لأحد،" قالت، "أي حق لك في أن تجعل الماء المخفي لك أنتَ حصراً، في حين تخاطر عائلات بأكملها في القرية ببناء أنابيب مياه غير شرعية من أجل البقاء على قيد الحياة؟ ما الذي يجعلك مختلفاً عن ضباط تشيان الجديدة، إذا كنت تفعل ما يفعلون؟"

لم يقل أبي شيئاً. سمعتُ خطوات أمي واستدرتُ على عجل نحو جهاز الرسائل وهي تسير خارجة من باب المطبخ. عندما رأتني، تسمرت في مكانها.

"كنتُ فقط أقرأ رسائلي وبعض الأخبار على جهاز الأخبار،" قلت. ودون

Twitter: @ketab_n

أن أنظر إلى الوراء، استدرت وسرتُ عبر البيت إلى غرفتي وأغلقتُ الباب خلفي. في الخارج كانت الشمس تمسح الأفق برقشات من الضوء الذهبي على صفحة السماء الزرقاء الدخانية. وصلت بالكاد إلى سريري قبل أن تصرِف ألواح الأرضية في الردهة، ثم جاء الطرق على باب غرفتي. انسلت أمي داخلة وقد ارتسمت على وجهها نظرة متسائلة. أومأتُ لها ودخلَت الغرفة.

"لا حاجة للتظاهر بأنكِ لم تسمعينا نتحدث، يا نوريا،" قالت وتنهدت. "ربما كان حديثاً ينبغي خوضه معكِ أنت في المقام الأول. أحياناً لا أعرف." بدَت منهكة. "أنت تعرفين ما كنا نتحدث عنه، أليس كذلك؟" سحبَتْ كرسياً خشبياً لنفسها من تحت مكتبي وجلسَت عليه.

"كان ذلك عن الينبوع المخفي،" قلت. هزّت رأسها.

"الأوقات تزداد قسوة،" قالت. "ولكن، أياً يكن ما يحدث، وأياً كانت القرارات التي نتخذها أنا وأبوك، يجب أن تتذكري دائماً أننا نفعل كل شيء ونحن نضع مصلحتكِ أنتِ في الاعتبار." لم أكن أنظر إلى وجهها. تظاهرتُ بأنني أبحث في كتابي عن الفقرة التي كنت أقرؤها. بدت الصفحات أمامي متوترة مترددة.

"كيف تشعرين إزاء العيش في واحدة من المدن؟" سألَتْ أمي. "في مكان مثل بيتربرغ الجديدة، أو موس كوا، أو حتى أبعد في شينجينغ؟"

فكرت في المدينتين الوحيدتين اللتين رأيتهما: كولويارفي في الشرق، وكوسامو في الجنوب. تذكرتُ الإثارة الأولى التي غمرتني في الشوارع المزدحمة المسقوفة في شكل سراديب، والمباني الكبيرة المغطاة بالألواح الشمسية، وقمم المباني التي حُوِّلت بكاملها إلى فوانيس عملاقة ذات جدران زجاجية شفافة ومساحات خضراء في الداخل. فتنتني أكشاك سوق قيانيزي في الأزقة الضيقة، التي تبيع الأطعمة والمشروبات الغريبة التي يمكن شمّ روائحها القوية اللاذعة وغير السارة أحياناً على بعد عدة مقاطع سكنية. كنت قد تجولت مع أمي عبر الأحياء الدنماركية من كوسامو، واشترينا أكياساً صغيرة من الحلوى الملونة لآخذها معي إلى المنزل، وفي اليوم الذي قدمت فيه الاختبارات العامة، دعاني أبي لتناول وجبة في أحد المطاعم الباهظة التي تقدم

Twitter: @ketab_n

مجموعة من المياه الطبيعية المستوردة من جميع أنحاء العالم.

اندلعت مشاعر الإثارة في داخلي مرة أخرى، لكنني تذكرت عندئذ الجدران العالية ونقاط التفتيش التي تقسم الشوارع، والجنود الحاضرين كل الوقت، وحظر التجوال. تذكرت الإرهاق الذي أناخ عليّ بعد بضعة أيام، والحاجة الملحة للابتعاد عن الحشود، والتوق إلى الفضاء والصمت والفراغ. رأيتُ نفسي تحب زيارة المدن، ورأيتُ نفسي تأنَفُ العيشَ في إحداها.

"لا أعرف،" قلت. كانت أمي تنظر إليّ باهتمام.

"وما رأيك في ألا تصبحي معلم شاي؟" سألَتْ. "يمكنك دراسة اللغات، أو الرياضيات، أو أن تساعديني في أبحاثي."

فكرتُ في الأمر، وإنما ليس لوقت طويل، وأجبتُ بإخلاص.

"أنا أعرف طقوس الشاي؛ لقد درستها كل حياتي. ولا أعرف ما يمكنني أن أكون غير ذلك."

ظلت أمي صامتة لفترة طويلة، وخمّنتُ أن الأفكار تدور في رأسها بلا هوادة؛ كانت أسوأ بكثير من أبي في إخفاء مشاعرها. وفي النهاية كسَرتُ حاجزَ الصمت.

"تعرفينَ عن ذلك المنزل في القرية، البيت بعلامة جريمة الماء على الباب؟"

"الدائرة الزرقاء؟" تحرك شيء في داخلها. استغرقني الأمر بعض الوقت لأدركَ أنه الخوف. "ماذا عنه؟"

"ماذا حدث للناس الذين كانوا يعيشون هناك؟"

نظرَت أمي إليّ. رأيتها تبحث عن الكلمات.

"لا أحد يعرف." اقتربَت مني وضغطَت على يدي. "عزيزتي نوريا،" قالت، ثم توقفت، كما لو أنها تغيّر رأيها ولا تقول ما كانت توشك أن تقول. "أتمنى لو استطعنا أن نمنحك عالَماً مختلفاً." حكّت شعري. "حاولي أن تنامي الآن. وقتُ اتخاذ القرارات سيأتي لاحقاً."

"ليلة سعيدة،" قلت. وبذلك ابتسمَت أمي. كانت ابتسامة سريعة، ولم تكن سعيدة أبداً.

Twitter: @ketab_n

"ليلة سعيدة، نوريا،" قالت، وغادرَت الغرفة.

بعد أن ذهبت أمي، نهضتُ، ركعت أمام خزانة الكتب وتناولت صندوقاً خشبياً من على الرف السفلي. ومن خلال طبقة الطلاء الرقيقة أحسستُ بملمس حبوب الخشب غير المزخرف على أطراف أصابعي. أدرت المفتاح في القفل وفتحت الغطاء.

داخل الصندوق كانت مجموعة عشوائية من أشياء العالَم الماضي المستخرَجة من مقبرة البلاستيك. حفنة من الحجارة الناعمة المصقولة الصغيرة متعددة الألوان؛ مفتاح معدني صغير ملتوٍ تُرك بلا أي أسنانٍ تقريباً على قمته. تحتَ ذلك كانت ثلاثة مستطيلات بلاستيكية شفافة جزئياً، بحواف مدورة قليلاً وزوج من الثقوب على شكل عجلة في المنتصف. كانت الأحرف الثلاثة نفسها مكتوبة على كل منها: TDK. كان شريط رقيق داكن ينبثق خارجاً من داخل مستطيل مكسور. وقد أحببتُ دائماً ملمس الشريط بين أصابعي: كان ناعماً وخفيفاً مثل خصلة شعر، مثل الهواء، مثل الماء. لم تكن لدي أي فكرة عما تريده سانيا من أشرطة الكاسيت. لم تكن لدى أي منا أي إلماحة عما كانت تُستخدم لأجله في العالَم الماضي، وقد احتفظتُ بها فقط لأنني أحببت لمس ذلك الشريط بين الحين والآخر.

في الجزء السفلي من الصندوق التمعَ قرصٌ رقيق فضي اللون كنتُ أحضرتُه ذات مرة إلى المنزل لأنني وجدته جميلاً. تناولته لأستمتع بمنظرِه مرة أخرى. كان الجانب اللامع مخدوشاً قليلاً، لكنه ما يزال مشرقاً حتى أنني رأيت فيه انعكاس صورتي. وعندما التقطَ ضوءَ الفانوس، عكس جميع ألوان قوس قزح. على الجانب الآخر كانت آثار النص الذي كُتب عليه ذات مرة، وتبقى منه عدد قليل من تكوينات الحروف:CT DISC COM .

أعدت القرص وأشرطة الكاسيت مرة أخرى إلى الصندوق، أقفلته ووضعته في حقيبتي المحبوكة من القصب البحري والمدلاة من مسمار على الحائط المجاور لخزانة الكتب، استعداداً لرحلة الصباح.

عندما أغمضتُ عينيّ، رأيت المسافة التي تفصل منزلنا عن القرية وعن بيت

Twitter: @ketab_n

آخر، أبلاه الطقس أكثر من منزلنا، على بابه تحدِّق دائرة زرقاء في الليل الأبيض بخطوط حادة بما يكفي لتجرح. لم تكن المسافة كبيرة، وإذا نظرتُ إليها طويلاً بما فيه الكفاية، فإنها تصبح أقصر، حتى أتمكن من لمس باب المنزل الآخر، وأسمع التحركات وراءه.

أو الصمت.

طويت الصورة ودفعتُ بها خارج دماغي، لكنني كنتُ أعرفُ أنها لم تختفِ.

Twitter: @ketab_n

الفصل الخامس

مررت عبر بوابة منزل سانيا المفتوحة، وركنتُ الدراجة بجوار السياج. كانت كيرا أم سانيا واقفة في منتصف رقعة مزروعة بنباتات عباد الشمس طويلة القامة، وتقطع رأس زهرة ثقيل عن جذعه السميك. عند قدميها قبعَت سلة كبيرة جمعَت فيها مُسبقاً عدة أقراص ناضجة سمينة البذور. كان شقيقة سانيا الصغيرة، مينيا، تجلس على الأرض الرملية، وتحاول أن تجعل حجراً مسطحاً يستقر فوق ثلاث قطع خشبية مكدسة بعضها فوق بعض. كانت القلنسوة الواقية من الحشرات التي ورثتها من سانيا تتمايل على رأسها، فائضةَ الحجم، وظل الحجر ينزلق من بين أصابعها مرة بعد المرة.

"نوريا،" هتفَت مينيا عندما رأتني. "انظري!" استقرّ الحجر منسيّاً في يدها للحظة بينما تشير إلى موقع إنشاءاتها باليد الأخرى. "بئر!"

"جميل،" قلت، ولو أن الهيكل لم يشبه بئراً من أي شكل من الأشكال التي أعرفها.

استدارت كيرا. تناثرت على مقدمة فستانها غُباريّ اللون صفرة بتلات عباد الشمس الجافة. كان وجهها متعباً وشاحباً في إطار الشعر الأسود الذي بدا غير مغسول تحت القلنسوة الواقية من الحشرات، وتعلقت ملابسها فضفاضة على

Twitter: @ketab_n

هيكلها النحيل، لكنها كانت تبتسم. في تلك اللحظة بدت كثيراً مثل سانيا.

"مرحباً، نوريا،" قالت. "سانيا تنتظركِ كل الصباح."

"خبزَت أمي كومة من كعك القطيفة أمس،" قلتُ، وأخرجت صندوقاً محبوكاً من القصب من حقيبتي. كان ثقيلاً في يدي. "أرسلتْ لكُم هذه. خذوا وقتكم لإعادة الصندوق."

التقطتُ التشنج اللحظي على وجه كيرا قبل أن تعود ابتسامتها.

"شكراً لك،" قالت وأخذَت الصندوق. "انقلي أمنياتي الطيبة لأمك. أخشى أننا لا نملك أي شيء لنعطيه في المقابل." أسقطَت رأس الزهرة المقطوع حديثاً فوق الكومة في السلة. وعبقت الرائحة الخصبة داكنة الخُضرة في الهواء.

"ليسَ مهماً."

لم تنظر كيرا إليّ وهي تأخذ يد مينيا. كانت تشعر بالحرج.

"حان وقتُ الاستحمام بالإسفنجة، مينيوسكا،" قالَت. "سوف تلعبين بسفينة القراصنة إذا كنتِ مطيعة."

شقشقَت مينيا، ونهضَت على قدميها، وأسقطت الحجر المستوي على موقع بناء بئرها. انهارت الكتل على الأرض، مرسلة الغبار محلقاً حولها.

اتجهت كيرا إلى البيت، حاملة صندوق الكعك في يد، وممسكة بيد ميرا بالأخرى.

"أراك لاحقاً، نوريا،" قالت. لوَّحتُ لمينيا مودعة، لكنها كانت مشغولة بوعد سفينة القراصنة فقط.

مشيت حول المنزل. ومن خلال جدران ورشة العمل الشبكية الواقية من الحشرات رأيت سانيا جالسة على كرسي بجوار الطاولة وتعبث بشيء ما. وعندما طرقت أحد الأعمدة التي تدعم السقف، رفعت نظرها ولوحت بيدها. دلفتُ إلى الداخل، وأغلقتُ الباب ورائي وخلعت قلنسوتي الواقية من الحشرات.

كان الجهاز على الطاولة أمام سانيا هو ذلك الذي وجدته في مقبرة البلاستيك

Twitter: @ketab_n

قبل بضعة أسابيع. تعرفت إلى شكله الزاويّ، والفجوة الغائرة في اللوحة الأمامية، والتركيبات العددية الغريبة والفجوة الأخرى على القمة. امتد زوج من أسلاك الطاقة من الآلة إلى مولد للطاقة الشمسية يجلس على زاوية الطاولة.

"هل جلبتِها؟" سألَتْ. كانت قد أبعدت شعرها عن وجهها إلى الوراء بمنديل بالٍ وارتسمت على خديها بقعتان حمراوان. فكرتُ بأنها لا بد من أن تكون قد استيقظت مبكراً بدافع الإثارة المحض، ورفرَفت بصبر في أرجاء ورشة العمل الصباح كلّه. وضعتُ حقيبتي على الطاولة واستخرجتُ صندوقي الخشبي، وأخرجتُ منه أشرطة الكاسيت.

"لا أفهم لماذا تريدين هذه،" قلت.

اختفت سانيا تحت الطاولة لتبحثَ عن شيء. ظهرَت بعد لحظة، حاملة مستطيلاً بلاستيكياً أسود. تذكرتُ رؤيته قبل بضعة أسابيع عندما أتيت لإصلاح قِرب الماء. وعندما التقطَت شريط الكاسيت عن الطاولة، أدركت كم يشبه الكائنان بعضهما. كان الفرق الأكبر بينهما هو الحجم.

"حاولتُ التفكير فيما كان يستخدم هذا الشيء، بحقّ الدّنيا،" قالت. "عرفتُ أنه يجب أن يكون للاستماع إلى شيء، لأن فيه سمّاعات، تماماً مثل جهاز الرسائل —حجمه مختلف تماماً وهو أقدم بكثير بطبيعة الحال، لكن المبدأ الأساسي هو نفسه. وبينما كنت أحاول صنع غطاء جديد لتلك الفجوة المستطيلة في المقدمة، لاحظتُ أن في داخله عمودين للدوران، أحدهما منحنٍ. هذه القطعة البلاستيكية،" أشارت إلى المستطيل الأكبر حجماً، "كانت ملقاة بجانبه. وعندما نظرتُ إليها كثيراً، خطر لي أن التحويف صنع ليحتوي مثل هذه القطعة، حيث تنطبق محاور الدوران على العجلات المسننة، وبدا كل شيء، حتى الشكل نفسه صحيحاً.. لكن الحجم لم يكن كذلك." نقرَت بإصبعها على الكتلة البلاستيكية التي تحمل الحروف VHS. "يبدو كما لو أن هذه قد صُنعت لآلة مشابهة، لكنها أكبر حجماً. يا له من سوء حظ قبيح: الآلة الصحيحة والقطعة الصحيحة القابلة للتبديل، وإنما الحجم

Twitter: @ketab_n

الخطأ. لكنني عندئذ تذكرت أنك تحبين الاحتفاظ بكل أنواع الأشياء الغريبة، وأدركت أن لديك تلك الأشرطة المكتوب عليها TDK!"

بدأت أفهم ما تلمح إليه. قامت بفَرد شريط أحد الكاسيتات المجعد قَدْر ما استطاعت، وجمَعت النهايات المقطوعة معاً ولفّت الشريط اللامع وأعادته إلى داخل الهيكل البلاستيكي المستطيل حتى لم يعد يتدلى سائباً.

ثم حاولَت وضع الشريط في فجوة آلة السمّاعات.

"إنه لا يركب،" قلتُ خائبة الأمل، لكن سانيا قلبت الشريط رأساً على عقب وأصدر صوت طقة وهو يستقر في مكانه.

"ها!" قالت. وأنا أيضاً شعرت بابتسامة تكبر على وجهي.

أغلقَت سانيا الغطاء وأدارَت مفتاح مولد الطاقة الشمسية. أضاء ضوء صغير أصفر مخضر على قمة لوحة الآلة بجوار التوليفات الرقمية، جعلني أفكر بتوهج الديدان.

"الآن، أصبحنا نحتاج فقط إلى معرفة ما نفعله ببقية المفاتيح،" قالت، وضغطَت زراً عليه رسم مربع. انفتح الغطاء في الواجهة الأمامية، ولم يحدث أي شيء آخر. أغلقَت سانيا الغطاء ثانية وجرّبَت زراً عليه رأسا سهمين. شرعت الآلة بإصدار حفيف. قربت سانيا وجهها من فجوة المستطيل وضيقَت عينيها وهي تحدق داخلها بانتباه.

"إنه يدور!" قالت. "انظري!."

نظرتُ ورأيت أنها على حق: كانت الآلة تدير الشريط في داخل علبة TDK البلاستيكية بسرعة كبيرة حتى كان من الصعب معرفة اتجاه الدوران. وبعد فترة، طقَّ الشريط واهتزَّ في مكانه لحظة قبل أن يطقطق ثانية ويصمت.

"هل انكسر؟" استعلَمتُ بحذر. غضّنت سانيا جبينها.

"لا أظن ذلك،" قالت. "ربما لم يبق المزيد من الشريط فقط." ضغطَتْ زراً آخر عليه رأس سهم واحد فقط. أخذت الآلة تئز بخفوت، ثم طقطقت السماعات.

Twitter: @ketab_n

قفزت سانيا واستدارت نحوي.

"اسمعي!" قالت.

خشخشت السماعات وهمهمت، ثم استمرت في الهمهمة.

همهمت أكثر.

شقشقت ابتسامة في وجه سانيا مثل طلاء يتكسر في الشمس، بينما تمدد الوقت بيننا، وذهبت الهمهمة أبعد، إلى عصر آخر وعالَم لم تكن مستعدة لكشف أسراره. أخيراً، ضغطت سانيا على الزر ذي المربع مرة أخرى وتوقف الشريط. فتحت الغطاء، وأخرجت الشريط واستبدلته بآخر بعد ضم أطراف الشريط المكسورة معاً.

لم يصدر شيء من السماعات أيضاً سوى الطنين المتعاقب.

جرَّبتْ كل علب TDK الثلاث عدة مرات، أدارت الأشرطة ذهاباً وإياباً وقلبت الأشرطة من جانب إلى آخر، لكن كل ما سمعناه كان أشباح أصوات غارقة في الزمن والمسافة، في شبه صمت كان أكثر إحباطاً من الصمت الكامل. إذا كانت هذه الأشرطة قد حملت ذات مرة شيئاً مفهوماً، فقد أبلَت الأرض والهواء والشمس أصداء العالَم الماضي وهرَّأته قبل زمن طويل.

حدَّقت سانيا في الجهاز وهي تقلب أحد الأشرطة في يديها.

"أنا متأكدة من أني على حق،" قالت. "هذه الأجزاء تناسب الآلة، وهي تترجم الأصوات الصادرة منها للسماعات. لا بد من أن الجهاز والأشرطة كانت تستعمل بالضبط على هذا النحو. لو أننا نستطيع العثور على شريط ما زال يحتفظ بصوت عليه فقط..."

كانت أصابع سانيا تدق على السطح البلاستيكي لشريط TDK. سمعتُ صرخات مينيا من داخل المنزل، وصوت كيرا الخافت وهي تحاول تهدئة مينيا. تعقبتُ بأنظاري عنكبوتاً صغيراً أسود يغزل شبكته في الزاوية فوق مولِّد الطاقة الشمسي.

"ربما.. ربما يوجدُ المزيد في مكان ما من مقبرة البلاستيك؟" قلتُ. "أو ربما لم

Twitter: @ketab_n

تكن الغاية منها أن تدوم طويلاً في الأساس. تكنولوجيا العالَم الماضي كانت هشَّة."

تغيَّر التعبير على وجه سانيا، كما لو أن إطار وجهها أصبح أكثر تركيزاً. رفعَت غطاء المربع في اللوحة العلوية من الجهاز وتحسَّسَت التجويف الدائري تحته بأصابعها. ثم نظرت إلى صندوقي الخشبي الذي كان مفتوحاً على طاولة الورشة. تركَّزَت نظراتها على القرص الفضي ذي الثقب في المنتصف. بدا القرص بحجم التجويف المستدير نفسه في جهاز الاستماع. نظرَت سانيا إليّ ورأيت أفكاري نفسها مرتسمة على وجهها.

"أتسمحينَ لي؟" سألَت.

أطرقتُ موافقة.

استخرجَت سانيا القرص من الصندوق الخشبي ووضعَته في التجويف الدائري. بدا وكأنه مصنوع لهذه الآلة. تطابق البروز المستدير في وسط الفجوة تماماً مع الثقب في وسط القرص. ضغطت سانيا القرص عليه، وتكّ بخفوت وهو يستقر في مكانه. أغلقَت الغطاء وضغطَت زر السهم. وعبر النافذة الزجاجية رأيت القرض يشرع في الدوران.

انتظرنا.

لم يصدر عن السماعات أي صوت.

رأيت التعبير على وجه سانيا وشعرت بخيبة الأمل أنا أيضاً. مدَّت يدها لتعبث بمفاتيح التحويل في اللوحة العلوية. تسبب الأول الذي لمسَته بانطفاء الضوء الذي يتوهج مثل الدودة المضيئة، وأبطأ دوران القرص، ولذلك أعادته إلى وضعه الأصلي. ولم يفعل مفتاح تحويل آخر أي شيء أيضاً. وعندما حرَّكت المفتاح الثالث، أطلقت السماعات فرقعة مدوية حتى أننا قفزنا من مكانينا. وأعقبت ذلك فترة قصيرة من الصمت، ثم جاء صوت ذكوري قال بلغتنا بوضوح:

"هذا سجل حملة يانسون الاستكشافية، اليوم الرابع. جنوب تروندیلاغ، بالقرب من المنطقة التي كانت معروفة سابقاً باسم مدينة تروندهايم."

Twitter: @ketab_n

بينما مضى الصوت ليسجل اليوم، والشهر والسنة، ابتهجَت سانيا وأنا ضحِكْت. وواصلَ الصوت:

"بدأنا اليوم بقياس مستويات الميكروب في مياه دوفرفيل. النتائج ليست كاملة بعد، لكن يبدو ألا تعارض بينها وبين نتائج يوتُنهايمن. وإذا تبين أن هذا هو واقع الحال، فإن تقديراتنا عن التعافي البيولوجي التلقائي وعملية إعادة البناء الجارية في المنطقة كانت أكثر تواضعاً بكثير من الواقع. سوف نقوم غداً بزرع بكتيريا للتنقية في المياه ثم سنمضي باتجاه شمال ترونديلاغ..."

تحول النهار في الخارج إلى صدَفَة سميكة مشتعلة أحاطت بالورشة، وتسلقَت ذبابات الخيل جدرانها المكونة من الشِّباك الواقية من الحشرات، ونحن نستمع إلى صوت العالَم الماضي. في بعض الأحيان، كان الصوتُ يتلاشى تماماً تقريباً، يقفز قليلاً، أو يعلُق، ثم يعود فيجد تدفقه مرة أخرى. لم توقفه سانيا، ولم تحاول جعله يقفز عن التفاصيل المملة. لقد انتظر الصوت على القرص طوال أجيال. كان جزءاً من قصة كادت تضيع أخيراً في مقبرة البلاستيك. لم نتكلم، ولم أعرف بماذا تفكر سانيا؛ لكنني فكرت بالصمت والسنوات والمياه التي سالت بلا توقف، ممزقة كل شيء في الطريق. فكرت بالسلسلة التي لا يمكن تفسيرها للأحداث التي جلبت هذا الصوت من مشهد غريب وعالَم مفقود إلى هذا الصباح الجاف، إلى داخل آذاننا التي تسمع كلماته، لكنها لا تُحدِثُ الكثير من الفرق مع ذلك.

تحدث الصوت عن استكشاف المياه، قياسات الميكروبات، النمو البكتيري، التضاريس. كان هناك فاصل مطول أحياناً في الكلام، وبدأنا نميِّز أقساماً منفصلة. في بداية كل قسم، أعلن الصوت تاريخاً جديداً: مضى التسجيل من اليوم الأول إلى اليوم الخامس، وهكذا. وبعد اليوم التاسع، توقف الصوت تماماً. انتظرنا التكملة، لكنها لم تأتِ. عبرت الدقائق. تبادلنا النظرات.

"من السيء كثيراً أنه لم يعد هناك المزيد،" قالت سانيا. "ومن السيء جداً أنه لم يكن أكثر إثارة."

Twitter: @ketab_n

"أنا متأكدة من أن أمي لن توافق على الفكرة،" قلتُ. "إنها مهووسة بكل أنواع الماضي العِلمي-..."

أصدرت السماعات ضجيجاً عالياً. تصلبنا مستمعتَين. تحدَّث الآن صوت أنثوي.

"الآخرون يعتقدون أنني لا يجب أن أفعل هذا،" قال الصوت. "لكن ليس من الضروري أن يعرفوا." توقفت المرأة لتنظيف حنجرتها. ثم: "عزيزي المستمع،" استأنفَت. "إذا كنتَ من الجيش، تستطيع أن تطمئن إلى أنني فعلت كل شيء في نطاق سلطتي من أجل تدمير تلك التسجيلات بدلَ أن أدعكَ تضع يدك عليها. ربما تعني حقيقة أنك تستمع إلى هذا الآن أنني فشلت فشلاً ذريعاً،" أخذَ الصوت دقيقة ليفكر. "لكن ذلك لن يحدث حتى وقت لاحق. في هذه اللحظة، لدي قصة لأرويها ولن تحبَّها أبداً. أعرف ما فعلتم. ما سوف تفعلون. وإذا كان لدي أي شيء لأقوله عن ذلك، فإن العالَم كله سوف يعرف ما حدث فعلاً، لأن .."

انقطع الحديث فجأة على غير توقُّع. استمر القرص بالدوران، لكن صوت العالَم الماضي ذهب الآن بلا رجعة. انتهى التسجيل.

حدَّقَت إحدانا في الأخرى.

"ماذا كان ذلك؟" سألْتُ.

حاولَت سانيا تحريك التسجيل أماماً ووراءً، حتى أنها جرَّبت الجانب الآخر من القرص، لكنه كان واضحاً أننا سمعنا كل شيء يمكن سماعه هناك.

"أيّ سنة ذكر الرجل في البداية؟" سألتُ.

لم تكن أيٌّ منا قد انتبهت للسنة. أدارت سانيا القرص من البداية مرة أخرى. وبينما نستمع، استطعت أن أرى على وجهها أنها أدرَكَت ما أدركْتُ. ودون تفكير، تصورنا أن القرص جاء من العالَم الماضي.

وكنا مخطئتَين.

"إنه من عصر الشفَق،" قلتُ.

Twitter: @ketab_n

"لا يمكن أن يكون هذا حقيقياً،" قالت سانيا، لكنها بدَت مقتنعة. "إنها مجرد قصة فقط، مثل تلك الموجودة في كتبِك، أو قصص الإثارة التي يمكن أن يشتريها المرء ويستمع إليها على جهاز الرسائل، فصلاً واحداً كل مرة."

"لماذا يجب أن تكون فيها ساعة من الكلام العلمي الممل أولاً، ثم يأتي الجزء المثير للاهتمام فقط بعد ذلك؟"

هزَّت سانيا كتفيها.

"ربما تكون سيئة الكتابة فحسب. قصص جهاز الرسائل تلك ليست دائماً عظيمة أيضاً. لدى والديَّ بعض منها."

"لا أعرف." قلتُ، وكنت أحاول أن أفكر بشكل محموم في أي موضع من مقبرة البلاستيك عثرتُ على القُرص.

أخرجَت سانيا القرص من الآلة بتصميم، ووضعَته في الصندوق الخشبي وصفقَت الغطاء.

"على أي حال، لا يهم،" قالت. "لن نعرف أبداً ما الذي كانت المرأة ستقوله. على الأقل استطعنا أن نجعل الآلة تعمل."

لكنني كنت أفكر في شتاءات مجهولة وقصص مفقودة، كنتُ أفكر في اللغة المألوفة والكلمات الغريبة التي ظلت مشتعلة في ذهني. فكرتُ بالمطر والشمس وهما يقَعان على مقبرة البلاستيك ويلتهمان كل شيء ببطء. فكرتُ بما قد يكون باقياً هناك.

كنت على يقين تقريباً من أنني تذكرتُ من أين أتى القرص.

"يمكننا أن نبحث عن مزيد من الأقراص حيث وجدنا ذلك القرص،" اقترحتُ. كنتُ قد بدأت أتحمسُ للفكرة. "يمكننا أن نحاول جعل القصة كاملة. حتى لو أنها مجرد قصة، ألا تريدين أن تعرفي كيف تنتهي القصة، مع ذلك؟"

"نوريا — "

"يمكننا أن نذهب ونبحث غدًا طوال اليوم، سنأخذ معنا بعض الطعام و—"

Twitter: @ketab_n

"نوريا." قاطعتني سانيا. "ربما لا يكون لديك شيء أفضل للقيام به من تقديم الشاي والنبش في مقبرة البلاستيك،" قالت. "أما أنا، فلديّ."

في مكان ما في المنزل شرعَت مينيا في البكاء.

كبرَت المسافة بيننا بشكل غير متوقع. كانت إحدانا تعرف الإخرى منذ كنا نتعلم المشي في ساحة القرية، ممسكتين بيدَي أُمَّينا ونحُن نخطو خطواتنا الأولى المتعثرة. ولو سألني أحد، لقلتُ له إن سانيا أقرب إليّ من أي شخص آخر، باستثناء والدَيّ. ومع ذلك، كانت تنسحب في بعض الأحيان إلى داخل قوقعتها، تتحول بعيداً عني، وتنزلق من متناول يدي، وكأنها انعكاس أو صدى: مجرد أثر لما كانته قبل لحظة واحدة فقط، لكنه ذهب وأصبح وراء الكلمات واللمسات. لم أكن أفهم تلك اللحظات، ولم أستطع أن أنكرَها أيضاً.

أصبحَت بعيدة جداً عني الآن، بعيدة مثل المياه المخبوءة، قصيّةً مثل الشتاءات الغريبة.

"يجب أن أذهب،" قلت.

ألقيتُ بالصندوق الخشبي في حقيبتي. خفَت الشعور بأننا عثرنا على ممر سري عبر الزمن والمسافة إلى عالم مجهول، وذوى. أحرقه النهار وحوله إلى رماد.

سحبتُ القلنسوة الواقية من الحشرات على رأسي وخطوت خارجة إلى الحرارة اللاهبة.

في طريقي إلى البيت، أطبق حزام الحقيبة على كتفي وكنت منهكة. سحَّ العرق نازلاً على رقبتي وظهري، والتصق شعري بجلدي تحت قلنسوة الحشرات. كانت الكلمات المسجلة على القرص تزعجني. حمَلة يانسون. بدا الأمر مثل شيء خارج من كتب أمي القديمة. والمرأة التي أتت من زمن سحيق عبر كل هذا الوقت —غير متوقعة، مختبئةً في سجل رحلة– اعتبرَت قصتها بالغة الأهمية حتى أنها أمْلَتها على جهاز التسجيل سراً، وكانت مستعدة لتدمير التسجيل كله على أن تدع الجيش يحصل عليه.

Twitter: @ketab_n

أردتُ أن أعرف ماهية الشيء الذي عنى لها الكثير إلى ذلك الحد.

استطعت أن أرى من بعيد أن هناك عربات نقل غير مألوفة تقف خارج منزلنا. تساءلتُ عما إذا كنا قد استقبلنا ضيوف شاي بلا سابق إنذار، وأملت ألا يكون الأمر كذلك . كان أبي يكره الزوار الذين لا يتسنى له الوقت الكافي ليستعد لاستقبالهم جيداً، ويظل غريب الأطوار عدة أيام بعد ذلك.

أدرتُ الدراجة باتجاه الغابة منعطفة عن الطريق، وحاولت أن أرى الحديقة من بين سيقان الأشجار.

تحوَّل النفَس إلى كرة لولبية تقف بين حنجرتي وصدري عندما رأيت الأزياء العسكرية الزرقاء. لم يكن واحداً أو اثنين فقط، وإنما أكثر من ذلك بكثير.

كانت عربة آلية مألوفة تقف خارج البوابة تحت سقف المظلة المضفور من القصب البحري. وعندما وصلت الفناء الأمامي، رأيتُ ما يقرب من عشرة جنود يحملون آلات معقدة المظهر ويذرعون المكان جيئة وذهاباً. ذكرتني بعض الأدوات بصور كنتُ رأيتها في كتب أمي. وأقيم سياج مؤقت ارتفع حول بيت الشاي، ووقف أمامه للمراقبة جندي يتدلى من حزامه سيفٌ قاطع. وقف أبي وأمي على شرفة منزلنا، وكان جندي طويل يرتدي زياً رسمياً يتحدث معهما وظهره باتجاهي. وعندما سمع صوت خطواتي، التفتَ وميزتُ وجهه خلف قلنسوة الوقاية من الحشرات.

«مساء الخير، آنسة كيشيو. تسرني رؤيتك مرة أخرى،» قال القائد تارو وانتظر انحناءتي.

Twitter: @ketab_n

الفصل السادس

وصفوه بأنّه تحقيق روتيني، لكننا كنا نعرف أنه ليس ثمة شيء يشبه الروتين في ذلك. كان يُجري التحقيقات الروتينية جنديان فقط، ولم تكن تدوم أكثر من بضع ساعات على الأكثر. بدلاً من ذلك، بقي ضابط عالي الرتبة مقيماً لدينا أسبوعين تقريبا، مع ستة جنود تناوب اثنان منهما على حراسة بيت الشاي، بينما ظل أربعة آخرون يستكشفون البيت ومحيطه. ساروا في مسيرات بطيئة مخططة جيداً من أحد طرفي الحديقة إلى طرفها الآخر، جيئة وذهاباً، فاحصين كل سنتمتر من الأرض. كانوا يحملون شاشات عرض مسطحة في أيديهم. وحملت الأنماط متعددة الألوان التي تشكلت عليها شبهاً طفيفاً بالخرائط، بحوافها المتغضنة المتفاوتة متداخلة الأشكال.

مِن كتب أمي، كانت لديّ فكرة غامضة عن كيفية عمل تلك الآلات. كانت ترسل موجات لاسلكية إلى الأرض وتقوم الشاشات بتأويلها في أنماط تحدد كثافة التربة ورطوبتها. وحمل الجنود أيضاً أجهزة حفر وقياس مختلفة. أحد الجنود، وهي امرأة نادراً ما رأيت تعبيرات وجهها تتغير، كانت تسير وهي تحمل زوجاً من الأسلاك المعدنية الطويلة متقاطعين في يديها. وفي بعض الأحيان، كانت تتوقف وعيناها مغلقتان، ثم تحدق في الأسلاك لفترة طويلة، كما لو أنها تنتظر شيئاً.

Twitter: @ketab_n

وأخبرني والداي أنه تم عزل بيت الشاي، وأن بحثاً مكثفاً كان يجري هناك لأن القضيب المعدني في يد المرأة رفّ في اليوم الأول وأشار إلى نقطة في الأرض على الشرفة.

حدق أبي بحزن في كومة الألواح الخشبية التي ترتفع أمام بيت الشاي بينما يقوم الجنود بنزع الأرضية وتمزيقها.

"لن تعود أبداً كما كانت مرة أخرى،" غمغم وشفتاه متصلبتان. "من الصعب العثور على خشب كهذا هذه الأيام، كما أن خبرة بناء بيت شاي غير موجودة في أي قرية قديمة."

في تلك الأيام، خيّم الصمت بين أبي وأمي، وكثفه قلق يمور بخوفٍ عميق غير معلن، وأشياء غامضة بلا أسماء. كان الأمر أشبه بسطح ماء ساكن، متطرف وغير طبيعي: ثم تسقط كلمة واحدة عليه، حجر واحد متحرك، فيغيره، ويصنع فيه دائرة بعد دائرة، حتى يتشوه الانعكاس ولا يعود يمكن تمييزه بفعل قوة الحركة. تجنبنا الحديث عن أيّ شيء سوى أكثر الأشياء عادية، لأن حضور الجنود أقام جدراناً غير مرئية بيننا، لم تكن لدينا الشجاعة لتحطيمها.

في المساءات، لم أكن أذهب للنوم حتى أتأكد سّراً من أن الجنود لم يأخذوا أجهزتهم ذات الشاشات إلى التل. وفي الصباحات كان قلبي يقف سميكاً وثقيلاً في حلقي عندما أستيقظ على احتمال أنهم ربما يكونون قد وسعوا دائرة بحثهم إلى خارج البيت والحديقة. لم أستطع تناول الإفطار حتى أتأكد من أن الأمر ليس كذلك. في أحلامي، كنت أشاهد الماء المخبأ في الصخر، وفي منتصف الليل أستيقظ على الشعور الخانق في صدري بأن صوت الينبوع انتقل بطريقة ما، مستحيلة، وقطع كل الطريق من التل إلى البيت. كنت أستمع إلى الصمت الساكن وقتاً طويلاً، حتى يُغرقني النعاس مرة أخرى.

في البداية، ظننت أن أمي تفتعل اهتماماً بمعدات الباحثين عن الماء حتى تحتفظ بالمظاهر وللتغطية على عصبيتها. وبينما تمر الأيام، فهمت أن وراء سلوكها اهتماماً حقيقياً لاقت صعوبة في إخفائه. كانت تجهد وتتأ لمعرفة المزيد عن المعدات،

Twitter: @ketab_n

لتجربتها بنفسها، ولمعرفة الآليات والتطبيقات. كان أكثر من خمسة عشر عاماً قد مرت منذ عملت باحثة ميدانية لدى جامعة نيوبيتربرغ، وكانت التكنولوجيا العسكرية أكثر تطوراً من أيّ شيء يستطع المدنيون الوصول إليه. كانت تمشي مع الجنود، وتطرح الأسئلة عن معداتهم، واستطعت أن أرى على وجهها كيف أنها كانت تسجل ملاحظات عقلية حول الأشياء التي تراها حتى تستطيع أن تكتبها في هدأة غرفة مكتبها. وقد لاحظ أبي ذلك، أيضاً، وأصبح تعامله معها مقتضباً ونائياً. كل شيء يُترك دون أن يُقال في تلك الأيام كان ينشدّ من حولنا مثل شبكة ربما تخنقنا وتسحقنا، إذا لم نتمكن من العثور على مخرج في وقت قريب بما يكفي.

أردتُ أن أتحدث مع سانيا. تمنيت لو أنني لم أغادر ورشتها على ذلك النحو المفاجئ. أرسلت إليها ثلاث رسائل وطلبت منها أن تأتي، لكنها لم تُجب. لم أكن متأكدة مما يجب أن أفهمه من ذلك، لأنها لم تكن تميل إلى الرد على الرسائل كثيراً على أي حال. وبينما كانت أمي تتحول في المكان وتدرس معدات الجنود، ويقف أبي بجوار بيت الشاي، آملاً على ما يبدو أن يحد حضوره من الأضرار التي يسببونها، كنت أحمل الكتب إلى غرفتي وأعسكِرُ بجوارها.

ظل التسجيل على القرص الفضي يقلقني. كانت لدي دائماً فكرة واضحة نسبياً عما كانه العالَم الماضي تقريباً —أو بالأحرى، عن كم كان المعروف عن العالَم الماضي قليلاً. ومع كل أحلام يقظتي عن الشتاء وتوقي إلى الثلج، لم أشك قط فيما تعلمته في المدرسة وما تقوله الكتب. كنت أخذتُ بحكم المسلمات أن ما كانَ يعتبَر صحيحاً كان صحيحاً فعلاً، ولم يكن أيّ شيء وراء ذلك يهمّ. ولكن، ماذا لو أنّ الأمر لم يكن كذلك؟ ماذا لو أن القصص التي تبقت لم تفعل سوى تعتيم شظايا المرآة وتشويهها أو الأسوأ: ماذا لو أنّ أحداً قام عمداً بتحطيم المرآة حتى يحرف الانعكاس عن حقيقته؟ أعرف ما فعلتُم.. وإذا كان لدي شيء لأقوله عن ذلك، فإن العالَم كله سيعرف ما حدث فعلاً. هكذا قال الصوت على القرص.

بعد أن نشرت الكتب التي جلبتها من البيت على الأرضية كلّها، وجدت

Twitter: @ketab_n

في نهاية المطاف خريطتين كبيرتين للعالم فيها. وضعتهما الواحدة بجوار الأخرى للمقارنة. إحداهما تعرض العالَم الماضي، عالَم الشتاءات القديمة ومدن ناطحات السحاب. والأخرى تعرض العالَم الراهن.

حدقتُ في الخطوط المحيطة بالقارات والمحيطات، المتغيرة، التي بالكاد يمكن تمييزها.

ثمة الكثير جداً مما أسلم نفسه للملح والماء.

نظرت إلى الأماكن الأقرب إليّ. البحر الأبيض، إلى الشرق من قريتي وكولوبارفي، لم يكن يصل إلى هذا العمق في اليابسة قديماً، لم يكن بهذا القرب مناكما هو الآن. والبحيرات والأنهار في الاتحاد الإسكندنافي اندغمت في مساحات مياه أعرض، وذهبت خطوط السواحل القديمة منذ أمد طويل.

وليس هذا كل شيء.

ثمة الجزر الغارقة، والسهول الساحلية، ودلتا الأنهار التي التهمها الملح؛ المدن الكبيرة، التي أصبحت الآن أشباحاً صامتة للحياة الماضية، متسربلة بأكفانها في البحر، في كل مكان، كل مكان.

في الخريطة القديمة، كان القطبان الشمالي والجنوبي مرسومين بالأبيض. وعرفت أن ذلك يرمز إلى الثلج الذي كان يدعى في بعض الأحيان بالجليد الأبدي، حتى اتضح أنه لم يكن أبدياً بعد كل شيء. قرب نهاية حقبة العالَم الماضي، سخن العالم وارتفعت البحار أسرع مما استطاع أن يتنبأ به أحد. مزقت العواصف القارات وطوّح الناس بيوتهم بعيداً إلى حيث تَبقّى حيّز وأرض جافة. وخلال حروب النفط الأخيرة لوث حادث كبير معظم مخزون المياه العذبة في السويد والنرويج القديمتين، تاركاً المنطقتين غير صالحتين للسكن.

عُرف القرن التالي باسم "عصر الشفق"، والذي نفد فيه النفط من العالَم، أو ما تبقى منه. وبذلك، ضاع قسم كبير من تكنولوجيا العالَم الماضي بالتدريج. أصبح البقاء على قيد الحياة هو أهمّ الأشياء. واندثر كل شيءٍ لا يُعتبر ضرورياً لمجرد البقاء اليومي.

Twitter: @ketab_n

فكرت في الكلمات المسجّلة على القرص. تحدث الصوت الذكوري عن ترونديلاغ ويوتنهايمن. وهي أماكن تنتمي إلى "الأرض المفقودة"، كما تدعى المناطق الملوثة في الاتحاد الإسكندنافي. وإذا كانت حملة يانسون حقيقية، فما الذي كانوا يفعلونه في الأرض المفقودة خلال عصر الشَّفَق؟ بل كيف كان من الممكن والآمن لهم أن يذهبوا إلى هناك؟ أردت تقريباً أن أؤمن بزعم سانيا بأن التسجيل على القرص كان محض قصة. بدا الأمر لي حقيقياً، لكنني عرفت أنّ ذلك هو ما تكون عليه أفضل القصص: يمكن أن تصدقها، حتى لو كنت تعرف أنها مجرد خيال. ومع ذلك، ثمة شيء في القرص لم يقنعني تماماً. كانت القصة فيه تفتقر إلى بنية القصة المخططة المحبوكة. كان لها شكل الواقع والحقيقة.

أغلقت الكتب وكومتها فوق مكتبي، ولكن ليس قبل أن أطوي زوايا الصفحات التي تضم الخرائط.

بعد ستة أيام من وصول الجنود، ظهرت سانيا على غير توقُّع عند بوابتنا. كانت قد مشت كل المسافة من القرية، وهي تحمل كومة من قِرب الماء الفارغة محزومة بشريط على ظهرها القِرب نفسها التي كنتُ قد حملتُ فيها الماء إليها كأجر عن عمل التصليح الذي أنجزته لنا قبل بضعة أسابيع.

"دعينا نذهب إلى الداخل،" قلت لها.

"قال أبي إن لديكم غزواً محلياً يجري هنا،" قالت سانيا ونحنُ ندخل إلى البيت. "لماذا بحق الله؟"

خلعَت قلنسوة الوقاية من الحشرات. ساعدتُها في إنزال قِرب الماء عن ظهرها وعلقتُها على رف القبعات على جدار المدخل.

"أعتقد أنهم يظنون أن لدينا بئراً مخفية تحت أرضية بيت الشاي أو شيئا من هذا القبيل،" أجبتُ. بدا صوتي أهدأ مما توقعت.

"كان ينبغي أن أعرف أنكم تخفون سراً عظيماً ما،" قالت سانيا فيما يذوب تعبيرها ليتحول إلى واحدة من تكشيراتها غير المتوازنة. "أليس لديهم حقاً شيءٌ

Twitter: @ketab_n

أفضل ليفعلوه؟ ربما يكون أحد قد سكر مع والدك وأرسل إليهم دليلاً زائفاً حتى يصنع فوضى."

ابتسمتُ، لكن وجهي ظل جامداً. بدا أنه ليست لديها النية لذكر مشاجرتنا، ولم أشعر بحاجة إلى ذلك أنا أيضاً. بعض الجراح تلتئم من تلقاء نفسها، فكرتُ. ما من سبب لجعلها تنفتح مرة أخرى.

"هل أنت في عجلة من أمرك؟" سألتُ.

هزّت سانيا رأسها.

صنعتُ شاياً مثلجاً لنا في المطبخ. طقطقَت كتل الجليد متشققة في الأكواب الخزفية بينما أسكب السائل الأصفر الشاحب الفاتر عليها. جلسنا إلى الطاولة، وأحضرتُ بعض التين المجفف من الخزانة.

"أتمنى لو أن لدينا مجمِّدة أيضاً،" قالت سانيا وهي ترتشف شايها. "حاولت أن أصلح واحدة في السنة الماضية، لكنها اشتغلت بضعة أسابيع فقط قبل أن تتعطل إلى الأبد. كنت أحتاج الذهاب إلى المدينة لجلب قطع الغيار، وهو ما كان سيعني ذهاب ميزانية طعام شهرين."

"أليس غريبا أن يوجد هذا الكمّ من تكنولوجيا العالَم الماضي مما يمكن إصلاحه هناك في مقبرة البلاستيك؟" سألتُ.

"ما الغريب كثيراً في ذلك؟"

"قالوا دائماً في المدرسة إن تكنولوجيا العالَم الماضي كانت هشة ولا يمكن تصنيعها الآن، وذلك ما تقوله كل الكتب أيضاً."

"كانت كذلك. معظم الأشياء في مقبرة البلاستيك هي قمامة."

"ماذا عن الكتب؟"

"ماذا عنها؟"

"لماذا لم يُحفظ المزيد من كتب العالَم الماضي؟ علمت أن بيت معلِّم الشاي ظلّ يمتلك من الكتب أكثر من أي بيت آخر في القرية، وأخبرني أبواي أن الكتب نادرة حتى في المدن. القليلُ من الكتب طُبعت بسبب ثمن الورق، ومن المستحيل الوصول

Twitter: @ketab_n

إلى طبعات العالَم القديم عملياً، إلا إذا توفر للمرء مدخل إلى مكتبات الحكومة أو المحفوظات العسكرية. في المدرسة كنا نستخدم كتب جهاز الرسائل فقط.

"معظم الكتب كانت في المدن الكبيرة التي غرقت عندما أغارت المحيطات على شواطئها،" قالت سانيا.

"نعم، ولكن هل سبق لك أبداً وأن شاهدتِ كتاب تاريخ مكتوبا قبل عصر الشَّفق؟"

"أيّ جدوى ستكون في كتاب تاريخ لا يضم عصر الشفق وحقبة العالَم الراهن؟"

"مع ذلك، لا يمكن أن تكون كلها ضاعت تحت الماء، أيمكن ذلك؟ عندما غرقت المدن، لماذا لم يتم إنقاذ المزيد من كتب العالَم الماضي؟"

"لا أعرف." وفردت سانيا يديها. "ربما لم يكن هناك وقت. كان يجب إنقاذ الناس أولاً. ربما —"

قاطعَتها صرخة قادمة من الخارج. نهضتُ وذهبتُ إلى النافذة. رأيت واحداً من الجنود —أشقر يرتدي نظارة طبية– وهو يشير إلى اثنين آخرين جاءا إليه مهرولين. لم أسمع ما قاله، لكن الثلاثة ذهبوا بعد تبادل بعض العبارات باتجاه بيت الشاي. لم أستطع رؤية بيت الشاي من نافذة المطبخ، وبعد لحظة اختفوا عن أنظاري.

"ما الأمر؟" سألَت سانيا.

"لا أعرف." ولم أستطع سوى التساؤل عما إذا كان الجنود قد وجدوا شيئاً. لكنه لم يكن ثمة شيء للعثور عليه في المنزل، وبيت الشاي أو الحديقة. أم أن ثمة شيء؟

كان الأمر كما لو أن ماءً بارداً قد انسكب على قلبي. فهمتُ، ربما للمرة الأولى، كم هو قليل ما أخبرني به والداي. هل كانت هناك خريطة تشير إلى موقع الينبوع مخبأة في بيت الشاي وعثر عليها الجنود؟ أكان هناك شيء عن الينبوع مكتوب في كتاب معلّم الشاي الحالي، في الصفحات السميكة البنية الشاحبة المليئة بخط يده الدقيق، والتي جعلني أقرأ أجزاءً منها فقط وهو يراقبني عن كثب؟ أو ربما في واحد من الكتب الأخرى، المغلق عليها بحرص في خزانة زجاجية في غرفة

Twitter: @ketab_n

المعيشة، والتي وصف فيها معلمو الشاي الراحلون المراسم بالتفصيل؟ لم أعرف، وطاف خيالي بسرعة على ألف قصة، لم تنته أيٌّ منها إلى خير.

"لا حاجة لأن تأتي معي إذا كنتِ لا تريدين،" قلتُ لسانيا. "إنه لا شيء على الأرجح."

تبِعتني على أي حال عندما وضعتُ كوبي على الطاولة، وسحبتُ قلنسوة الحشرات على رأسي وخرجت. كان المَرج مليئاً بالحفر وأكوام التراب التي تجنبناها، لكنني لاحظت أن حديقة الصخور وأشجار الشاي بجوارها بقيت دون أن تُمس، باستثناء طبعات الأحذية التي تعبر الرمل. ووسط الأرض المقلوبة شعرت بخطواتي غير ثابتة وبأن الطريق غير مألوف.

بينما كنتُ أسير حول زاوية بيت الشاي، رأيت والديّ يقفان على حافة حفرة كبيرة مفتوحة في العشب. وقفا جنباً إلى جنب. ومع أنهما لم يتبادلا النظرات أو يلمسا بعضهما، بدوا في تلك اللحظة منسجمين تماماً معاً، مثل عمودين حجريين من بناية قديمة ما، أو مثل جذوع شجرتين رأيتهما في الغابة الميتة قبل سنوات. كان القائد تارو يقف على الجانب الآخر من الحفرية، وقد تجمع الجنود الآخرون حول الحفرة. وقفتُ على بعد بضع خطوات من والديّ. خطَت سانيا لتقف بجواري، ومع أنني لم أكن أنظر إليها أو ألمسها، عرفتُ أنها قريبة.

كانت الحفرة عميقة وجوانبها شديدة الانحدار، ولم تصل شمس المساء المائلة إلى قاعها. ومع ذلك، استطعت أن أرى بوضوح في القاع نوعاً من جدار صلب من صناعة بشرية. وأبعد، التمع الماء القاتم مثل دمعة في عين الأرض. حاولت أن أقرأ التعابير على وجهي والديّ، وللحظة شعرت بأنهما غريبان عني. لم أكن أعرف كل ما يعرفان، ولم أكن أعرف بكم أخبراني.

متَح أحد الجنود الماء من الحفرة في طبق زجاجي معلق على قضيب تلسكوب معدني. كان عكراً مخلوطاً بالوحل، لكن تارو تناول الطبق، أزاح قلنسوته الواقية من الحشرات، وغطس أصابعه في الماء ولعق أطراف أصابعه.

Twitter: @ketab_n

"يبدو أن هناك ماءً صالحاً للشرب في أرضك،" قال وهو يحدق في أبي. "أفترض أنك لم تكن على علم بوجوده؟"

"لو كنت أعرف، هل كنت لأخفي هذه المعرفة عنك؟" أجاب أبي، دون أن يشيح بعينيه.

"يمكنك أن تذهب أنت وعائلتك الآن، معلم كيشيو،" قال تارو. "استرح مطمئناً إلى أننا سنبقيك مطلعاً على أي تطورات."

ببطء، استدار أبي ليغادر. نظر إلى أمي، ونظر إلي، وتغيرت ملامحه. أدار وجهه ثانية إلى تارو ومشى بهدوء إلى القائد على طول حافة الحفرة. حاول اثنان من الجنود إيقافه، لكن تارو أشار إليهما بأن يدعاه وشأنه. توقف أبي أمام تارو. وقفا هناك أمام الأرض والسماء وحطام بيت الشاي الممزق، ضابط طويل القامة في زي الجيش العسكري الأزرق، ورجل وخط الشيب رأسه مُسبقاً في ملابس معلم الشاي الكتانية البسيطة.

"أنت تعتقد أن كل شيء يمكن امتلاكه،" قال أبي، "إن سلطتك تصل إلى كل مكان. هناك مع ذلك أشياء لن تُسلم نفسها أبداً لسلاسل الإنسان. سوف أرقص على قبرك ذات يوم، يا تارو. وإذا لم يكن جسدي حاضراً هنا، فإن روحي ستفعل، وهي حرة من قفص عظامي."

أدار تارو رأسه قليلاً، لكنه لم يرفع عينيه عن أبي.

"على فكرة،" قال، "الآن وقد فتشنا الأرض، حان الوقت للانتقال إلى المنزل. ليوهالا، كانتو،" وجه كلماته إلى اثنين من الجنود. "شيعا المعلم كيشيو وعائلته إلى البيت وابدآ البحث. تأكدا أن يكون شاملاً."

اتجه الجنديان نحو أبي. لم يبذل أي محاولة ليتحرك. فكرت بأنه سوف يضرب تارو، ولكن في النهاية، بعد التحديق فيه لوقت طويل، استدار أبي وسار باتجاه البيت دون أن يتلفت وراءه. وتبعه الجنود قريباً على الأعقاب. وأمي التي كانت تراقب المشهد بصمت، أمسكت ذراعي ومضينا خلفه، وهي تسحبني معها.

سارت ببطء، وعندما أصبحنا خارج نطاق السمع، همست لي، "ليس لدينا ما

Twitter: @ketab_n

نخاف منه، نوريا. لقد فتشتُ الأرض عدة مرات في السابق، وأعرف أنه ليس هناك ينبوع هنا. إنه ماء المطر فقط في بئر قديمة مليئة بالإسمنت."

"لماذا لم تقولي لهم ذلك؟" سألتُ.

"سيكون أفضل إذا عرفوا ذلك بأنفسهم. ذلك سيشعرهم بالإهانة ويطردهم بعيداً، حتى أن أحداً يمكن أن يعتذر."

"ليس تارو، مع ذلك،" قلتُ وفكرت في التعبير على وجه القائد، والنوعية العنيدة الكامنة خلفه.

"كلا، ليس هو،" اعترفت أمي.

عندما دخلنا المنزل، كان الجنود قد بدأوا مسبقاً بفتح الخزائن والأدراج، وسحب الأشياء ورميها على الأرض. رأيت أبي منحنياً عند باب المطبخ. كان يمسك صدره بإحدى يديه وكان تنفسه مضطرباً.

"هل أنت بخير؟" سألَت أمي. لم يُجب أبي مباشرة. بعد لحظة استقام، مسح ملامح الألم عن وجهه وقال، "لا شيء، شعرت ببعض النقص في الهواء فقط."

حاولت أن أتذكر ما فعلته أمي، وأن أجد تأكيداً في لهجتها أو حركاتها على أنها لم تكن تعرف أكثر مما قالته عندئذ. وفي لحظات أخرى، حاولت أن أقلب هذه الفكرة، أن أعثر على شيء يعطيني اليقين بأنها كانت تفهم وتعرف أن أبي قد بدأ يستدير مبتعداً عن الحياة. لكنني لم أجد أياً من الأمرين، لا إشارة للتحقق من هذا الطريق أو ذاك. ثمة مسافة بيننا لا أستطيع عبورها أبداً، مسافة الزمن والتغيُّر والنهايات التي لا رجعة فيها؛ الماضي الذي لا يغير شكله على الإطلاق. ولأنني لا أستطيع أن أجسر الوادي، يجب أن أسير على حافته وأن أجعله يصبح جزءاً من حياتي، واحداً من تلك الشقوق المليئة بالظل التي لا أستطيع تجاهلها أو نكرانها، والذي لا يمكنني أن أجلب له الضوء أيضاً.

أمي تعرف. أمي لا تعرف.

تذكرت سانيا، كانت تسير على بعد خطوات قليلة وراءنا، وبقيت خارج الباب. تركت والديّ عند المدخل وهما يحدقان في الجنود الذين يقلبون الغرف رأساً

Twitter: @ketab_n

على عقب، وذهبتُ لأشيّع سانيا إلى البوابة.

توقفت على الشرفة. لم أرَ سانيا على الفور، لكنني عثرتُ على مكانها بعد ذلك. كانت تقف في الممر المؤدي إلى بيت الشاي. كان يتحدث إليها جندي أشقر الشعر كنت أراه كثيراً في صحبة تارو، وافترضت بذلك أنه أكثر ضباطه التافهين قرباً منه. لم أستطع سماع كلماتهما ولم أر وجه سانيا بوضوح وراء قلنسوة الحشرات، لكن أطرافها بدت متوترة. قال لها الجندي شيئاً وتململت سانيا بغير ارتياح. مشيت إليهما. وبدأت سانيا بالتحرك عندما لاحظتني.

"يجب أن أذهب،" قالت لي، أو ربما للجندي.

"أبلغي تحيتي لأبيكِ،" قال الجندي وانطلق باتجاه بيت الشاي.

"زميل مدرسة قديم لأبي،" قالت لي سانيا ونحن نسير باتجاه البوابة. "سألني كل أنواع الأسئلة الغريبة."

الآن وأنا أفكر بسانيا، بعد كل ما حدث، لا تزال هذه واحدة من صورتين تظهران أمام عينيّ بلا دعوة، أوضح من صور أخرى أحاول استدعاءها عبثاً: أراها تقف خارج البوابة، شعرها الأسود منسَرِحُ على جبهتها وخديها، وجسدها نحيل ومنزوٍ داخل ثوبها الكتاني الخشن. ظلُّ قلنسوة الحشرات ينعكس حاداً على وجهها، وأشكال الأغصان المتشابكة في كل مكان من حولنا تهمس بنعومة، كما لو أنها تحملها بعيداً عني.

ولا أرفع رأسي.

ولا أقول كلمة واحدة لأوقفها.

أقف وأشاهد رقص ظلال الأشجار على ظهرها، على ذراعيها، أقف صامتة وساكنة، وهي تسير مبتعدة ولا تنظر وراءها.

بعد يومين، أخذ الجنود معداتهم أخيراً وغادروا أملاكنا. وجاء الجندي القصير صاحب النظارة الطبية ليقدم لنا تفسيراً شحيح الكلمات: تبين أن الماء هو مياه أمطار تجمعت في بئر تحت أرضي قديم لم يُستخدم منذ عقود. وبينما تواصل البحث، اتضح أنه لا توجد مياه جارية في المنزل أو الحديقة، غير تلك التي تجري

Twitter: @ketab_n

في أنبوب المياه القانوني.

كان آخر شيء فعلوه هو كسر قفل خزانة الكتب في غرفة المعيشة وإخراج نحو ثلاثين من كتب معلمي الشاي المغلفة بالجلد. وعندما شرعوا في حملها إلى خارج المنزل، احتج أبي.

"لن تجدوا فيها أي شيء مهم،" قال. "إنها مجرد يوميات عائلية شخصية. وإلى جانب ذلك، كان يمكن أن أعطيكم المفتاح لو أنكم طلبتموه،" أضاف بمرارة.

لكن الجنود الذين يحملون الكتب لم يتكلفوا حتى عناء التوقف للاستماع.

غادروا الحديقة مليئةً بالثقوب، وكانت محاولتهم إصلاح الضرر الذي سببوه لبيت الشاي إسميّة. سار أبي إلى تارو.

"هل ستتركون بيت الشاي بهذه الحالة حقاً؟" سأل. "هل تدركون كم سيكون من الصعب العثور على أحدٍ يعيده إلى وضعه السابق؟"

كانت عينا تارو سوداوين ولا تطرفان.

"معلم كيشيو،" قال، "بوصفي ممثل تشيان الجديدة، عليّ واجب التحقيق في كل الاحتمالات التي ربما تقود إلى اكتشاف المياه العذبة. ليس ذنبي إذا تبين أنها مضللة."

وهكذا غادروا، بلا اعتذارات، وبلا تعويض.

كنت قد تصوّرت أن الأمور ستعود ثانية إلى ما كانت عليه بمجرد مغادرة الجنود، لكن الصمت الغريب الذي استولى علينا أقام، مثل سطح ماء هادئ آسنٍ بطريقة غير طبيعية حولنا.

انتظرتُ حجراً ليحركه.

وعندما فعل، كان ذلك بطريقة لم أكن أراها آتية أبداً.

بعد بضعة أسابيع من التحقيق، سمعتُ والديّ يتحدثان مع بعضهما مرة أخرى في المطبخ.

"سوف يعودون،" قالت أمي. "لن يستسلموا ولن ييأسوا أبداً."

"لم يعد لديهم أي سبب للعودة،" أجاب أبي.

Twitter: @ketab_n

ظلت أمي صامتة لفترة طويلة قبل أن تقول أخيراً، "لقد اتخذت قراري."

"يجب أن نتحدث مع نوريا،" قال أبي.

لم يكن لديّ الوقت لأعود إلى غرفتي، ولذلك تظاهرت بأنني كنتُ في طريقي إلى الخارج. جاء أبي من المطبخ. ولم أكن في حاجة لأستدير وأنظر. ميزت صوت خطواته، وعرفت أنه توقف ورائي.

"نوريا،" هتف بهدوء. وقفت ونظرت إليه. في ضوء الرواق الشاحب كانت شبكة من الظل تحط على وجهه، غسق رمادي مزرق ينسل عبر النوافذ. "أمك تريد أن تتحدث إليكِ."

مشيتُ وراءه إلى المطبخ، حيث كانت أمي تجلس إلى الطاولة وأمامها كوب شاي فارغ. كان الأمر كما لو أن الظلال تعقبتنا وتشابكت حول الفانوس الكبير المتدلي فوق الطاولة، وأعتمت ضوءه. رأيتُ الظلال على وجه أمي.

"اجلسي، نوريا،" قالت.

فعلتُ. جلس أبي في مقعد بجوار أمي. كانا جبهة موحدة مرة أخرى، كما كانا عند حافة الحفرية في الحديقة، اثنين من الأعمدة الحجرية، ساقيْ شجرتين متشابكتين.

"أبوك وأنا تحدثنا،" قالت أمي. "نريد كلانا أن نمنحك حياة آمنة، لكنّ لدينا رأيين مختلفين حول كيفيّتها." صمتت ونظَرت إلى أبي، الذي تكلم بدوره.

"نوريا، إذا كنت تريدين أن تكوني معلم شاي، فهذا هو الوقت لتقولي ذلك. أنا على قناعة بأن تارو سوف يتركنا لشأننا بعد أن فتش أرضنا. وأشك بأنه سيخطر بباله حتى أن يبحث عن الينبوع في التل، وحتى لو خطر ذلك له، فإن الينبوع مخفيّ جيداً بحيث سيكون العثور عليه غير مرجح. إننا آمنون هنا. لكن أمك لسوء الحظ تعتقد شيئا مختلفا."

"سوف يتابع تارو ما بدأه،" قالت أمي. "الحياة هنا لن تعود إلى ما كانت عليه. لقد أصبحوا فعلاً أقرب مما تظنين، نوريا."

"لكنهم لن يقتربوا من أي مكان قرب التل،" قلتُ.

"هناك شيء لا تعرفينه،" أجابت أمي. "قل لها، ميكوا."

Twitter: @ketab_n

"تعرفين أننا نستخدم ماءً أكثر من معظم العائلات،" قال أبي. "تعرفين أن بعضه من مياه الحصص، لكنه بعضه يأتي من الينبوع. لا بدّ من أنك لاحظتِ الفرق."

كان مذاق الماء المستخدم في طقوس الشاي دائماً طازجاً، كما لو أنه مُتِح توّاً من الينبوع. كان ذلك جزءاً من فنّ الشاي. وقد علمني أبي دائماً أن أتذوق الماء المستخدم في صنع الشاي، وأن أختار الأكثر جِدّة وعذوبة، الأنظف، إذا كان هناك خيار.

بخلاف ذلك، كنا نستخدم الماء القادم من أنابيب المياه، الذي كان طعمه دائماً في بداية الشهر قديماً وزنخاً قليلاً، كما هي حال مياه البحر المحلاة. مع اقتراب نهاية الشهر، كان يحدث تحسُّنٌ واضحٌ في الطعم. وبخلاف معظم المنازل، لم نكن ندّخر الماء، ولم ينفد لدينا الماء أبداً، ولم نحتج إلى شراء ماء باهظ الثمن من تجار المياه.

"هل نستخدم حصتنا من الماء في الأسابيع الأولى من كل شهر ثم نتحول إلى ماء قادم من الينبوع عندما تنفد الحصة؟" سألتُ. "ولكن، كيف يأتيان من الأنبوب نفسه؟"

"سيكون من الصعب جداً حمل كل الماء من التل إلى البيت،" قالت أمي. "كما أن ذلك سيثير الشكوك. سوف يحتاج المرء إلى عربة وحاويات ماء كبيرة وزيارات متكررة. وسوف يلاحظ أحد ما عاجلاً أو آجلاً معلم الشاي وهو يعود من التل عدة مرات كل أسبوع ببراميل مليئة. لم نكن الأوائل الذين لاحظنا عبثية ذلك. لا نعرف متى بُني أنبوب الماء، لكنه كان موجوداً هناك مسبقاً في زمن والد ميكوا. إنه ليس مسجلاً في كتب أي من معلمي الشاي. أياً كان الذي بناه، فقد أدرك أنه سيكون من الخطير جداً ترك سجل مكتوب عنه. الأنبوب مبني بمهارة: إنه يأتي من العمق داخل التل، وهو مخبأ في داخل الأرض ويتصل بأنبوب حصة المياه الشرعي في مكان بعيد جداً عن المنزل بحيث لا يمكن تعقبه بتفتيش أملاك معلم الشاي. مكمن الخطر الوحيد هو أنه يجب فتحه وإغلاقه يدوياً من التل. كنا محظوظين لأنه صادف أنه كان مغلقاً عندما جاء الجنود."

Twitter: @ketab_n

"الأنبوب مخبوءٌ مثله مثل الينبوع،" عقَّب أبي. "والعثور عليه شبه مستحيل بدون معرفة موضعه."

"إنهم معتادون على التفتيش، وآلاتهم معقدة."

"ليس لديهم سببٌ للعودة."

"ليس لديهم سببٌ لعدم العودة!"

ساد الصمت بينهما. وبعد لحظة تكلم أبي، موجهاً كلماته إليّ فقط.

"تعتقد أمك أن بيت معلم الشاي لم يعد مكاناً آمناً للعيش." اختلس نظرة إليها وانتظَر. رأيتها تنتقي كلماتها بعناية.

"نوريا، لقد عُرِضَ عليّ منصبُ باحثة في جامعة شينجينغ. وقد قبلت الوظيفة."

"هل ستنتقلين إلى شينجينغ؟" سألتُ. لم أكن أعرف بالضبط كم تَبعُد، لكنني كنت أعرف أن الرحلة إلى الساحل الجنوبي لتشيان الجديدة طويلة جداً. يجب أن تستغرق الرحلة عبر القارة أسابيع حتى على متن أسرع القطارات. حملق أبي وأمي كلٌّ منهما في الآخر.

"لقد نضجتِ، ولذلك لا نستطيع اتخاذ قرار نيابة عنك،" قالت أمي."هل ترغبين في الذهاب إلى شنيجينغ معي، أم تريدين البقاء هنا مع أبيك؟ لست مضطرة لاتخاذ القرار الآن، لكنه سيكون عليّ أن أغادر قبل عيد القمر، وهكذا يتبقى أمامي شهر واحد فقط."

نظرت إلى أمي. نظرت إلى أبي. شعرت بحلقي جافاً. هناك في القرية، في مكان لا يبعد أكثر من البيت ذي العلامة، كان الجنود يسنون أسلحتهم ولم يكونوا يستمعون إلى الالتماسات. في أي لحظة ربما يحولون انتباههم إلينا مرة أخرى، هذا إذا كانوا قد حولوه بعيداً عنا أصلاً. لم تكن لدي أي طريقة لمعرفة أي من والديّ كان على حقّ، ولم أستطع أن أبقى وأذهب في الوقت نفسه.

لم يكن خياري واضحاً أمامي، وخشيتُ أن تقوم الكلمات التي أختارها بتحويله إلى حجر لا يرِيْم. ومع ذلك، كان اختيار الصمت أسوأ بشكل ما.

فتحت فمي وقلت لهما ما سأفعل.

Twitter: @ketab_n

الفصل السابع

في وقت مبكر من صباح اليوم الثامن من الشهر الثامن، حمَّلنا حقيبة أمي ومتاعها على عربة شبه آلية استعارها أبي من يوكارا مقابل بعض الماء العذب. جلس والداي في المقعد الأمامي، وجلستُ أنا في الخلف تحت سقف نصف مفتوح، وباشرنا الرحلة باتجاه كولوياري.

أثارت رائحة عربة يوكارا فيّ شعوراً غريباً بتكرُّر الأحداث. أحسست بأني أصغر بكثير، كما لو كان ذلك واحداً من تلك الأيام النادرة الجميلة عندما يأخذني أبي معه إلى المدينة. نظرت إلى البقعة الزرقاء الأرجوانية على قماش المقعد الخشن المهترئ. كنت قد أسقطت بوظة التوت الأزرق الذائبة عليه في إحدى رحلات العودة إلى المنزل عندما كنتُ في الحادية عشرة. يومها انزعج مني والَداي، وقمت بحك المقعد حتى أصبح واضحاً لي أنه لن يعود نظيفاً تماماً أبداً.

شعرت للحظة بأنني أشبه بصندوق تشياني متعدد الطبقات أو لعبة خشبية جوفاء من العالَم الماضي، مملوءة بالعديد من اللعب الأصغر، واحدة داخل الأخرى. ثمة نسخة أصغر مني، أو ربما عدة نسخ، عشَّشت تحت جلدي، تؤرجح أقدامها الصغيرة، التي لا تبلغ الأرضية، من فوق المقعد، ولا تتخيل اليوم الذي لن يكون

Twitter: @ketab_n

فيه والداها كلاهما في متناول ذراعيها بأمان —أو لو أنها فعلت، فإنها طردت الفكرة من عقلها سريعاً.

استغرقَت الرحلة إلى كولويارفي حوالي ثلاث ساعات. وبينما نقترب من البحر، كان المشهد يتغير ببطء. وبمجرد أن أصبحت قرية ألفينفارا خلفنا، مررنا بغابات الأراضي المروية التي تقطع حوافها المسنَّنة داكنة الخضرة صفحةَ السماء بعيداً إلى يسارنا. كانت هذه دائماً بقعتي المفضلة من الطريق إلى المدينة. وعندما كنت طفلة، حلمتُ بتوجيه العربة إلى الغابات وقيادتها عبر الأشجار العالية، بحيث يكون ظلها البارد من حولي مثل ملجأ مضياف يقي من سياط الشمس. لكنني تعلمت مبكراً أنني لا يمكن أن أفعل شيئاً كهذا: كانت الغابات محروسة ومحظورة على المدنيين، تماماً مثل مزارع الغذاء والبحيرات القليلة المتبقية.

فيما بعد، عندما بدأ خط أفق كولويارفي السماوي الوامض المتموج ومبانيها الشبيهة بالأقبية وألواحها الشمسية تلوح في الأمام، رأيت مرافق تحلية المياه في الأفق، على حافة البحر. كانت تقف صارخة، صماء، هائلة مثل صف من عمالقة عميانٍ قدماء مقدودين من الحجر. كان أمنها معروفاً وسيء السمعة. حتى الطرق المفضية إليها كانت مُراقبة، وقد سمعت قصصاً عن مسافرين تم اعتقالهم بسبب سيرهم على مقربة من إحداها فقط.

كان الوقت ضُحى عندما وصلنا حدود المدينة. رأيت عن بعد أن هناك جنوداً أكثر من المعتاد. في العادة كانت البوابات محروسة فقط من أجل المظاهر، ولم يكن يتم إيقاف جميع المسافرين. هذه المرة، مع ذلك، كان صف طويل من العربات شبه الآلية يزحف داخلاً المدينة ببطء، وإلى جانبه صفان من أولئك الذين يتنقلون سيراً على الأقدام يتحركان أسرع قليلا. اتخذنا مكاننا في نهاية صف العربات. وعندما وصلنا البوابة، أوقفنا حارس بزي أزرق.

"أي عمل لكم في المدينة؟" سأل.

"أنا في طريقي إلى شينجينغ" قالت أمي." وعائلتي تشيعني إلى محطة القطار."

"كل المسافة إلى شينجينغ؟ هل أنت في عمل للدولة؟"

Twitter: @ketab_n

"نعم، قبلتُ وظيفةً في جامعة شينجينغ."

"هل يمكن أن أرى تذكرة قطارك، جهاز جواز سفرك والرسالة التي تثبت صلتك بالجامعة؟"

وجدَت أمي في حقيبتها جهاز الرسائل المستعمل الذي خصَّصته لها الجامعة. وضعت إصبعها على شاشة العرض لتفعيل خصيصة جواز المرور. أضاءت الشاشة وظهرت معلومات هوية أمي، بما فيها حجز تذكرتها. سلَّمت جهاز الرسائل للحارس الذي تفحصه. كما قدمت أيضاً الرسالة الورقية المُرسلة إليها من شينجينغ. بدا الحارس متأثراً تقريباً من رؤية الورق الحقيقي، لكنه لم يقل شيئاً. أحنى رأسه لأبي ولي. "وأنتم، هل لديكم أي دليل على هويتكم؟"

"أخشى أنه لا يوجد،" قال أبي. "لم يعتد المرء الحاجةَ إلى جهاز مرور حتى يدخل مدينة أخرى. هل هناك أي سبب معين لهذا؟"

"لدينا أوامرنا،" قال الحارس ولم يضف أي تفاصيل. "هل أستطيع أخذ بصمات أصابعكم، من فضلك؟"

أعطانا جهازه متعدد الأغراض وضغطنا أصابعنا على الشاشة. ظهرت أسماؤنا وبعض الأرقام الرمزية، وأعاد أبي الجهاز. رأيت الحارس يخربش بضع جُمل على الشاشة بقلمه الإلكتروني.

"يمكنك أنت وعائلتك أن تمضوا، معلم كيشيو،" قال بعد إلقاء نظرة طويلة متأنية على جهاز مرور أمي والرسالة. وبدا ذلك أمراً أكثر منه إذناً. "أنتَ وابنتك يجب أن تُبلغا الحراس لدى مغادرة المدينة،" قال لأبي.

أحنى أبي رأسه. كان فمه مثل خط مشدود في وجهه، وقاد العربة عبر البوابة.

كنتُ قد ذهبت إلى محطة القطارات بضع مرات فقط من قبل. لم تكون كولوياري مدينة كبيرة، ومعظم السير القادم من الاتحاد الإسكندنافي كان يصل بالسفن إلى مكان أبعد في الجنوب، إلى موانئ خليج أدوغا على بحر البلطيق. كانت هناك أربعة مسارات سككية فقط. ووقف القطار الطويل على الرصيف وأبوابه مفتوحة. كان اسم "ثعبان البحر الذكي" مكتوباً على جانب عربة القطار بحروف

Twitter: @ketab_n

زخرفية. كان ثمة مسافرون فرادى، وأزواج، وعائلات، يُحَمِّلون حقائبهم على المتن ويقولون وداعاً. ساعدنا أمي في وضع متاعها داخل مقصورة القطار. كان هناك متسع من الوقت قبل أن يغادر القطار. لكنها قالت، "لا تبقوا وتنتظروا. سوف أرسل لكم رسالة عندما أصل إلى نيو بيتربرغ."

سوف تمضي رحلة القطار من نيو بيتربرغ إلى الأورال، ومن هناك عبر تشان الجديدة إلى شينجينغ. فكرت بكل الأشياء التي لن أراها لأنني لست ذاهبة مع أمي، الأشياء التي سمعت عنها فقط: مناطق زراعة الطحالب في البحار الساحلية والمصانع التي تحولها إلى وقود؛ مزارع شجر المطاط ومزارع يراعات الضوء؛ السفن البحرية الكبيرة، وغرف الشاي المزينة ببذخ في المدن. وفي مكان ما، تحت الأمواج، متقوسة مثل سماء دائمة الغيم، ثمة أشباح مدن العالَم الماضي، حادة الحواف وبكماء مثل الذكريات.

قبلتني أمي قبلة الوداع.

"سوف أكتب إليك،" قالت. "السنة الجديدة على بعد بضعة أشهر فقط. سوف آتي لأزوركم عندئذٍ."

لم أعرف ما أقول، ولذلك احتضنتها لوقت طويل.

عندما أطلقتني أخيراً، مشيتُ لأنتظر في الخارج، وعبر النافذة رأيتها تتحدث مع أبي. كانت شفاههما تتحرك وتعابيرهما تتغير، لكن الزجاج السميك يكتم الكلمات، ويجعلها غير مسموعة. تعانقا، ولم أفهم لماذا أرادا لحياتهما أن تتداعى.

استدرت.

خطا رجل رمادي الوجه داخلاً المحطة حاملاً حقيبة كبيرة مضفورة من القصب البحري على كتفه.

سار مجموعة من الجنود بجوار المدخل، أحذيتهم تدبّ ثقيلة على البلاط، وأيديهم تستريح على مقابض سيوفهم الطويلة.

فتاة صغيرة في فستان صيفي أزرق تقفز بالحبل وتدندن بأغنية بشعة بلا شكل. أمها تأكل بذور عباد الشمس المحمصة وتلقي بنظرات عابرة على ساعتها.

Twitter: @ketab_n

أخيراً هبط أبي من القطار.

"هل نذهب؟" سأل.

نظرت إلى أمي التي تجلس خلف النافذة، عديمة اللون، شاحبة مثل صورة باهتة في كتاب قديم في منتصف النهار المشرق. نظرت إليّ بينما نمشي مبتعدين، نظرَت حتى عندما لم أعد أنظر إلى الوراء، أنا متأكدة من ذلك. ولو أنها أرادت أن تغير رأيها وتترجل من القطار وتعود معنا إلى بيت معلم الشاي، فإنها لم تفعل ذلك.

قبل بدء رحلة العودة باتجاه البيت، ذهبنا للتسوق في سوق تشانيّ. وبمجرد أن وصلنا هناك، عرفت أن وجهتنا كانت بسطة حيث تبيع الأشياء امرأة طويلة داكنة البشرة، ماكرة قليلاً. كان اسمها آيزلدا، وأنا أتذكرها من طفولتي. طلب منها أبي أن تُقدم لنا أكثر أنواع الشاي جودة. وضعَت آيزلدا ثلاث صرر صغيرة من القماش على طاولة المبيعات وفتحتها. توقعت أن يتفحصها أبي واحدة واحدة، لكنه أومأ لي بدلاً من ذلك. لم يكُن قد سُمح لي أبداً قبل ذلك باختيار نوع الشاي دون توجيهاته.

أخذت كل واحدة من صرر القماش في يدي على حدة. كانت أوراق الشاي الأول سوداء مخضرة، مستطيلة، رائحتها حلوة قليلاً. وكان الشاي الثاني ذا خضرة أكثر إشراقاً، وقد انعقدت أوراقه في براعم كبيرة تتفتح زهوراً عندما يُصَبُّ عليها الماء الساخن. كان عبقه طازجاً وخفيفاً —تخيلت أن ذلك، ممزوجاً بماء ينبوع التل، سوف يطلق شذى غير عادي. كان اخضرار الشاي الثالث ممشوحاً بالفضي، وقد تلوّت أوراقه في شكل قطرات. لكن ما ميزه، مع ذلك، كان العبق. كان عبق الشاي الثالث يتدفق. هذه هي الطريقة الوحيدة التي أستطيع أن أصف بها الأمر. كان عبقَ شاي مقطوفٍ حديثاً، لكنه كان أيضاً عبق التراب الرطب والريح وهي تمشط شعر الشجيرات، وقد تموَّج مثل أمواج الضوء على الماء، أو الظل: في لحظة كان قوياً جداً في أنفي، وفي اللحظة التالية هرب وانفلتَ ليصبح خارج المتناول تقريباً، قبل أن يكرّ عائداً من جديد.

"هذا،" قلتُ، وأعطيت الشاي لأبي.

Twitter: @ketab_n

"بكم؟" سأل صاحبة المتجر.

ذكرت آيزلدا سعر الليانغ الواحد، كما هي العادة عند مقايضة الشاي. وعندما سمعت الرقم، كنت متأكدة من أن أبي سيرفض. ومع ذلك، لم يتغير تعبيره ولو برفّة. قال لآيزلدا سعراً أخفض. هيأتُ نفسي لمساومةٍ ستأخذ وقتاً طويلاً، لكن آيزلدا نظرت إليه لحظة فقط، وأطرقت موافقة.

"سوف نأخذ نصف ليانغ،" قال أبي. "ذلك يجب أن يكفي لحفل التخرج."

استخرج كيساً قماشياً فارغاً من حقيبته، وكالت آيزلدا الشاي فيه. واشترينا أيضاً ليانَين من شاي آخر أرخص ثمناً للاستعمال اليومي، وبعض التوابل ومواد البقالة التي لا يمكن العثور عليها في القرية.

في الطريق إلى البيت حاولت ألا أنظر إلى مقعد العربة الأمامي الفارغ. نظرت وراءً باتجاه المدينة، إلى السهل المغبر وخيط البحر المرتسم ضَيقاً على صفحة الأفق، متلألئاً في شمس المساء المتأخر مثل نطاق معطف تنين عملاق يختفي ببطء عن البصر.

بعد أن غادرَت أمي، شغل أبي نفسه كلياً في الاستعدادات من أجل حفل عيد القمر. استأجر بضعة رجال من القرية للمساعدة في إصلاح بيت الشاي والحديقة. كان يان، والد سانيا، من بينهم. لاحظت يان وهو ينفق الكثير من الوقت في النظر إلى الخشب الثمين وقطع المفروشات الجميلة القليلة التي طلبها أبي من المدن؛ كان يان بنّاءً ماهراً، لكنه امتلك بالكاد مواد يعمل بها. وبينما كان أبي مشغولاً في الإشراف على الإصلاحات، تُرِكَت لي مهام تنظيف البيت وجمع المحصول. كانت شجرات التوت والكرز قد عانت نوعاً ما من الفوضى التي سببها البحث عن الماء، كما قلب الجنود جزءاً من حقل النباتات الجذرية. ومع ذلك، لَم يُفقَد كل شي، وقد أبقيتُ مشغولة بطبخ مربى عنب الثعلب وتجفيف الكرز والخوخ لفصل الشتاء، وفرط بذور عباد الشمس والقطيفة ووضعها في أكياس، والتقاط اللوز واستخراج الجزر من التراب. وفوق هذه الأشياء جميعاً، ترتب علي أن أطلب كعك العيد من

Twitter: @ketab_n

الخباز، وأفحص قِرَب الماء، وأرسل زي معلم الشاي الخاص بي إلى الخياط، وأراجِعَ الطقوس مع أبي مرة في اليوم.

بدا أن أبي قرَّر عدم التحدث عن رحيل أمي. وفي اليوم الخامس بعد مغادرتها كنت أنظف البيت بدقة. رآني أبي أحمل دلو الماء وفرشاة التنظيف وبعض قطع القماش المبتلة وأتجه نحو مكتب أمي. وعندما وضعتها على الأرض وفتحت الباب، قال، "لا تفعلي."

نظرتُ إليه، ثم أشحتُ ببصري، لأنني لم أكن أريد أن أرى تعابير وجهه.

"اتركيه كما هو،" قال.

"ما دمتَ تريد ذلك،" أجبت، لكنني فكرت: لا يمكن أن يبقى على هذه الحال. ليس لو كان يريد ذلك، وليس لو أردتُ أنا ذلك. سوف يتجمع الغبار حول سيقان الرفوف، وستنسج العناكب شباكها في الزوايا، سوف تصبح صفحات الكتب البكماء صفراء بين الأغلفة. زجاج النوافذ ينزلق نازلاً مثل المطر البطيء، حتى لو أننا لا نراه، والمشهد في الخارج يتغير كل يوم: الضوء يسقط من زاوية أخرى، الريح تضرب الأشجار أبطأ أو أسرع، خضرة الأوراق تنسحب، ونملة وحيدة، أكثر أو أقل، تحبو على الساق. وحتى لو لم نرَ ذلك مباشرة، فإنه يظل يحدث؛ وإذا أشحنا بأنظارنا بعيداً طويلاً بما يكفي، فلن يعود بوسعنا أن نميز الغرفة والمشهد، عندما نعود أخيراً لننظر إليها مرة أخرى. لقد أصبحَ البيت مختلفاً منذ رحلت، وكلانا يعرف ذلك.

أرسلت أمي رسالة خلال رحلتها. كان لديهم بقعة ضوء، بالرغم من كل حزن العالم المتكالب عليهم.

لم يسبق أن رأيت مثل هذا الميناء الهائل في حياتي، كتبت أمي من نيو بيتربيرغ. لقد كبر كثيراً في السنوات الخمس عشرة الماضية. يجب أن تري الناس الذين يسافرون على متن تلك القطارات! أمس جلست على الغداء مع عائلة من خمسة، جاؤوا كل الطريق من جبال البرانس بالقارب في طريقهم إلى الأورال. أقسم أن الشيء الوحيد

Twitter: @ketab_n

الذي منع أولادهم الصاخبين من إلقاء القطار عن السكة كان وجود الجنود. أنا أفكر بكِ. قبلاتي، ل.

ليس بقدر ما أفكر فيكِ، أجبتُ في ذهني. لديكِ في المتناول كل العالم غير الممرّغ بطبعات أقدامنا؛ لا يمكنه أن يذوي ويتلاشى صامتاً أمام ناظريك. ونحن، كل ما لدينا هو هذا المنزل، وهو يفتقر إليك، ونحن نحرس الطبعة التي تركتِها وراءك كي تبقى هنا أطول قليلاً، حتى يظل بوسعك التعرف إليها على أنها لك، عندما تعودين. إذا فعلتِ.

نهضتُ مبكراً صباح عيد القمر. كان زي معلم الشاي يتدلى معلقاً من سارية الستارة أمام النافذة المفتوحة قليلاً ويتأرجح في الهواء الخفيف. لم يكن وقت ارتدائه قد حان بعد. كان أبي قد أخبرني في اليوم السابق أننا سنقوم بمسيرة إلى التل بعد الإفطار. خمَّنت أننا سنذهب لإحضار الماء من الينبوع من أجل حفل تخرجي، لكنني عرفت أن هناك شيئاً آخر أيضاً، وإلا لما طلب إليّ الذهاب معه. ارتديت ثياباً عادية بسيطة وحذاء رحلات متين، وتناولتُ بقية عصيدة الدخن التي تركها لي على الطاولة. ملأت قربة ماء صغيرة تتدلى من كتفي ووضعت زوجاً من كعكات بذور عباد الشمس في جيبي. التقطتُ قلنسوة الوقاية من الحشرات من على رف الملابس عند المدخل في طريقي إلى الخارج.

وجدتُ أبي يحفر في حديقة الزهور. كان البناؤون والبستانيون الذين استأجرهم قد أنجزوا عملاً جيداً بشكل مدهش. كان ثمة آثار صغيرة فقط من العشب الذي اختلّ ترتيبه، وبدَت حديقة الصخور تماماً مثلما كانت من قبل، باستثناء التموجات الساكنة من الرمال التي كانت قد أزيحت من مكانها.

كان بيت الشاي هو الذي تلقى أثقلَ الأضرار. احتاجت الأرضية إلى استبدالها بنوع مختلف من الخشب، وأصبح بالإمكان تمييز الفارق بين الألواح القديمة والجديدة. ومع ذلك، أصبح الكوخ الآن متماسكاً وقابلاً للاستخدام مرة أخرى. ذكَّرتُ أبي بأن النقص والتغيُّر ينتميان إلى فن الشاي، ويجب أن تُمنَح لهما نفس قيمة الكمال والثبات. نظر إليّ ورأيت الدهشة ترتسم على ملامحه.

Twitter: @ketab_n

"سوف تكونين معلم شاي أفضل مما أستطيع أن أكونه بعد الآن،" قال.

هبط من حديقة الصخور وأزال بمشط الأرض آثار خطاه. استراح الرملُ وسط الحجارة الخشنة مثل قاع بحر مهجور.

"دعينا نذهب،" قال. "ينتظرنا في الأمام يوم طويل."

مشينا إلى التل عبرَ الطريق نفسه الذي سلكناه في المرة الأولى، عندما أخذني أبي إلى الينبوع. وعلى جانب التل، تماماً قبل أن نصل حديقة الصخور، انعطفنا إلى اتجاه مختلف. بعد قليل توقف أبي وأشار بعيداً إلى أسفل المنحدر. كان الوادي مقسوماً بثلم طويل يشبه الخندق، تلبسته الحجارة والتراب التي استقرت في القاع. كانت جدرانه الحجرية مبقّعة بنباتات الأشنة.

"هل تعرفينَ ما ذاك؟" سأل.

كنت أعرف، بالطبع. لقد رأيت الكثير بما يكفي في السابق.

"قناة جدول جاف،" قلت. "لم يكن فيها ماء منذ عقود، لأن الكثير من الأشنة نمت على الصخور."

"إنك تقرأين المشهد جيداً،" قال أبي. "لكن هناك المزيد مما يجب أن تعرفيه. ربما كان يجب أن أخبرك عن الجوهر السري لعمل معلم الشاي في وقت أبكر بكثير. لكن التقاليد هي ألا يتم تمرير الحكمة من المعلم إلى التلميذ حتى اليوم الذي يصبح فيه التلميذ هو المعلم الجديد. عندما نصل الينبوع، ستعرفين ما أتحدث عنه."

استدرنا عائدين، وطلب مني أبي أن أريه ما إذا كنت أستطيع العثورُ على الطريق إلى فم الكهف في شكل رأس القط دون مساعدته. كان الطريق مألوفاً لي من طفولتي، ولذلك وجدته بسهولة. ومرة أخرى، بناء على طلب أبي، سعيت إلى الرافعة المختفية في مؤخرة الكهف، وفتحت الكوة في السقف وتسلقت قبله إلى النفق الذي يفضي إلى الينبوع. تبعني أبي وسلمني واحداً من الفانوسين، كان ضوءاهما يتوهجان في العتمة. وبينما نسير باتجاه هدير الينبوع، رأيت الرطوبة متركزة على جدران النفق.

وصلنا الكهف حيث ينبع الماء من الجدار المظلم في شرائح مشرقة إلى البركة

Twitter: @ketab_n

قبل أن يختفي ثانية داخل التل. وقفتُ عند حافة البركة. سار أبي إلى الجانب الآخر وخفض المصباح قريباً من الماء. رأيت على الحجارة تلك اللطخة الشاحبة التي تذكرتُ بشكل غامض أنني رأيتها في زيارتي الأولى. وعلى ارتفاع نحو نصف متر فوق سطح الماء الفائر، كان وتد خشبي سميك مغطى بطبقة بالية من الدهان الأبيض مدقوقاً في الصخرة. والتمع بخفوت في منتصف الضوء.

"هذا هو الجانب الذي يبقى غير مرئي لأي أحد آخر من عمل معلم الشاي،" قال أبي. "منذ الأزمنة القديمة، ظلّ معلمو الشاي حراس الماء. يقال إنه كان لكل معلم شاي في العالَم القديم ينبوع يعتني به في أرضه. كانت للينابيع خصائص مختلفة: واحدٌ ينتج ماء بقوى شافية؛ ماء آخرُ يهب طول العمر؛ وماء الينبوع الثالث يعطيك راحة البال. كانت هناك أيضاً مذاقات مختلفة للماء. كان الناس يأتون من أماكن بعيدة ليستمتعوا بشاي مصنوع من ماء ينبوع محترم. كان واجب معلم الشاي أن يهتم ببقاء الينبوع نظيفاً وغير مبالغ في استغلاله." كان وجه أبي مثل ورقة مقصوفة من الشمس، والتي تقاتلت ظلال الكهف وضوء المصباح فيها على مكان. "كما تعرفين، في العالم الحاضر جفت كل الينابيع تقريباً، والبقية استولى عليها الجيش. يمكن أن تكون هناك ينابيع سرية مثل هذا في مكان آخر، لكنني لا أعرفها. ويمكن أن يكون هذا هو الأخير."

استقر وزن كلماته وكل شيء مدفون فيها بيننا. جلبَ مصباحه مباشرة إلى سطح الينبوع وأشار إلى الماء. تحت السطح، قرب قاع البركة، رأيتُ وتداً آخر مطلياً بالأبيض، يكاد يغشيه الماء فلا يبين.

"أترين تلك العلامة؟" سأل أبي.

أطرقت مؤكدة.

"إذا غار سطح الماء أخفض من ذلك، فإنه يعني أيضاً أنه تم سحب الكثير من الماء. وسيحتاج الينبوع استراحة ليستجمع قوته. إنها مهمة معلم الشاي أن يحرص على ذلك."

"إلى متى؟" سألتُ.

Twitter: @ketab_n

"لعدة أشهر،" قال أبي. "كلما كان ذلك أطول، كان أفضل. لم يجرِ الضغط على الينبوع كثيراً في زمني، لكن ذلك حدث مرتين في زمن أبي. وفي المرتين تركَ الينبوع يستريح سنة تقريباً قبل أن يتعافى تماماً."

"ماذا عن العلامة الأخرى؟" وأشرت إلى الوتد في الصخرة فوق سطح الماء.

"إنها مُهمةٌ بالمقدار نفسه على أقل تقدير، وتتطلب مراقبة مستمرة،" قال أبي. "إذا ارتفع الماء إلى ذلك المستوى، يجب توجيه المزيد منه إلى أنبوب الماء أكثر من المعتاد، وبسرعة، لأنه يكون تحت خطر الارتفاع من تحت الأرض إلى القناة الجافة التي رأيناها في الخارج. لم يحدث ذلك في زمني، أيضاً، لكننا لو لم نكن نستخدم الماء من الينبوع كل شهر، فربما كان سيحدث."

"كم يستغرق ذلك؟"

"لا أعرف بالضبط. لكنني أعتقد أنه سيستغرق نحو شهرين."

فهمت الآن لماذا كنا نأتي إلى الينبوع كل تلك المرات المتكررة.

"تحتاجين إلى تعلُّم السيطرة على مستويات الماء واستخدام الأنبوب، يا نوريا. لن أسند المهمة إليك تماماً بعد، لأننا منذ هذا اليوم فصاعداً سنتقاسم مسؤولية معلم الشاي في هذه القرية. لكن الأمر كله سيُوضع بين يديك ذات يوم، ولذلك أعلِّمك إياه الآن."

خطا أبي بضع خطوات باتجاه جدار الكهف. وعندما رفع مصباحه، رأيت مقبضاً مُداراً ليشير إلى اليسار. أشار أبي إليّ لأقترب.

"هذا المقبض يتحكم بتدفق الماء إلى الأنبوب الذي نستخدمه في المنزل. إنه مغلق الآن، لأنه لا يزال لدينا بعض من حصة هذا الشهر من الماء، والماء في الينبوع ليس مرتفعاً فوق العادة. الآن حان وقت فتح الأنبوب، لأننا سنحتاج إلى ماء طبيعي من أجل حفل تخرجك، والشهر في منتصفه. افعلي أنتِ."

أمسكتُ بالمقبض وأدرته ليشير إلى اليمين. اضطرب الماء في البركة مثل حيوان قلق، ورغم أنني لم أرَ الكثير من الفرق في دواماته، بدا لي أن هديراً آخر مختلفاً قليلاً ظهر إلى جانب الهدير القديم.

Twitter: @ketab_n

"يجب أن يكون الماء من التل متدفقاً الآن إلى أنبوب المنزل إلى أن يتم إغلاق هذا الطرف مرة أخرى. عادة ما أغلقه بعد نحو أسبوعين، أنتظرُ أسبوعين أو ثلاثة ثم أفتحه ثانية. أهم شيء هو القدوم إلى هنا كل أسبوع لفحص مستوى الماء والسيطرة على استهلاك الماء تبعاً لذلك. الأسبوع القادم سيكون دورك."

ملأ أبي القربتين اللتين جلبهما معه مباشرة من الينبوع، وحزم كل منا قربة على ظهره.

"ماذا سيحدث لو أن الينبوع جف ولم يعد إلى طبيعته؟" إذا كف عن منح الماء تماماً؟" سألتُ عندما خرجنا من الكهف وأصبحنا نسير باتجاه البيت.

"سنعيش على ماء الحصة، مثل كل الآخرين،" أجاب أبي. "سوف يكون كافياً لنا. الحديقة ستعاني نوعاً ما، لكننا سنكون على ما يُرام."

سكت لوهلة. كانت الشمس قد زحفت إلى السماء، وقد أضعفها طقسُ الربيع، لكنها ما تزال حارة. أسدلت أكمامي حتى يبقى من يديّ للحشرات الأقل لتلسعه. كان أبي ينظر إلى الأفق ورأيت أنه يريد أن يقول لي شيئاً.

"كان معلمو الشاي في العالَم القديم يعرفون قصصاً شبه منسية،" قال بهدوء. "لكن هناك واحدة منها مسجلة في كل كتاب معلم شاي نحتفظ به في منزلنا. تقول القصة إن الماء له وعي، إنه يحمل في ذاكرته كل شيء حدث في أي وقت في هذا العالم، منذ زمن ما قبل الإنسان حتى هذه اللحظة التي تنقش نفسها في ذاكرته حتى وهو يمر. الماء يفهم حركات العالم، ويعرف متى يكون مطلوباً وأين ثمة حاجة إليه. أحياناً يجف ينبوع أو بئر بلا سبب، بلا تفسير. كما لو أن الماء يهرب من إرادته نفسها، منسحباً إلى غطاء الأرض ليبحث عن قناة أخرى. يعتقد معلمو الشاي أن هناك أوقاتاً لا يرغب فيها الماء بأن يُعثر عليه لأنه يعرف أنه سوف يُقيّد بطرق تذهب ضد طبيعته. ولذلك ربما يكون لجفاف نبع ما أسبابه الخاصة التي لا ينبغي أن تُقاوَم. ليس كل شيء في العالَم يعود للناس. الماء والشاي لا ينتميان إلى معلمي الشاي، لكن معلّمي الشاي ينتمون إلى الشاي والماء. إننا حراس الماء، لكننا أولاً

Twitter: @ketab_n

وقبل كل شيء خُدامه."

مشينا صامتَين. صلصل الحصى تحت قدميّ. ونهضت رائحة النيران المشتعلة من جهة القرية.

"تبدين سعيدة،" لاحظ والدي، عندما وصلنا البيت. "هذا جيد. اليوم هو الوقت المناسب لتكوني سعيدة." وابتسم لي. "يبدو أن أجير الخباز قد ترك كعك العيد عند الباب عندما كنا في الخارج. هلّا أحضرتِه إلى المطبخ، من فضلك."

أومأت برأسي ومشيت باتجاه البوابة، حيث كانت صناديق الكعك مكومة بعضها فوق بعض. وعندما استدرت لأنظر، رأيت أبي وقد توقف وانحنى. كان في وضعيته شيء متصلب ومؤلم، لكن اليوم كان مشرقاً، وكان ذهني في مكان آخر، شممت رائحة الكعك الطازج في الهواء. لم أنظر تجاهه مرتين.

Twitter: @ketab_n

الفصل الثامن

للذاكرة شكل لها وحدها، وهو لا يكون دائماً شكل الحياة. عندما أعود بالتفكير إلى الوراء الآن، أنظر في ذلك اليوم بحثاً عن النذُر والإشارات إلى ما سيأتي، وأعتقد أحياناً أنني أراها. إنها راحة غريبة وجوفاء، واحدة لا يمكن لها أن تحملني طويلاً أبداً. اعتاد العرافون في العالم الماضي أن يقرأوا المستقبل في أوراق الشاي. لكنها مجرد أوراق شاي فقط، بقايا قاتمة لأشياء عبرت، لا تكشف عن أي نمط سوى نمطها الخاص. ومع ذلك، تنزلق الذاكرة وتزل وتتحطم، ولا ينبغي الوثوق أبداً بأنماطها.

أتذكر وقوفي في غرفتي، وشعري ما يزال ينقط رطباً بعد الاستحمام، والماء يتقاطر إلى صدري وبين أضلاع ظهري في نهيرات نحيلة. زيّ تخرجي، الذي سأرتديه في احتفالات الشاي القادمة حتى تتمزق وصلاته، يستلقي ممّدداً على السرير، خاوياً مثل جِلدٍ لم يُلبَس بعد، أو ربما طُرِحَ مُسبقاً، منتظراً أن يُملأ بالمعنى والحركة، أو أن يُدفن بخلاف ذلك. كانت الحافة الجارحة في هذه الذكرى هي إشعاع اليوم على الجانب الآخر من النافذة: جوهر مشع من النار التي تمور بوفرة الضوء، أكثر إشراقاً من اليوم السابق أو اللاحق، كما لو أن السماء تنفجر إلى لهب كامل قبل أن يمازجها هبوط الليل، قبل أن يتغير عالَمي.

Twitter: @ketab_n

أعلم أن ذلك غير ممكن. لقد رأيت أياماً مشرقة من قبل ومن بعد، والإشراق الذي أتذكره غير عادي، ممتزج بالحدّة الجارحة. لكن ذلك اليوم من حياتي اتخذ شكل الذاكرة، وهو الشكل الوحيد الذي أستطيع أن أستحضرها به الآن. لم يعد شكلها الحقيقي، الذي لا يتغير، في متناول يدي.

أتذكر ارتدائي زي معلم الشاي. شعرتُ به جديداً ومتصلباً من حولي.

أتذكر ربط شعري إلى الخلف بإبرة كبيرة. كان شعري ثقيلاً وقد علقت الرطوبة بين خصلاته الطويلة.

لا أتذكر سيري إلى بيت الشاي، لكنني لا بد من أن أكون قد فعلت. لم يكن هناك مكان آخر يمكن أن أكون قد ذهبت إليه.

كان ثمة شيء ما يضايق أبي. عرفت ذلك بمجرد أن زحف إلى داخل بيت الشاي عبر مدخل الضيوف ونظر حواليه. اعتقدت أنني ارتكبت خطأ ما لم أميزه، لكن الاحتفال بدأ مسبقاً ولم يعد بالوسع مقاطعته. المعلم نيرامو، الذي دُعي من كوسامو، اتخذ مكانه على حشية بجانب الجدار الخلفي وخلع قلنسوة الحشرات. لم يكن لي خيار سوى انتظار أن يجلس أبي بجواره ويواصل.

كان نيرامو قد دُعي لغايات البروتوكول. عادة ما يكون هناك دائماً اثنان من معلمي الشاي حاضرَين في حفل التخريج، معلم التلميذ المتخرج ومعلم آخر، خارجي. كان نيرامو يؤدي مراسم الشاي في كوسامو وعلى وفاق مع النظام العسكري المحلي. لم يكن أبي يقدره كثيراً، لكنه كان من الصعب جعل معلمي الشاي يغادرون المدن خلال احتفالات عيد القمر التي كانت تقليدياً وقتاً للطقوس، وكان من السهل إلى حد ما إقناع نيرامو بالقدوم ببعض المساعدة من بولين.

سقط ضوء مائل من كوة فوق الموقد، ملقياً ظلاً حاداً على وجه أبي. تنفستُ لأشم دخان الخشب والماء. رأيت الوصلة حيث تمس ركبتا أبي الأرض: بجوار لوح صنوبر، معتم، مهترئ قليلاً، هناك لوح جديد أكثر شحوباً، لم يخدشه الزمن ويمزقه بعد. كنت أعي نظرات نيرامو وأبي إليّ. لما يكونا هنا ضيفَين عليّ، وإنما حكمَين.

Twitter: @ketab_n

كان نيرامو قد بدا مندهشاً عندما رآني أول الأمر، وأصبح يحدق بي الآن بتعبير استطعت أن أفسره بأنه رفض لطيف.

بدت حركاتي مقدودة من حجر عندما بدأت أحضر «الشاي الأول.»

نظرتُ إلى معدات الشاي التي كنت قد اخترتها لهذه المناسبة: أكواب خزفية بسيطة بالية، وأطباق مشققة بلا أي زينة على الإطلاق. كانت من بين الأقدم في بيت معلم الشاي، وتذكرة أخرى بالعالَم القديم؛ ربما كان أسلافنا يستخدمونها في منزلهم البعيد، قبل وقت طويل من بدء البحر باحتلال الجزر والشواطئ. أعطاني لونها المكتوم الشبيه بورق الأشجار المتحول إلى تراب بعض الراحة، واصطادني في شبكة شيء أقدم وأقوى مني بكثير. كنت أقف على طريق تواصَلَ ممتداً عبر القرون دون أن يتغير، لكنه مُدوزَن على التحولات في نسيج الحياة، ثابتٌ مثل النفَس أو دقّات القلب.

سرت أصداء معلمي الشاي التي كانت قد جاءت مسبقاً في داخلي بينما أَعُدُّ الفقاعات في قاع المرجل وأصب الماء في الأباريق والأكواب. فكرت ببصمتهم على ذاكرة العالم: دفق حركاتهم التي عكستها بمرآتي، كلماتهم التي اقتبستها بينما أتكلم، الماء الذي سرى خلال الأرض والهواء وهم يسيرون على الحجارة وسيقان العشب، نفس الماء الذي دفع بالرمال إلى شاطئ البحر وما يزال يرقش السماء. لقد انطوت أمواجهم عبر الزمن والذاكرة، منداحة مثل الدوائر على سطح بركة، مرددة النمط نفسه إلى الأبد. هذا الشعور الغريب حملني وقيدني في آن.

ركعت أمام المعلم نيرامو بصينيتي. وعندما مد يداً لالتقاط الكوب، انبعث عبق قوي لراحة معطرة، مختلطاً بالعرق. كانت بشرته مصونة بعناية. كانت بدلته بسيطة، لكنني ميزت القماش كنوع ثمين، والأزرار كعمل معدني قيِّم لم أكن قد رأيت مثله كثيراً. كان له لحم زائد فوق عظامه بوضوح. أحنيت رأسي وقدمت الكوب التالي لأبي.

مسحَت عيناي الزاوية الفارغة حيث كان يجب أن تجلس أمي لو أنها هنا.

Twitter: @ketab_n

كانت قد أرسلت رسالة صوتية في وقت أبكر تتمنى لي فيها الحظ وتقول إن قطارها سيمر بخليج الأورال قريباً. حاولت أن أتخيل المشهد الذي كانت تعبره، وبدا الأمر لوهلة كما لو أنني استطعت أن أحس بالرائحة المترية المنبعثة من المقاعد المنجدة في مقصورة القطار، وأن أسمع خطوات الأطفال وهم يركضون في الدهليز الضيق وأشعر بالحركة المستمرة للأرضية من تحتي. لكنني عندما حاولت أن أرى الخارج، بدا لون المدى مشوشاً وأشكال الأفق تندغم مضبّبة في سماء غريبة. بقي المشهد غير مستكشَف، واتخذ الفراغ في الغرفة شكل أمي، مقيماً وثابتاً مثل ظِلّ.

كان حفل التخرج أطول من الاحتفال القياسي. بالإضافة إلى الشاي والحلويات، تضمن أيضاً تقديم وجبة خفيفة، ويمكن أن يدوم لعدة ساعات. دارتْ محادثة خفيفة. استقرّت على إيقاع غريب غير متعجل من النوع الذي يجب أن يستقر عليه الغرقى عندما يستوعِبُ البحر ثقلَ أطرافهم.

تخيلت الغرفة ملفوفة بغلالة ناعمة من الماء الذي أبطأ كل الحركات وكتم كل الأصوات، وغسلني وجعلني نظيفة من الداخل والخارج، وجعل كل شيء يتلاشى ويتداعى.

وجه أبي مصنوع من الخشب المنقوع بالماء. وشكل نيرامو من الحجر المنحل إلى تراب. وجسدي عود عشبة بحرية يتقلب في الأمواج ويتنقل جيئة وذهاباً. كل هذا كان خارج المتناول، شيئاً لم أستطع إيقافه أو تثبيته، حتى لو حاولت.

تركت كل شيء ينجرف بعيداً.

ببطء، مثلما يجمع القمر موجات المد ويفرّقها، استرخت عضلاتي، وانسحب الضيق من وجهي وتدفقت أنفاسي أكثر حرية. كان التوتر لا يزال هناك، لكنه أصبح الآن نائياً، لم يعُد درعاً يشد على جِلدي، يثقلني ويحبسني.

جاشت الغرفة بالحرارة التي تشع من الموقد والبخار المتصاعد من المرجل. كان الهواء راكداً تماماً. كان مفرق شعري رطباً وشعرت بقماش زي التخرج يلتصق بإبطيّ وفخذيّ. التمع العرق مثل الخرز على جبين نيرامو. كان وجه أبي متورداً. كنت قد تركت النافذة الصغيرة في جدار المدخل مفتوحة قبل بدء الاحتفال، لكن

Twitter: @ketab_n

الهواء النقي في الخارج بدا وأنه قد جمع نفسه في كتلة عند الفتحة، غير عارف كيف ينسرب داخلاً. نهضت عن حشيتي وفتحت قليلاً نافذة أكبر في الجدار المقابل. ومع أن اليوم كان هادئاً، تبدد الجفاف مباشرة وشرع الهواء في الهبوب عبر الغرفة مرة أخرى.

وضع نيرامو كوبه ونظر إليّ.

«آنسة كيشيو، هل أنت متأكدة من أن هناك حاجة لفتح النافذتين؟»

من زاوية عيني رأيت أبي يتململ بقلق.

«الوضع أفضل بكثير في الغرفة مع بعض الهواء النقي. ألا تظن ذلك؟» أجبت.

«نوريا، المعلم نيرامو أعرب عن رغبته في إغلاق النافذة،» قال أبي. وتحول الظل الذي يعبر وجهه قليلاً. سقط الآن على رقبته العارية.

حدَّق نيرامو بي، ولم أكن متأكدة مما إذا كان يجب أن أفسر تعبيره على أنه ابتسامة.

«تستطيع الآنسة كيشيو أن تفعل ما تراه الأفضل،» قال.

تركت النافذة مفتوحة، وانحنيت لنيرامو واتخذت مكاني بجوار الموقد مرة أخرى. لم يقل نيرامو المزيد، لكنني أصبحت متأكدة الآن من الابتسامة: من النوع الذي يبتسمه تاجر غني عندما يمسك بصبيٍّ ساعٍ يسرق البضائع. لم يذهب المزاج السيء عن وجه أبي خلال تناول الطعام، وبدا لي أنه يختلس نظرات سرية إلى المعلم نيرامو.

انتظرت حتى أنهيا الطعام ورُفعت الأطباق. أخذتها إلى غرفة الماء، أزلت قماشة كتانية من فوق وعاء الحلوى وجلبته إلى الغرفة الرئيسية. قدمت جولة أخرى من الشاي لهما بعد.

لم يعد هناك المزيد من الماء في المرجل.

عرفت أن الوقت حان للتقييم.

«نوريا كيشيو،» قال نيرامو وانحنى. «خذي مكانكِ، من فضلِك.»

انحنيت له في المقابل، ومشيت إلى غرفة الماء وسحبتُ الباب المنزلق ورائي.

لم تكن لتلك الغرفة نوافذ. كانت تستخدم لتخزين الماء، والصواني، والمغارف

Twitter: @ketab_n

والمراجل وأباريق الشاي. ولو أنني مددت يدي في أي اتجاه، فإنها ستقابل الجدار، أو واحدة من أواني الشاي. كانت شعاعات رفيعة من الضوء تؤطّر الباب المنزلق ومدخل معلم الشاي في الجدار المقابل. وفي الداخل يتدلى مصباح يراعات من السقف، حيث ترفرف يراعات الضوء بفتور وتصطدم بحدود سجنها الزجاجي. حامت الظلال على الجدران، منفتحة ومنضمة مثل شِباك عائمة، تنكمش وتعود فتنفرش مرة أخرى. سمعت نيرامو وأبي يتحدثان بصوت خفيض.

فكرت بأمي مرة أخرى، برحلتها التي كان يمكن أن تكون رحلتي أيضاً: حياة أخرى أكون قد دفنت فيها زي معلم الشاي بدل أن أقبله ليكون بمثابة جِلدي الثاني. مشرقةً مثل انعكاس في مرآة صافية، رأيت نفسي، أسير وأتعلم رائحة الشوارع وانحناءاتها غير المألوفة بين بنايات مدينة غريبة، كما يتعلم المرء لغة جديدة. وفيما وراء ذلك، مشهد خاص بي، لي وحدي لأكتشفه وأجعله بيتي.

سمعتُ صوت بعض المشي المتثاقل قادماً من غرفة الشاي، ثم صوت خطوات على الشرفة في الخارج، ثم ضجة خفيفة بينما ينغلق باب مدخل الزوار المنزلق. خمّنتُ أن نيرامو، أو أبي أو كليهما ذهب ليحضر شيئاً من الشرفة.

انسحبت المدينة والمشهد بعيداً. ظل الظلام وحده في قاع المرآة، ولا حياة أخرى سوى هذه.

صدرت رنة جرس خفيفة من غرفة الشاي. حان الوقت لأدخل هناك مرة أخرى. أزحت الشعر عن وجهي وفتحت الباب المنزلق. كنت على حق: كان أحدهما على الأقل قد خرج إلى الشرفة. كان نيرامو يحمل لفيفة، وكان مع أبي مجلد سميك بين يديه.

«نوريا كيشيو،» قال نيرامو.

انحنيت.

«باعتباري معلِّم الشاي المقيّم، يجب أن أشير إلى الأخطاء التي ارتكبتِها وأنتِ تؤدّين الطقس.» صمَتَ، وانتظرتُ. انسحبت غلالة الماء الملطِّفة من الغرفة، وبقيت

Twitter: @ketab_n

صحراء جافة حجرية فقط، وجو من الهواء المشتعل حتى أنني تنفستُ بصعوبة. «من الواضح أنك تعرفين آداب الحفل جيداً،» واصل نيرامو. «لكن من الواضح بالمقدار نفسه أنك تغيّرينها عمداً وفقاً لإرادتك الخاصة، حيث التغيير ليس مستحسناً.» نظر إلى أبي وابتسم ابتسامة التاجر الغني.

«أفترض أنكِ تعرفين قاعدة أن واحدة فقط من نوافذ بيت الشاي يجب أن تكون مفتوحة دائماً خلال مراسم الشاي؟»

«نعم، معلم نيرامو، أعرف القاعدة.»

«هل تمانعين بإخبارنا لماذا وُضِعتْ هذه القاعدة؟»

اقتبست بالضبط ما تمّ تدريسه لي.

«حتى يستطيع الضيوف الاستمتاع بعبق الشاي ورطوبة الهواء التي يصنعها الماء. الجفاف في بيت الشاي يطرد العبير والرطوبة."

"يتنابني الفضول لأسمع السبب في أنكِ سمحتِ لنفسِك بخرق هذه القاعدة."

انحنيت ثانية، ولو أنني شعرت بالضيق من اضطراري للإجابة عن مثل هذا السؤال الغبيّ.

"لأسباب خاصة، يا معلم. كانت الحرارة في بيت الشاي خانقة. وكمضيفة، فكرت بجلب بعض الراحة لضيوفي."

حدّق نيرامو فيّ مدققاً. لم أشح ببصري.

"أياً يكن سببك، فإنه يظل مخالفاً للشكل، وبذلك، غلطة،" قال.

أجبرت نفسي على البقاء صامتة. وواصل نيرامو، "غلطة أخرى، وأنا واثق من أن والدك يوافقني عليها، كانت اختيارك لأدوات الشاي."

فكرت بأكواب الشاي والأطباق، بسطوحها التي شققها التغيير والزمن، بأشكالها الثابتة تحت يديّ، وهي تصلني بالعالَم الماضي البعيد.

"هل تعتبرها غلطة؟" سألتُ.

التوَت ابتسامة نيرامو وغارت أعمق في وجهه الناعم السمين. فكرتُ ببرقة طويلة تحفر في قطعة فاكهة متعفنة.

Twitter: @ketab_n

"يجب أن تدركي أن معلم الشاي الذي يُحضِّر لمثل هذه المناسبة يجب أن يختار أكثر معدات الشاي المتوافرة قيمة. إنها تجسد احتراماً للضيوف وإدراكًا للطبيعة المميزة لمهنة معلم الشاي. أنا أعرف،" وعند هذه النقطة ألقى بنظرة إلى أبي، "لوالدك حظوة عن الرائد بولين، وأستطيع أن أرى من منزلكم وحديقتكم أن لديكم بعض الثروة. أنا واثق من أن لديكم أوعية شاي أفضل، وكان بوسعكم حتماً أن توصوا بصناعة طقم كامل للمناسبة. ذلك كان سيكون أكثر حكمة."

"ولكن معلِّم نيرامو —" ارتفع حاجبا نيرامو أكثر على جبهته المتعرّقة عندما تكلمتُ بلا إذن. بدا أبي مرتعباً. قاطعت نفسي وانحنيت لأطلب الإذن بالكلام، كما يقتضي التراتُب بين المعلم والتلميذ. أطرق نيرامو موافقاً.

"معلم نيرامو، إن الاحتفال لا يدور حول عرض المرء ثروته، وإنما حول اعتناق التغيير والقبول بالطبيعة العابرة للعالَم من حولنا. كنتُ أقصد تشريفَ ذلك المعنى."

لم تختفِ ابتسامة نيرامو. انحدرَت قطرة عرق على خده باتجاه ياقته المصنوعة بعناية.

"هل تقولين لي، يا فتاة، ما هو الهدف من حفل الشاي؟"

تجمَّع الغضب في حلقي مثل غبار محترق.

"كان ينبغي أن تعرف دون أن يُقال لك،" قلتُ قبل أن أستطيع إيقاف نفسي.

"نوريا،" قال أبي.

شرع نيرامو في إطلاق ضحكة خفيضة متجمعة ببطء. سقطت قطرة العرق من خده المهتز إلى ياقة سترته وامتصَّها القماش.

"إنك تروقين لي، آنسة كيشيو،" قال. "لديك الكثير لتتعلميه، عن المراسم والعالم. سوف أدع الزمن والخبرة يعتنيان بذلك. بعد ثلاثين سنة ستجدين نفسك وأنت تقيمين بنفسك أداء تخرج معلم شاي شاب آخر، وعندما يقول لك أن الحفل لا يتعلق بعرض ثروة المرء، فإنك ستضحكين أيضاً."

أبداً، ليس في هذه الحياة، وليس في عشرة آلاف حياة أخرى.

تلاشت ضحكة المعلم نيرامو ببطء. ونظر إليّ.

Twitter: @ketab_n

"ثم، هناك بالطبع، الحقيقة المؤسفة المتعلقة بجنسك،" قال. "كان أبوك ليتصرف بحكمة لو أنه أخبرني بذلك مسبقاً. أود أن أعرف لماذا تعتقدين أن امرأة يمكن أن تمارس مهنة معلم الشاي بنجاح."

فهمتُ الآن لماذا بدا نيرامو بالغ الاندهاش عندما رآني أول الأمر. هل تعمّد الرائد بولين إهمال ذكر أنني لم أكن رجلاً عندما تحدث مع نيرامو بهذا الخصوص؟ نظرت إلى أبي، لكنه لم يستطع أن يساعدني. كانت تلك معركة ترتب علي أن أخوضها وحدي.

"معلم نيرامو، هل لي أن أسألك بالمقابل لماذا تعتقد أن المرأة غير مناسبة لتكون معلم شاي؟" سألتُ.

"ذلك مكتوب في الكتب المقدسة القديمة،" أجاب نيرامو. "كتب لي سونغ، 'لن تخطو امرأة على طريق معلمي الشاي، إلا إذا كانت مستعدة لهجران حياتها كامرأة."

لم أعتقد أن هذا الاقتباس يمنع حق المرأة في أن تكون معلم شاي بأي طريقة، لكنني بدلاً من مناقشة الصيغة قلت، "أعتقد أنه من الممكن تغيير سطح الأشياء بينما نبقي جوهرها متماسكاً على حاله، تماماً كما يمكن الاحتفاظ بمظهر السطح بينما ننحت النواة ونجعل الشيء أجوف."

صمت نيرامو. تساءلتُ عما إذا كنت قد ذهبت شأواً أبعد من اللازم. كانت الغرفة صامتة. وفي الخارج، دقّ جرس الريح مرة، مرتين، ثلاث مرات.

وأخيراً، تكلّم.

"أريدك أن تفهمي هذا. لو أنك كنتِ مرشحة في واحدة من المدن، لكنتُ قد طلبت منك إعادة الاختبار. ومع ذلك، أعرف أنه لا يمكن توقُّع السويّة نفسها في تلك المناطق ذات الماء الراكد و، وبالطبع، ليس من تلميذة أنثى. لقد تعلمتِ مهنتك من أبيك فقط، ولم تتهيّأ لك الفرصة أبداً لتألفي عادات معلمي شاي آخرين ومعرفتهم. لا أرى مانعاً من منحك لقب معلم شاي بدءاً من حفل اليوم، حتى مع أن أداءك لم يكن ليحقق المعايير تحت ظروف أخرى، أو لو أنه حكم عليه

Twitter: @ketab_n

معلم أقل إحساناً.

"مع ذلك، سأنصحُكِ بأن تكوني أكثر يقظة بخصوص آداب المراسم في المستقبل، خاصة إذا استقبلتِ ضيوفاً من المدن أو الجيش."

أردتُ أن أقول شيئاً، لكنني رأيت تعبير والدي الذي أصبح الآن أقرب إلى الحياد منه إلى الضيق، وبقيت صامتة.

"هل أنتِ مستعدة؟" سأل المعلم نيرامو.

انحنيتُ.

"نوريا كيشيو،" قرأ نيرامو من اللفيفة. "اليوم، في اليوم الخامس عشر من الشهر الثامن، من سنة سمك كوي بتقويم زمن تشيان الجديدة، مُنح لك لقب معلم شاي ممارِس." أعطى نيرامو اللفيفة لي. تحت النص كان توقيعه وتوقيع أبي. تحرك المعلم نيرامو إلى جانب، ومشى أبي إليّ. قبلتُ المجلد المغلف بالجلد الذي أعطاه لي وتلوتُ القَسَم الذي كنتُ أحفظه عن ظهر قلب.

"أنا حارس الماء. أنا خادم الشاي. أنا راعي التغيير. لن أقيّد ما ينمو. لن أتمسّك بما ينبغي أن ينهار. طريق الشاي هو طريقي."

انحنيت كثيراً، وأحنى أبي رأسه. وعندما رفعت رأسي، رأيتُ عينيه تخضلّان. فتح فمه ليتحدَّث، لكن الصوت علق في حنجرته.

"كدتُ أنسى،" قاطع نيرامو الصمت. "القائد تارو أرسل إليكم تهانيه. كان على حق: إن لمائكم نكهة طيبة غير عادية."

"كان يجب أن أحذرك بشأن أوعية الشاي مسبقاً،" قال لي أبي في المطبخ بينما كنا نلفّ اثنين من الأكواب التي استخدمناها في الحفل بالقماش كهدية للمعلم نيرامو، كما كانت العادة. "عرفت أنه سيكون من الصعب إرضاؤه في هذا الموضوع. لم أوافق على الطريقة التي تحدث بها إليك، لكننا لا نحتاج إلى رؤيته أبداً مرة أخرى." كان لدي شعور بأنه سيؤنّبي على سلوكي، لكنني قررت أن فكرتي لم تكن فكرة سديدة.

"هل أنت قادم إلى عيد القمر؟" سألته.

Twitter: @ketab_n

هزَّ أبي رأسه إلى الجانبين.

"رأيت كل ذلك ما يكفي من المرات. النومُ يبدو مغرياً لي أكثر من العيد."

قبل مغادرة البيت، أخذت اللفيفة وكتاب معلم الشاي الفارغ إلى غرفتي ووضعتهما على السرير. اختلستُ نظرة إلى نفسي في المرآة. كان وجهي ما يزال أحمر من الاحتفال، وقد استقرت على غلالة زيي بقع رطبة غامقة عند الإبطين. استبدلته بثياب نظيفة ومدَّدتُ الزي على السرير بجوار الكتاب. وبينما كنت أستدير لأضع كتابي على مكتبي، رأيت حزمة بيضاء رقيقة بدت شاحبة مثل القمر فوق السطح الخشبي القاتم، وميزت خط يد أمي في الحروف التي تهجئ اسمي عليه. لا بد من أن يكون أبي قد جلبها إلى غرفتي قبل الحفل.

كان المغلف كبيراً: ليس حقيبة بريد متصلبة من عشب البحر المضفور، وإنما من الورق الحقيقي. في الداخل وجدتُ شالاً كبيراً رقيقاً من الصوف الناعم. عرفت أن أمي لم تكن لتحده في قريتنا، وربما ليس حتى في الاتحاد الإسكندنافي. كان من الصعب العثور أي شيء هنا سوى أخشن أنواع الصوف. لا بد من أن تكون قد أوصت على الشال من مدن بعيدة. بحثتُ عن رسالة، والتقطَت يدي قصاصة صغيرة بيضاء من الورق داخل المغلف. سحبتُ الورقة ووجدتُ مكتوباً عليها:

إلى نوريا، معلم الشاي الجديد، من أمك الفخورة. كوني سعيدة اليوم!

قرّبت الشال من وجهي. توقّعت أن تكون فيه رائحة صابون شعرها وزيتِه المعطر، لكنه حمل فقط رائحة خفيفة للصوف والورق. ليس هناك أي أثرٍ لها.

لففت الشال حولي على أي حال.

رتبتُ زي معلم الشاي على علاقة وعلقته من سارية الستارة. عندئذ فقط ألقيت نظرة إلى خارج النافذة ورأيت نيرامو واقفاً في الخارج على العشب، منتظراً وصول عربته. كان وجهه متعباً وعيناه مغلقتين، وقد وضع منديلاً على جبينه ليجفف به العرق. كان كتفاه منسدلين، كما لو أن تعباً هائلاً كان مختبئاً مسبقاً حطَّ عليهما.

وضعتُ قربة ماء صغيرة في حقيبتي وألقيت بالحقيبة على كتفي. ثم التقطت

Twitter: @ketab_n

فانوس يراعات وصندوقاً من كعك العيد من على مكتبي وغادرتُ.

عندما وصلتُ بيت عائلتها، وجدتُ سانيا تنتظرني مسبقاً، جالسة في الخارج في كرسي هزاز كان قد شهد أياماً أفضل في السابق. كانت مينيا تُطرِق ناعسة بين ذراعيها، وهي تمص قطعة قماش مملوءة بالبذور. نهضَت سانيا عندما رأتني واستيقظَت مينيا.

"كيف كان الأمر؟" سألَتْ.

"لديكِ دعوةٌ دائمة لحضور احتفالات شايي،" قلت.

"مبروك!" قالت وابتسمت. "لكنني سأتجاوز هذا، مع ذلك. لم يسبق لي أن ذهبت إلى واحد من هذه الأشياء ولا أعرف ماذا أفعل فيها." عانقتني سانيا، حاملةً مينيا بيد واحدة. وعلُقت الصغيرة بيننا وشرعت في الاحتجاج بصوت عالٍ. "انتظري، سأعود بعد دقيقة واحدة."

اختفت سانيا داخل البيت، وبعد لحظة عادت، حاملة سلة مغطاة بقطعة قماش. كانت قد تركت مينيا في الداخل، ربما مع أمها.

"هذا لكِ،" قالت.

أخذتُ السلة ورفعتُ القماشة. تحتها كان صندوق من الواضح أن سانيا صنعته بنفسها. ليس للمرة الأولى. كنت قد أعجبت دائماً بمهارتها في عمل أشياء ما كنت لأستطيع عملها أبداً. كنت أعرف كيف ألقي النصوص وأؤدي الحركات وأحني رأسي أمام الضيوف، لكنها كانت تعرف كيف تفكك الأشياء بيديها وتركّبها ثانيةً بطريقة أخرى، وتعيد تشكيلها حتى يظهر منها شيء جديد مدهش. كانت قد شكلت صندوقاً مستطيلاً متعدد الألوان من قطع خردة المعدن والبلاستيك والخشب، بسطح غير مستوٍ حيث كانت أنماط تشبه الكرمة تتسلق الجوانب والغطاء، منضفرة ومتلولبة لتذهب بعيداً عن مرمى البصر.

"هل أعجبكِ،" سألَتْ، وبدا وجهها أقل شحوباً من المعتاد. كان من الغريب رؤيتها خجلة على هذا النحو غير المعهود. "إنه للشاي."

Twitter: @ketab_n

"إنه رائع،" قلت. "شكراً لك!" عانقتُها، ودفعتُ بالصندوق في حقيبتي وأعدتُ إليها السلة. "هل نذهب؟"

أطرقت سانيا موافقة. شرعنا في المسير باتجاه ساحة القرية المركزية. تلألأتْ بضعُ نجمات بصفاء الزجاج فوقنا، وأشعَّ القمر المكتمل شاحباً وحاد الحواف بينما يشق طريقه أعلى عبر زرقة المساء التي تزداد كثافة.

"انظري!" قالت سانيا وأشارت إلى السماء.

في البداية، لم أعرف عمَّا أبحث، لكنني عندئذ رأيته. بعيداً عن ضوء القمر اللامع، مسحَت ومضة سرب من أسماك النور خطوط المنحدرات المعتمة. تموَّجت ببطء مثل قطعة قماش في ماء شبه راكد.

"إنها البداية فقط،" قالت سانيا.

طافت أصوات عيد القمر وروائحه من حولنا بينما نسير عبر القرية. كانت الحدائق الخلفية للمنازل التي مررنا بها مزينة بمصابيح اليراعات الملونة، وألقت حشرجات الألعاب النارية المتعاقبة شرارات فوق السطوح. عبقت في الهواء روائح السمك المقلي والخضار وكعك العيد. كان الناس يحملون وجبات الحصاد والمشروبات إلى الموائد، ومن على بُعد بضع ياردات سمعنا انبعاث موسيقا وأصوات صاخبة.

من مسافة بعيدة، رأيت موكب عيد القمر الاستعراضي وهو يشق طريقه حول ساحة القرية. كان تنين البحر المصنوع من خردة البلاستيك والقصب المضفور ونفايات الخشب الملمَّع بالفضة البيضاء، يسبح في إيقاع الطبول والغناء، بينما يرفعه الراقصون في الهواء. ثمة مجموعة من الأطفال في أزياء على شكل الأسماك وكائنات بحرية أخرى كانوا يتبعون حركات التنين، في سرب تلتمع هياكل أزيائه المصنوعة من خردة البلاستيك على خلفية الظلام الهابط. ناجزتُ فكرة أنهم هم الذين صنعوا الألعاب السماوية التي كنا قد شاهدناها، مثلما يحدث في القصص حيث ينبثُّ انعكاس أسماك النُور المضيئة السابحة مع تنانين البحر على صفحة السماء. في

Twitter: @ketab_n

وسط الساحة كان قمر مكتمل كبير من الخشب المدهون مثبتاً على منصة مرتفعة فوق المشهد كله. وعندما أصبحنا أقرب، رأيت عيون التنين تتوهج بضوء أصفر. استغرقني الأمر بعض الوقت لأدرك أنه لا بد من أن يكون هناك فانوس يراعات داخل رأسه. وفي الضباب، كان هيكل التنين الشاحب الناحل مثل شبح عابر، يطفو مكتوم الصوت وأُخرَوِيّاً فوق كل الأصوات والحركات.

بدأتُ أشعر بالاستمتاع. أحسستُ بعيد القمر يجذبني. كانت سانيا تجرني خلال الحشد باتجاه بسطة طعام. اشترينا اللوز المحمص ووجبات خفيفة من أعشاب البحر المجففة. رأيت سانيا تتململ وتنقل وزنها من قدم إلى أخرى وأنا أدفع ثمن الطعام. استطعت أن أخمن أين تريد أن تذهب تالياً.

"دعينا نجرب تلك،" قالت لي وأشارت إلى بسطة أخرى قرب مدخل زقاق يفضي إلى خارج الساحة. وبينما كنا نشق طريقنا عبر الحشد، مررنا بمجموعة من القرويين يتحدثون بأصوات جادة. كان أحدهم يستمع إلى جهاز رسائل.

"لا بد من أن يكون ذلك ملفَّقاً،" سمعتُ أحداً يقول. "لم نسمع أي شيء عنه في الأخبار."

"أنتَ تعرف كيف هي الأخبار،" قال آخر، "لن أخرجها عن الوحدويين. يقول نسيبي إنه يعرف بعضهم، و-"

"ابن عمي رآها، هذا ما يقوله،" قال رجل يحمل جهاز رسائل. "كان مصيباً في ذلك، وهو يقول إنها فوضى كاملة."

كانت تلك محادثة سأتذكرها لاحقاً، لكن أشياء أخرى احتلت ذهني في ذلك الوقت.

كانت سانيا محقة: وجدنا في البسطة صورة صغيرة لحورية زرقاء مطبوعة على زاوية مظلة قماشية. كان الجميع يعرفون ما ترمز إليه، ولأن ذلك لم يكن قانونياً بصرامة، رفض معظم التجار الذين يحترمون أنفسهم بيعها.

"نريد أربع كعكات من اللوتس الأزرق، من فضلك،" قالت سانيا للبائعة، وهي امرأة مسنة ذات وحمات بنية كبيرة على وجهها.

Twitter: @ketab_n

"ألستِ صغيرة قليلاً على ذلك؟" قالت المرأة، لكن سانيا أعطتها النقود ولم تقل المرأة المزيد، وإنما أسقطت الكعكات فقط في الكيس القماشي الذي أعطته لها سانيا.

نظرتُ إلى السماء، كبُر الشفق الأحمر؛ كان ينتشر مثل الغلالة الرقيقة على صفحة السماء الليلية.

"إلى القمة،" قالت سانيا. "هناك المشهد أفضل."

كانت "القمة" منحدراً حاداً بعيداً عن جانب التل بالقرب من مقبرة البلاستيك. وكان درج ضيق يصعد إلى هناك من حافة القرية. سوف يكون ذلك أفضل مكان لرؤية أسماك النُّور، إلا إذا أردنا المشي عائدتين إلى بيت معلم الشاي، ومن هناك إلى التل.

عندما وصلنا إلى "القمة"، رأينا أننا لم نكن قد فكرنا وحدنا بالمكان. كان نحو عشرين شخصاً آخرين يجلسون هناك في مجموعات صغيرة أو أزواج منفصلة. عرفنا بعضهم من مدرسة القرية وتوقفنا للتحية، لكن سانيا همسَت: "لنتسلق أعلى قليلاً، لا بد من أن نجد مكاناً أقل ازدحاماً هناك!"

بعد قليل وجدنا مُستقراً سلِساً على صخرة حيث استطعنا رؤية السماء بوضوح. فردت سانيا شالها المهترئ على الأرض. وضعنا مصابيحنا عليه ورتبنا وجبة رحلات من اللوز والكعك فوقه. امتدّت أنوار السمك فوقنا على كل المسافة عبر السماء، مرتعشة، هادئة حيناً وصاعدة مرة أخرى في الطبقات العالية مثل موجات البحر.

لم نتكلم كثيراً، ومع ذلك لم يكن الصمت المنسوج بيننا منفصلاً أو فارغاً، وإنما صمت متواصل أحسستُ معه بالدَّعَة. كانت سانيا تعبث بشريط من الأعشاب البحرية الملونة المضفورة ملتفاً على معصمها. ميزت الشريط الزخرفي المخيط على نهايات أكمام قميصها وعلى أذيال تنورتها. لقد رأيتُ ذلك في مكان ما في السابق. طفا مشهد أمها وهي تخيطُ شريطاً على أطراف مفرش للمائدة قبل احتفال تخرج سانيا من الاختبارات أمام عينيّ. بدا المفرش مهترئاً مُسبقاً حينذاك. ربما كان الشريط قد خيط على الأكمام وإطار التنورة من أجل تغطية مظهرها الرث.

Twitter: @ketab_n

قضمتُ كعكتي من اللوتس الأزرق وانتظرتُ شعورَ الخدَر الجارِف.

"عندما تتحول تنانين البحر، ذلك يعني أن العالم يتغير،" قلتُ.

مضغَت سانيا لوزها المحمص وشربت الماء القاتم من قربتها.

"إنها مجرد قصة فقط، يا نوريا،" قالَت. "أسماك النور ليست سوى اصطدام جسيمات يسببه قرب القطب الشمالي. إنها رد فعل كهرومغناطيسي، ليس أكثر إثارة من لمبة ضوء أو دودة متوهجة. ليس هناك تنانين تعيش في البحر، ولا أسراب سمك تتبعها ولا هي أبراج تتلألأ في السماء." التقطَت كعكة اللوتس الأزرق وتذوقَتها. "كانت هذه أفضل في السنة الماضية،" علَّقَت.

"أعرف ما هي أسماك النور،" قلتُ. "لكنني لا أزال أرى التنانين. ألا تفعلين؟"

نظرَت سانيا في السماء لوقت طويل، وأنا نظرت إليها. تحت الوهج الأزرق الخافت لأسماك النور أصبح وجهها مختلفاً عما يكون عليه تحت أي ضوء آخر، مثل صدَفة بحر ناعمة مغلفة بالطحالب. كانت يداها مثل زوج من قناديل البحر المضيئة في أقبية الليل. تخيلتهما تنجرفان بعيداً، تنسحبان إلى متاهات صخرية حيث لا يصل ضوء النهار، حيث لا تُصدِر المخلوقات الشفافة العمياء صوتاً ولا تحلُم بعالَم آخر.

"نعم،" قالت بعد صمت طويل. "إنني أراها."

وضعَت سانيا يدها على ذراعي. شعرتُ بالدفء يسري من خلال قماش غلالتي الرقيق، بكل خط من أصابعها كما لو أنه منجذب إلى جِلدي مع أشعة الشمس. توهجَت يراعات الضوء بصمت في المصابيح، وتحوَّلت تنانين البحر ودارَ العالَم ببطء، خِلسةً، وبلا توقُّف.

في هدأة الفجر، مشيتُ عائدة إلى البيت وقد لففت شالي الجديد بإحكام حولي. لم يبدُ الطريق من القرية إلى بيت معلم الشاي طويلاً، ولم تبدُ ظلال الأشجار طويلة أيضاً. بعد مروري من البوابة داعبت جرس الريح المكون من الأنابيب المعدنية المتدلي من الصنوبرة بأظفاري برفق. كان ما يزال بوسعي أن أحس بمذاق وجبة اليوم السابق والليل في فمي، وأردت أن أمضغ أوراق النعناع. انعطفتُ باتجاه حديقة

Twitter: @ketab_n

الصخور بدلاً من السير مباشرة إلى البيت.

أتذكّر أن عيدان العشب حفّت بكاحلَيّ، وأحسستُ برطوبة الصباح المبكر الباردة تلتصق بجلدي.

الذاكرة تنزلق وتزلّ ولا ينبغي الوثوق بها، لكنني أتذكر.

تجمّدتُ في مكاني عندما رأيتُه.

هيكلٌ نحيلٌ داكنٌ يقف على حافة حديقة الصخور، بجوار نباتات الشاي، وينتظر.

تحجّر لحمي وعظامي وأنشدت كلها حول قلبي، لم أستطع أن أحمل نفسي على السير خطوة واحدة أخرى.

استدار الهيكل ومشى مبتعداً، حتى اختفى خلف نباتات الشاي. تحرّكت الأغصان هُنيهةً حين مسها وهو يمر، ثم استكانَت وسكتَت.

بأطراف ثقيلة ركضتُ إلى داخل البيت.

لم يكن هناك ضوء ولا حركة في مصباح اليراعات المعلق من سقف المدخل، واستغرق الأمر بعض الوقت حتى اعتادت عيناي نصف الضوء.

كان أبي ممّدداً على الأرض، وقد التوى وجهه بالألم وثقُلَتْ أنفاسه. كانت بجواره قربة مكسورة. وقد انتشر الماء في بركة على الأرض وبلل ملابسه.

"ماذا حدث؟" سألتُه وحاولت مساعدته على النهوض. بصعوبة كبيرة وقف على قدميه، لكنه لم يستطع الوقوف منتصباً.

"لا شيء،" قال. "أنا متعب قليلاً وحسب."

"سوف أستدعي الطبيب،" قلت.

مشيت معه إلى غرفة نوم والديّ ووضعته تحت الأغطية. وبعد قليل أصبح مضطرباً.

"أريد إحضار بعض الماء من المطبخ،" قال. "فمي جاف."

"سأحضر لك الماء،" قلت له، لكنه أصر على النهوض والمشي إلى المطبخ وصبَّ كأساً من الماء لنفسه.

كانت تلك آخر مرة أرى فيها أبي ينهض من السرير بلا مساعدة.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الجزء الثاني: الفضاء الأخرس

لا ذرة رمل واحدة تتململ دون تحوُّل في شكل الكون:
غيِّرْ شيئًا واحدًا، وسوف تغيِّرُ كل شيء.
وي ولونغ، "طريق الشاي."

القرن ٧ من عصر تشيان القديمة

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الفصل التاسع

نحنُ أبناء الماء، والماء أوثق رفاق الموت. لا يمكن للاثنين أن ينفصلا عنا، لأننا مصنوعون من طلاقة الماء ودنوّ الموت. هما يمضيان معاً دائماً، في العالَم وفينا، وسيأتي الوقت عندما يجف ماؤنا.

هكذا يحدُث الأمر:

يستقرّ التراب حيث كان الماء، يحل محلَّه على الجِلد البشري أو على ورقة خضراء تَنبُتُ من الرمل. الورقة، الجِلد، فراء الحيوان، تأخذ كلها شكل التراب ولونَه، حتى يصبح من المستحيل معرفة أين ينتهي الواحد وأين يبدأ الآخر.

الأشياء الجافة الميتة تستحيل تراباً.

التراب يصبح جافاً وأشياء ميتة.

معظم التراب الذي نسير عليه، كان ينمو ذات يوم ويتنفس، واتخذ ذات مرة شكل الأحياء قبل زمن طويل. ذات يوم سوف يسير أحدٌ ما، لا يتذكرنا، على جِلدنا ولحمِنا وعظامِنا، على الغبار الذي يتبقى منا.

الشيء الوحيد الذي يفصلنا عن الغبار هو الماء، والماء لا يستطيع أن يتلبَّث في المكان نفسه. سوف ينسرب من أصابعنا وخلال مسامّنا وعبر أجسادنا، وكلما أصبحنا أكثر ذبولاً، أصبح أكثر تشوُّقاً لأن يغادرنا.

Twitter: @ketab_n

عندما ينفَد منا الماء ويجفّ، سنصبح تراباً فقط.

اخترت المكان عند حافة حديقة الصخور، تحت نباتات الشاي. كانت السماء مغطاة بالغيوم، وهبط الضوء الرمادي النحيل على العشب الذي أبلاه الشتاء مثلما يحطّ البحر على القاع تحت الماء. وقد أحنى عظامي وأمال الأرض باتجاهي. فكرت بصمت الأرض، لكن الهواء والماء كانا ما يزالان يتدفقان تحت جِلدي، وكان عليّ أن أستفيد من ساعات النهار القصيرة بينما تدوم.

خلعتُ معطفي، وضعتُه بجانب المعول والتقطتُ المجرفة.

حرصتُ ألا أتلف جذور نباتات الشاي. حفرت وجرفت حتى آلمتني عضلاتي وجف فمي. وعندما شرعت أول يراعات الضوء بالتوهج في أجمات التوت، كانت الحفرة تحت قدمي قد أصبحت كبيرة بما يكفي.

غسلتُ نفسي في الحمام بالماء البارد والتقطتُ الرسالة الصوتية التي تركتها أمي على جهاز الرسائل. كان صوتها مشبعاً بالحزن.

"لم أتلقَّ أي أخبار من مكتب التأشيرات،" قالت. "كل مواصلات سكة الحديد بين شينجينغ والأورال ما زالت معلّقة، وليس مسموحاً لأحد بالسفر أبعد من القرى المجاورة. نوريا، الشيء الوحيد الذي أستطيع فعله هو ترتيب تذكرة وتأشيرة لك لتأتي إلى هنا عند استئناف المواصلات. آمل فقط لو أستطيع العثور على طريقة آمنة لإرسالها إليك. كنت لأعطي أي شيء من أجل أن أكون هناك معك." توقفَتْ قليلاً، وسمعتُ صوت أنفاسها. "أرجوك أن ترسلي لي رسالة لأعرف كيف أنت،" أضافت بصوت مكسور.

أطلق جهاز الرسائل صوتاً قصيراً وهمد.

استمعتُ إلى الرسالة مرة ثم مرتين أخريين. كنت أعرف أن عليّ أن أختار اسمها من القائمة وأتحدث إليها، لكن فمي كان مليئاً جداً بالصمت ولم يكن ثمة متسع فيه للكلمات. في النهاية ضغطت الزر الأخضر. أعلنت الشاشة: التسجيل جارٍ.

"أنا بخير،" قلتُ، وحاولت أن أجعل ذلك يبدو حقيقياً. "سوف أكتب لكِ غداً."

Twitter: @ketab_n

أرسلتُ التسجيل وأعدتُ جهاز الرسائل إلى رف الجدار.

ذهبتُ إلى السرير وحدّقت في الظلام حتى استطعت أن أرى أطر الأثاث في الضوء الخافت لليل المتحول إلى فجر.

عندما نهضتُ أخيراً وذهبتُ إلى الشرفة، لم أستطع أن أعرف ما إذا كان الطقس بارداً أكثر من المعتاد أم أنني كنت أرتجفُ لمجرد أنني لم أنم. عدت إلى غرفتي لأضع معطفاً أسمك، وبنطالاً وشالاً عثرت عليه، وسحبت زوجين من الجوارب على قدميّ قبل أن أضعهما في الحذاء. في الطريق إلى الخارج وقعَت عيناي على قلنسوة أبي الواقية من الحشرات، التي استقرت مطوية ومسطحة وملفوفة في قماش واق على الرف عند المدخل بجانب قلنسوتي. التقطتُها، أخذتُها إلى مكتب أمي وأغلقتُ الباب.

بدأ الضيوف بالوصول قرابة الساعة العاشرة صباحا. كان الأوائل هم مصلح البلاستيك يوكارا مع زوجته نينيا وأخته تمارا، والرائد بولين مع سائق عربته. وبعدهم بقليل حيّاني أربعة من معلمي الشاي الذين كانوا من معارف أبي عند البوابة، أعقبهم بعض أبناء عمومته وأبناء أخواله من القرى المجاورة. كان عليّ إعداد قائمة الضيوف جزئياً بالتخمين، لأن عائلة أمي تأتي من نيو بيتربرغ المجاورة، ولم يكن لها أشقاء وأبناء عمومة في هذا المكان البعيد في الشمال. كان أبي يتصل بالكاد بأي من أفراد عائلته. لم أستطع تذكر أنني قابلت معظم أقاربه أكثر من مرة أو اثنتين حين كنت طفلة، عندما كنا نحضر زفاف أحد أو تسمية أحد، حيث يُطلب من أبي تأدية مراسم الشاي. كان هؤلاء الناس غرباء بالنسبة لي؛ لم تكن بيننا ذكريات أو كلمات مشتركة. كنت وحيدة بينهم.

اقتربَت نساء القرية النادبات الثلاث عبر الأشجار. بدون بالضبط كما أتذكرهن دائماً. كنتُ أخاف منهن في طفولتي. كن يرتدين غلالات فضفاضة قاتمة وغُطيّت رؤوسهن بمناديل، بينما تتبدل التعابير على وجوههن المتغضنة مثل الأمواج. بعض الناس زعموا أنهن يرين أشياء لا يراها الآخرون. كن يقلن القليل، ويتعقبن الموت أنّى حلّ، وعندما يرثين، تبدو الحجارة وأنها تتوجع من حولهن.

Twitter: @ketab_n

لم أستطع تذكُّر أنني دعوتهن، لكنني لم أردهن على الأعقاب. ينبغي أن يبكي أحدٌ في يوم كهذا، فكرت، ولم يكن لديّ أنا سوى الصمت والخدر في داخلي.

كانت سانيا وأبوها يان آخر الواصلين. احتضنتني سانيا، وكنت متأكدة من أنها تستطيع أن تحس بارتجافي على جسمها.

"اضطرت أمي للبقاء في البيت، مانيا ليست بخير،" همسَت بسرعة قبل أن تنفصل عني وتمضي مع يان إلى الحديقة حيث كان الضيوف الآخرون يقفون مسبقاً حول القبر والتابوت. أغلقتُ البوابة وسرتُ في أعقابهما.

استراح التابوت الخيزرانيّ على مقعد حجري حيث وضعه الرجال من مكتب الدفن في اليوم السابق، وفي نهاية المقعد وقفت جرة ماء. بدا لي التابوت صغيراً جداً. كان بالكاد أكبر من الموقد على أرضية بيت الشاي، وفكرت —ليس للمرة الأولى– بكم كان الموت زائراً سريعاً، كم من المستحيل فهمه ورؤيته ومعرفته. لم يكن والدي هنا، ليس في التابوت ولا في الجرة. كانتا تضمان مجرد شيء كانت روحه مرتبطة به، ولم تعد تنتمي إليه الآن بأكثر مما ينتمي الضوء إلى زهرة ذاوية كان قد ساعدها ذات مرة على النماء.

كنتُ قد طلبت من بولين أن يهتم بشأن الخطبة والشكليات. رحَّب بالضيوف وتحدث عن أبي بإيجاز. ثم فتح المجلد الذي كان يحمله، وقرأ فقرة. كنتُ واعية له وهو يقرأ، لكن الكلمات انجرفت بعيداً، وبدت لي قشورها غريبة وجوفاء.

أغلقَ الكتاب، ووضعه بحرص على الأرض وأومأ ليوكارا. معاً رفعا التابوت من على المقعد، وحملاه إلى القبر، وأنزلاه ببطء في الحفرة. ولأنني أقرب أفراد الأسرة إلى الراحل كنت الأولى التي تترك تحيتها. في هذا الوقت المبكر من السنة لم تكن ثمة ورود بعد، ومعظم الأشجار طرحت أشجارها قبل شهور، ولذلك التقطتُ غصناً من نبات الشاي دائم الخضرة. أسقطتُه على التابوت، وفي القبر قليل العمق اندغم لونه الأخضر البني الداكن مع لون الخيزران. وحدها البراعم الأصغر والأكثر ضعفاً هي التي لمعت مثل نجوم متناثرة على الخلفية المعتمة.

ترك معظم الضيوف حصاة أو صدَفة من بلح البحر عثروا عليها في قاع النهر

Twitter: @ketab_n

الذي جف منذ زمن طويل لتكون تحيتهم الأخيرة. كان وقعها مثل المطر الخفيف وهي تقع على غطاء الخيزران. ألقى بولين صرة رمادية فضية من أوراق الشاي على التابوت.

عندما ترك الجميع تحياتهم، حان وقت جرة الماء.

شرعت النساء النادبات في الغناء.

بدأ الأمر كأغنية هادئة تصاعدت بالتدريج، جميلة وقبيحة في آن، كما لو أن العويل تحول إلى لحن يتشمَّع وينحلّ، ويلف كل شيء في متناوله. كانت لغتهما قديمة وغريبة. وبدت كلماتها مثل رُقية أو لعنة، لكنني عرفت أنها كانت واحدة من لغات العالم الماضي، شبه الضائعة الآن، باقية فقط في الأغنيات التي يعرفنها هن وقلة من الآخرين.

نسج الرثاء شبكة بطيئة من حولي، منقسمة إلى خيوط لا حصر لعددها، والتي هامت بعيداً مثل دروب متوهجة، عابرة نسيج الأشياء التي تذكرها الناس، وأضاعوها ونسوها. رفعتُ جرة الماء عن المقعد الحجري ومشيت إلى حافة القبر حيث تقف نباتات الشاي. ارتفعت أغنية النادبات وانهدّت، أنبتَت أوراقاً وغصوناً وجذوراً على جِلدي وتحته: كنتُ غابة تصعد عالياً وتهبط مرة أخرى، كنتُ السماء والبحر ونفَس الأحياء ونوم الميت. حملتني الكلمات الغريبة؛ لغة منسية قادت خطواتي.

ركعتُ كي أصب الماء على جذور نباتات الشاي.

عندما فرغت الجرة، حملتها وأعدتها إلى المقعد الحجري. والأغنية تلاشت مثل الريح.

انتهت الطقوس عندما لم يعد هناك المزيد من الماء.

شرع الضيوف في التحرك باتجاه البيت. وقفتُ على العشب الشاحب بين الأشجار العارية لوقت طويل، أنظر إلى نباتات الشاي؛ لم تكن تنبت أسرع أو أبطأ. فقط عندما وقفت سانيا بجانبي ووضعَت ذراعها حول كتفيّ، شعرت بخطوط جسمي مرة أخرى ولم أعد أعوم ممزقة في الأثير.

Twitter: @ketab_n

"إنهم ينتظرونك،" قالت سانيا.

"أظنه يريدني أن أبقى فترة أطول قليلاً،" قلت.

"الموتى لا يحتاجون الإرضاء، نوريا،" قالت سانيا.

لو قالها أي أحد آخر، أو لو أنها قالتها بطريقة أخرى، لكنت قد سرت إلى التل في التو واللحظة وتركت الضيوف في البيت، ولم أعد حتى يكونوا قد غادروا. لكن يد سانيا كانت صارمة على كتفي، ولم أكن قد سمعت صوتها بمثل ذلك الهدوء أبداً من قبل.

استدارت لتنظر إليّ في العيون وأزاحت خصلة شعر عن وجهي لم أكن ألاحظها. وتبعتُها إلى المنزل.

كان الفضاء معتماً جداً في غرفة المعيشة، لأنني كنتُ قد نسيت تماماً التفكير بأمر الضوء. كان الاعتدال الربيعي لا يزال بعيداً أكثر من نصف شهر، ولم يكن النهار خلف النوافذ مشرقاً. ألقى أقرباء ربما لم أكن قد قابلتهم أبداً من قبل خطباً قصيرة. واهتمت نينيا وتمارا بحلب الطعام إلى المائدة. كنت قد وعدتهما بماء أسبوعين في المقابل، وبما أن كل أنابيب الماء في القرية كانت مغلقة، لم يكن أحد ليرفض مثل هذه العروض. أكلَت النادبات وشربن أكثر من أي أحد آخر، لكنني لم أُلْمهن. جلسَت سانيا بجواري الوقت كلّه.

نظرتُ من حولي، محاوِلةً أن أتذكر من أين عرفت كل شخص من الحاضرين. كان هناك ضيف واحد لم أستطع تحديد مكانه: رجل أشقر الشعر يجلس في الزاوية ولا يتحدث إلى أحد ولا يبدو أنه يعرف أحداً. كنت متأكدة تماماً أنه ليس من العائلة، وشبه متأكدة أنه ليس من القرية. ومع ذلك، كان ثمة شيء مألوف بشأنه.

"هل تعرفينه؟" سألتُ سانيا.

اختلست سانيا نظرة إلى الرجل.

"لم أره أبداً في حياتي،" قالت.

كان يرتدي ملابس مدنية، لكن شيئاً ما في حركاته والطريقة التي يراقب بها

Twitter: @ketab_n

الناس في الغرفة جعلتني أتساءل عما إذا كان جندياً. في الوقت الذي أصبحت فيه تفتيشات الماء الأسبوعية إجبارية للجميع وأصبحت العقوبة على جريمة المياه أكثر صرامة، شرع الجنود في الظهور في كل التجمعات الكبيرة، إما علناً في زيهم الرسمي أو متخفين في زي المدنيين. وقد صدقت تلك القصص في البداية، لكنني ذكرتها ذات مرة لأبي الذي كان مريضاً جداً بحيث لم يعد يذهب إلى القرية، فقال، "إنهم يراقبون عن كثب الآن. إنهم لا يريدون المخاطرة بحدوث مقاومة منظمة بعد أحداث عيد القمر. إنهم يطبِقون قبضاتهم علينا بقوة، وسوف يضغطون حتى لا يمتلك أحد الشجاعة للوقوف في وجههم. لقد بدأ الأمر، لكنه لن ينتهي في أي وقت قريب."

سرَت رعشة غير متوقعة في أنحائي وهبط الغضب في حنجرتي مثل الحجارة الساخنة، ثم انهمرَت الدموع على وجهي. تركتُها تسيل. وبعد حين جفَّت، لكنني ظللت أحسّ بها وهي تحترق وتلسعُ خلف عينيّ. سوف تحرق طريقها للخروج مرة أخرى.

خرج الضيوف شيئاً فشيئاً. وعندما ذهب الجميع تقريباً. جاء بولين إليّ.

"هل أستطيع أن أتحدث إليك قليلاً، نوريا؟" قال. لاحظت أنه استخدم اسمي الأول بدلاً من دعوتي بالآنسة كيشيو كالمعتاد. كان يعرف أبي منذ وقت طويل وساعد في ترتيبات الجنازة أكثر مما هو ضروري. فكّرت بأنه يريد التحدث عن زيارة الشاي التالية.

"أراكِ بعد غد،" قلت لسانيا. "شكراً لمجيئك." ضغطَت على يدي.

"أرسلي لي رسالة أو تعالي لزيارتنا في أي وقت،" قالت. انحنى يان مودِّعاً، وغادرا.

"هل يمكن أن تجلبَ لي الصندوق من العربة؟" قال بولين لسائقه الذي انحنى انحناءة صغيرة ومشى خارجاً، وخشخش حذاؤه العسكري على بلاط الأرضية. كنا وحدنا في غرفة المعيشة المعتمة، ولم يكن يفصلنا عن الظل سوى زوج من المصابيح الخافتة. كان بولين يأتي إلى أبي من أجل طقوس الشاي منذ كنت في السادسة أو السابعة من عمري، وعاملني دائماً جيداً وباحترام، حتى قبل أن أكتسب مهارتي

Twitter: @ketab_n

في مراسم الشاي. كان صديق أبي، بالقدر الذي كان فيه لأبي أصدقاء، وكنت أثق به بما يكفي ليكون صديقاً. عرضتُ عليه كوباً من الشاي، لكنه هز رأسه معتذراً.

"نوريا،" بدأ الحديث.

انتظرت. بدا أنه يبحث عن الكلمات المناسبة. كانت يراعة ضوء وحيدة تئز بخفوت على النافذة، تساءلت عما إذا كنتُ قد تركت مصباحاً غير مغلق الغطاء في مكان ما. سوف أحتاج إلى كنس يراعات الضوء الميتة من الزوايا لاحقاً.

في النهاية، تكلم بولين مرة أخرى.

"هناك أناس يعتقدون أن هناك ماءً في أملاككم،" قال. "لا أعرف ما إذا كان ذلك صحيحاً، ولكن –."

"إنه غير صحيح."

"لستُ هنا لتصيُّد المعلومات،" قال بولين، وكان وجهه رصيناً. "لا أعرف ما إذا كان أبوك قد ذكر لك ذلك، لكننا نشأنا معاً، وذات مرة ائتمنته على حياتي. لم يكن يفهم لماذا اخترت مهنة الجيش، لكننا احتفظنا بما يمكننا إنقاذه من صداقتنا. ولذلك أعرف أنه كان سيريد مني أن أحذرك." صمَتَ للحظة. "لم تعد السلطة في يدي بعد الآن. بالاسم، ربما، لكنها تنسرب مني كل يوم، كل ساعة إلى شخص آخر، وقريباً لن يكون بوسعي أن أفعل أي شيء لك. السلطة التي كانت لي أصبحت لتارو الآن. يجب أن تكوني حذرة بأقصى ما تستطيعين، نوريا."

تساءلتُ عندئذ ما هو بالضبط قدر ما كان يفعله بولين لوالديّ ولي. تذكرت أبي وهو يقول إن لنا حماية. بدأت أفهم ما كان يعنيه ذلك حقاً. حماية –ممن؟ عبرَت ذهنيَ صورة ضيف الجنازة أشقر الشعر غير المألوف، وذكريات الجنود وهم يفتشون الحديقة.

كان لدينا دائماً أطعمة في مطبخنا من النوع الذي لا يحصل عليه الكثير من القرويين الآخرين إلا في عيد القمر أو احتفالات انتصاف الشتاء، ولم يكن هناك أحد آخر تقريباً يمتلك ثلاجة. هل كانت له علاقة بهما –وحدث أن وقع بعض الكتب التي في المنزل بين يديه؟ هل كان يبقي على دوريات الماء بعيدة عنا، بحيث

Twitter: @ketab_n

استطاع أبي الاستمرار في ممارسة المهنة بسلام؟ كم من هذا كان من فِعلِه —والأهم من كل شيء، كيف ستتغير الأمور إذا ذهبت حمايته؟

"سوف أكون حذِرة،" قلتُ.

عبرَت الشرفة خطواتٍ ثقيلة، ثم جاء طَرق على الباب.

"سيكون هذا سائقي،" قال بولين. "أحضرتُ شيئاً لك. ادخل!" هتَف.

صدر صوت قعقعة بينما يوضَعُ شيء ثقيل على الأرض. سمعت الباب يُفتح، ورأيت خشبه يرتكز على الحائط، وبعد لحظة مشى السائق داخلاً. كان وجهه محمراً جداً، وكان يحمل صندوقاً خشبياً كبيراً وضعه أمامي.

"افتحيه،" قال بولين.

رفعتُ الغطاء. في الداخل كانت نحو دزينة من الكتب القديمة، المغلفة بالجِلد.

"لا شك عندي بأن تارو لم يعثر على شيء مثير للاهتمام فيها، وإلا لما استطعتُ استرجاعها،" واصل. "كانوا سيتلفونها لو أنني لم أشد الخيوط القليلة التي ما يزال يمكنني شدها. اعتبري ذلك آخر معروف أُسديه لوالدك. أعرف كم هي مهمّة هذه الكتب بالنسبة له."

غامت عيناي بالدموع بينما تمرّ أصابعي على أعقاب كتب معلمي الشاي. ميزت أحدها: كتاب أبي. لم يجلب لنفسه كتاباً جديداً آخر بعد أن أخذه الجنود. لم يكن قد تبقى لديه الكثير من الأشياء الأخرى ليقولها.

"شكراً لك،" قلتُ. "شكراً لك."

احتل وجهَ بولين تعبيرٌ قلِق استطعت أن أفسّره على أنه الحزن. توهّجت المصابيح بخفوت، ولم يبدُ أيّ شيء مختلفاً، لكن كل شيء كان قد تغير.

"سوف أظل أحضر طقوس الشاي، وأعرف أنك ستكونين قادرة على مواصلة نوعية عمل والدك،" قال بولين. تردد، ثم ربَّت على كتفي بخرَق.

"أود أن أعرف شيئاً واحداً،" قلت. "لماذا جلبتَ تارو إلى هنا في الصيف الماضي؟"

كنت أعرف أن الاتهام واضح خلف كلماتي. وفاجأتني إجابته.

Twitter: @ketab_n

"لم يكن لي رأي في الموضوع. ليست هناك سلطة تدوم، يا نوريا. حتى الجبال ستبليها الرياح والأمطار في نهاية المطاف."

بدا بولين عجوزاً وهشاً، ولم أعرف أي شيء آخر يمكن أن أقوله له. رأيته يتردد، تماماً كما فعلتُ أنا قبل لحظة.

"هناك شيء آخر أريد أن أسألكِ عنه قبل أن أذهب،" قال. "أفهم أنك ربما لا تريدين التحدث عنه، لكنني أود لو أعرف. كيف مات ميكوا؟"

صمتٌ. أصبح النهار أكثر عتمة، استدارت السنة ببطء باتجاه الربيع، تدفق الماء في صدفته الحجرية داخل التل، وأحسست بالبرد كما لو أن عظامي تحوّلت إلى جليد.

"لا أريد أن أتحدث عن الأمر،" قلت أخيراً.

انحنى بولين كثيراً، وغادر.

هكذا يحدُث الأمر:

ليلة عيد القمر ينهار أبي على الأرض، ويتمدد صامتاً ساكناً، بينما يزحف الماء والظلام إلى داخل ملابسه وشعره، إلى جِلده.

في الأثناء، يصبُّ الوحدويون النفط على ملابسهم وشعرهم. ثم يتسلقون أدراج مقر قيادة الجيش المحلية في كوسامو ويُشعلون النار بأنفسهم.

في اليوم التالي، يقوم الرجال في الأزياء الزرقاء بأخذ الزوجين العجوزين من قريتنا، وبحلول المساء يعرف الجميع أن ابنهما وأناساً آخرين أحَرقوا أنفسهم احتجاجاً على الاحتلال التشيالي.

تجتاح أغنية النساء النادبات الباكية القرية لثلاثة أيام.

أولاً، يصبح هناك من حرس المياه أكثر مما كان في أي شهر مضى. ثم، مباشرة قبل احتفالات منتصف الشتاء، يتم إغلاق أنابيب المياه جميعاً، وتصبح الطريقة الوحيدة للحصول على الماء هي الاصطفاف في الطوابير من أجل استلام الحصص في الساحة الرئيسية للقرية.

تتحدث أجهزة الأخبار عن الإرهاب المدجَّن في الاتحاد الإسكندنافي، عن اضطرابات طفيفة في مناطق قصية، عن احتجاجات تنجم بسرعة وتهدأ بالسرعة

Twitter: @ketab_n

ذاتها في المدن، كما لو أن الحرب مبعثرة، عرَضيّة، وبلا أهمية. ومع ذلك، في الوقت نفسه، يصبح الطعام أقل وأقل في الأسواق؛ يصبح الحصول على أجهزة المرور والتأشيرات أصعب، ويصبح عدد الإخطارات عن المتطوعين المقتولين في المعارك في ارتفاع.

عندما يصبح القمر معتماً وجديداً ليؤشر على بداية العام، لا تستطيع أمي القدوم إلى البيت لأن مواصلات القطار معلقة.

أراقب كل هذا خلال مرض أبي، وأرى ما يحدث مثل سدم باهت بلا شكل على حواف حياتي. يظل أبي المركز الذي يمسك بكل شيء: الألم الذي يقيده والذي لا أستطيع أن أخففه؛ حياته المتلاشية التي تختفي أمام عيني ولا أستطيع أن أبقيها في حدود العالَم. أدع كل شيء آخر يمر، حتى لو أنني أعرف أن عليّ مواجهته لاحقاً.

يستلقي في سرير والدَيّ، العريض جداً عليه، وحده، جِلده أشبه بورق نحتته الشمس، يصبح أكثر رقّة كل يوم. أستطيع أن أرى من خلاله زوايا عظامه وأقواسها.

يحاول بولين ترتيب جلب أدوية له، لكنه يصبح أصعب، حتى على ضباط الجيش، أن يعثروا عليها. يهز الطبيب الذي يأتي رأسه، يغرس الإبر في أطرافه، يغادر ويأتي مرة أخرى، ولا يعرف ما خطب أبي.

أفكر بأن غياب أمي يوجعه، كل التغيير يوجعه، ولم يعد يمتلك القوة ليعيش بعد.

في النهاية يتوقف عن الأكل.

في النهاية يتوقف عن الشُّرب.

يعرف، كما تعرف في حلُم أن الشخص الآخر في الغرفة مألوف، حتى لو أنك لا تعرف وجهه.

يأمرني بتحضير الطقس الأخير.

يكون ضيفي مرة واحدة في حياته، ومعلِّم الشاي لا يكشف عن أي شعور أمام ضيوفه.

Twitter: @ketab_n

بعد أن أنهى الشاي، ينتظر في بيت الشاي حتى يقبض الموت بيده على قلبه ويجف الماء في دمه.

عندما يسمع بولين بما حدث، يرتّب حضور طبيب من المستشفى العسكري ويخزن الأعضاء، لأن هناك نقصاً. وعندما يتم ذلك، يرسل عربة من أجل الجثمان.

في مكتب الدفن، أختارُ تابوتاً من الخيزران، يبدو صغيراً جداً، وجرّة مطلية باللون الفضي، وفيها سيتم جمع ماء أبي. يخبرني مأمور الدفن بأن كل شيء سيكون جاهزاً خلال يومين. أعود إلى العربة وأذهب إلى محل الخباز لأوصي على كعك الجنازة.

أمي ليست هنا وكان يجب أن تكون. ليس هناك قطار يمكنها ركوبه ولا رسالة تعرِف أنها يمكن أن تصلني، وكل يوم أستيقظ على أمل أنها ما زالت تتنفس، حتى لو أنني لا أستطيع الشعور بذلك.

أبي ليس هنا، وكان يجب أن يكون. إنه يستلقي في حجرة من المعدن والحجارة، حيث يتحول الماء الذي كان يتدفق فيه إلى ثلج ويغادره. بعد يومين لن يكون سوى محض غبار في تابوت خيزراني وماء في جرة مطلية باللون الفضي.

أنا هنا، وكل الكلمات رماد أخرس في فمي، وما مِن ماءٍ يطفئ عطشي.

Twitter: @ketab_n

الفصل العاشر

زحف الطابور بوتيرة بطيئة حد الإيلام. كوت الشمس عينيّ وتغطى وجهي بالرمل الناعم الذي جلدَت به ريح آخر الشتاء القوية أنحاء المكان. ندِمت لأنني لم أستخرج قلنسوتي المضادة للحشرات في الصباح. لم يكن هناك الكثير من ذباب الخيل بعد، لكن الرمل لم يكن أفضل. داومت على التحديق في نقطة توزيع حصص المياه التي لا تزال بعيدة جداً. كانت لدي خطط أخرى لقضاء النهار وكنتُ نافدة الصبر للخروج من الصف، لكنني كنت أعلم أن عليّ إظهار وجهي في ساحة القرية مرتين في الأسبوع على الأقل، حتى لا أصبح موضع شبهة.

كنتُ قد مشيت إلى التل أول شيء في الصباح للتحقق من مستوى سطح الينبوع، وأمضيت الأمس في غسيل الملابس وتقليم شجيرات التوت في الحديقة التي لا تزال عارية، وزراعة بذور الخضراوات في أواني الفخار. كانت محاولة إبقاء البيت كما كان في حياة أبي وعندما كانت أمي لا تزال تعيش في البيت أشبه بمحاولة القبض على الريح بيديّ. تجمع الغبار في حبال سميكة رمادية على الشِّباكِ التي نسجتها العناكب في الزوايا بينما لم أكن أنتبه. جاءت حشراتٌ طويلة السيقان رقيقة الأجنحة بلون الأوراق الميتة تسعى إلى بريق الضوء الخافت داخل المنزل وضلّت طريقها في متاهة الجدران والمساحات المغلقة. كانت أجسادها الجافة تنسحق بجلبة

Twitter: @ketab_n

تحت قدميّ في الغرف غير المضاءة، وكنت أجد برازها الخفيف وقد تراكم ببطء في أماكن ليس لدي الوقت ولا الطاقة لكنسها: سيقان بهشاشة الغصين، وأجنحة خفيفة لامعة منفصلة عن هياكل الأجساد الجوفاء، رؤوس سوداء العيون بقرون استشعار مكسورة، وقد التوت مائلة نحو الصمت إلى الأبد. كان التغيير أقوى مني وأسرع. أصبح البيت مختلفاً، وحياتي مختلفة، وكان عليّ الاستسلام لذلك، حتى إن كان دمي يصرخ ضده.

اكتمل القمر مرة واحدة فقط بعد أن حفرتُ القبر. أصبح العشب الذي يغطيه مرضوضاً وظهر التراب الأسود من خلال السيقان. ومع أنني كنت أراه كل يوم، ظل موت أبي غامضاً وغريباً عليّ. لم أستطع أن أضعه في تلك الغرف حيث كانت حياته تنتمي. كانت بصمته قوية وكأنه لا يزال يمشي هنا، غير عارف كيف يُغادر، ولا يخرج من تحت النظر إلا عندما أستدير، تاركة بيت الشاي مباشرة قبل أن أفتح الباب. كان ذلك حضوراً لطيفاً ومحزناً، وليس حضوراً مخيفاً. نطقتُ باسمه في بعض الأحيان، وأنا أعلم أنه لن يجيب حتى لو سمعني، ولن يضع يده على كتفي. أصبحنا نسكن عالَمين مختلفين الآن، والنهر القاتم بيننا يمكن عبوره باتجاه واحد وحسب.

تحرك الصفّ ببطء، بينما تدفع سانيا العربة التي تحمل قِرب عائلتها الفارغة وقِرَبي. صرّ الرمل في العجلات وهي تدور. كان عشرة أشخاص ما يزالون أمامنا على الأقل.

"جميل أن أراكِ هنا،" قال صوت من خلفي، ولمسَت كتفي يد قصيرة الأصابع مقلمة الأظفار. استدرتُ ورأيت نينيا، زوجة يوكارا، التي انضمت إلى الصف. كانت واحدة من أناس قليلين يضعون قلنسوة الحشرات في المكان. وخلف شبكتها الشفافة بدا وجهها المستدير شاحباً وقد تدلّى جِلدُه على العظام. كانت قد صبغت شفتيها بأحمر أكثر إشراقاً من المعتاد. تساءلتُ من أين استطاعت الحصول على ملون للشفاه وكم كان ثمنه.

"مرحباً، نينيا،" قلتُ.

Twitter: @ketab_n

"بالطبع، تحتاجين الماء لكِ وحدكِ هذه الأيام،" قالت، وانسحبت حواجبها المسفوعة بالشمس لتصنع تعبيراً حزيناً. ربتَت على ذراعي. شعرتُ بشيء يحترق خلف عينيّ. "هل سمعتِ من والدتك؟"

"أجهزة الاتصالات ضعيفة،" أجبت، ولم يبدُ صوتي متماسكاً تماماً في أذنيّ. كنتُ قد أرسلت لأمي عدة رسائل كل أسبوع، لكنني تلقيت رداً واحداً بعد الجنازة. لم يكن هناك شيء سوى الأخبار السيئة تأتي من شينجينغ، إذا كان ثمة أخبار، وقد أخافني صمت أمي أكثر مما أردت أن أعترف. "كيف حالُك؟"

"الصغار يعانون،" قالت نينيا. كنتُ أعرف أنها تقصد أحفادها. "تَسلُّم حصص المياه للعائلة بكاملها عمل شاق. ومع ذلك، نحن محظوظون، لأن لدى يوكارا أعمالاً منتظمة في إصلاح البلاستيك في المعسكر، والضباط يدفعون شيئاً إضافياً في بعض الأحيان، إذا كنت تعرفين ما أعني." بدَت وأنها أدركت أنها قالت أكثر من اللازم. "الوضع صعب، الوضع صعب،" واصلَت. "لكن الأمور ربما تكون أسوأ لديك، يا مسكينة، بعد أن ذهبَ والداك ولم يتبق لديكِ سوى طقوس الشاي لتقيم أودَك."

لا بد من أن تكون سانيا قد رأت رد فعلي، لأنها قالت مُقاطِعة.

"عفواً، هناك شيءٌ على وجهك، تحت العين اليسرى. كلا، على الجهة الأخرى،" قالت عندما خلعت نينيا قلنسوة الحشرات ومسحَت خدَّها.

"هل ذهَب؟" سألَت.

تفحصتها سانيا عن قرب وقد غضّنت جبينها.

"أعتقد أنني أخطأت. يبدو أنها تجعيدة، أو ربما ظلٌّ صنعته قلنسوة الحشرات،" قالت لنينيا التي توسع أنفها.

"صحيح، من الصعب الحصول على قلنسوة من قماش لائق هذه الأيام،" قالَت نينيا وضمَّت شفتيها.

استدرتُ لأنظر إلى الناحية الأخرى، حتى لا ترى الابتسامة التي رفت على وجهي بالرغم من درَن الحزن في صدري. كنتُ أعرف أن قلنسوة نينيا ليست

Twitter: @ketab_n

جديدة. ورأيت لطخة من أحمر الشفاه الملتصقة بشكل دائم بطوقها، قد حاولت دائماً أن تغطيها بوشاح.

"كيف حال عائلتك، يا سانيا؟" فتحَت نينيا الحديث مرة أخرى، ولو أن نبرتها أصبحت أخفض بعدّة درجات.

أعتَمَتْ تعابير سانيا. لم تكن مينيا بخير منذ أسابيع، وكانت سانيا قلقة عليها. كان الماء الذي يوزع في ساحة القرية نظيفاً حتى الآن، لكن شائعات تدور عن أناس في المدن والقرى الأخرى الذين مرضوا بعد الشرب من حصص مياههم. وكانت سانيا قد أخبرتني بأن والديها همسا بأن الجيش نفسه يجعل الناس مرضى عن عمد بتوزيع ماء ملوث. لم أرد تصديق ذلك، لكنني فضلت مع ذلك استخدام حصصي للغسيل وسقي الحديقة بدلاً من شربها.

"ليس الوضع سيئاً،" قالت. "عند أبي الكثير من العمل، تم التعاقد معه لتحويل مباني الضواحي القديمة إلى أماكن عيش صالحة لحرس المياه الجدد."

"كيف حال أمك وأختك،" سألَت نينيا.

"في حال حسن، مثلك تماماً،" قالت سانيا.

صمتت نينيا للحظة.

"بلِّغيهم تحياتي،" قالت، وكشف وجهها بوضوح أن المحادثة انتهت الآن.

"يا لَها من صرصارة،" غمغمَت سانيا من تحت أنفاسها.

جاء دورنا أخيراً. استخرجتُ جهاز رسائلي ووضعتُ أصبعي على الشاشة. ظهر رمز هويتي واسمي. سلَّمتُ الجهاز لجنديّةٍ من الجنود الذين يوزعون حصص المياه. وصلَته بجهازها متعدد الأغراض وملأت قِربي بالماء. راقبتها وهي تُدرج المعلومات عن أن حصتي من المياه لأسبوع قد استُهلكت. المواطن: نوريا كيشيو. الحصة التالية: بقي ثلاثة أيام، كُتب على الشاشة. أعادت لي الجندية جهاز رسائلي. أطفأته ووضعته في جيبي.

رفعتُ القِرب المملوءة على عربة سانيا بينما تنتظِرُ ملء أوعيتها وإدخال معلومات حصتها في جهاز رسائل عائلتها. بدت الأوعية لي صغيرة بشكل مروع.

Twitter: @ketab_n

كنت أستخدم هذا القدر من المياه وَحدي كل يوم: كان تنظيف الصحون وحده يستهلك نصفه.

عندما مُلئت الأوعية واستعادت سانيا جهاز الرسائل، وضعَت الأغطية على الأوعية وشرعَتْ في سحب العربة إلى خارج الساحة. مشينا بالقرب من بعض الأكشاك حيث عرض الناس معدات المطبخ والأثاث المستعمل وبعض الأشياء الأخرى. كانت امرأة عجوز تحاول مقايضة زوج من الأحذية بكيس طحين. كان اليوم بارداً بشكل غريب قياساً بذلك الوقت من السنة، وشعرتُ بالبرد رغم الجهد المبذول في توجيه العربة فوق الحجارة غير المستوية. أناخَ جدار سميك من الغيوم السديمية الداكنة على أفق السماء المشرقة مثل قطعة عريضة مبللة من قماش صوفيّ رمادي.

"آمل أن تمطر هذه الليلة،" قالت سانيا. "لقد وضعت البراميل وإناء التجميع في الخارج."

أنا، أيضاً، كنتُ أتوق إلى المطر. إلى سيل مهدئ منقٍّ يمكن أن يغسلني أنا والأرض، ويجعل العالم مختلفاً وجديداً، حتى لو للحظة قصيرة. لم أظن أن الغيوم تعد بأي شيء أكثر من رذاذ، لكنني لم أقل ذلك.

كان حرس المياه في الأزياء الزرقاء والناس يعودون إلى بيوتهم بحصص مياههم في الشوارع، لكن كل شيء آخر كان هادئاً. في الأشهر التي تلت عيد القمر، بدأ القرويون بالتحدث بأصوات خافتة بينما يزيد عدد الجنود ويتم بناء المزيد من الثكنات لهم في الضواحي. وبينما تفاقم نقص المياه، بدت رائحة آسنة للحياة والناس وكأنها تزحف داخلة البيوت، ناشرة أصابعها الدبقة على الشوارع والأفنية مثلما ينمو نبات الأشنة على الصخور في قيعان الأنهار الجافة. في كل مرة عبرت القرية مشيا، علُقت تلك الرائحة بأنفي، غير سارة، قبل أن يعتادها الوعي.

بدت الرائحة وكأنها تتكثف عندما اقتربنا من المركز الطبي الذي ترتب علينا المرور به في الطريق. كانت في البناية القديمة المبنية من الطوب غرفة انتظار صغيرة جداً على استيعاب عشرة أشخاص في وقت واحد، وكانت عشر نساء على الأقل

Twitter: @ketab_n

ينتظرن في الخارج مع أطفالهن. ثمة رضيعان كانا يصرخان بملء رئتيهما، وبدا بضعة أولاد أكبر قليلاً أضعف من القدرة على الحركة والكلام. كانت امرأة لا يمكن أن تكون أكبر كثيراً من أمي تحاول أن تجعل طفلاً بشفتين مشققتين وجفنين متورمين يشرب من زجاجة. كانت فتاة سوداء الشعر شاحبة البشرة ربما لم يزد عمرها على ثلاث سنوات قد لوثت نفسها وحاولت الأم تهدئتها بيأس. وعندما رأتنا، رفعت كوباً بلاستيكياً يتدلى من حزامها بقطعة حبل وقالت، "هل تستطيعان أن تدّخرا كوب ماء لنا؟ ابنتي عطشانة ومريضة، ونحن ننتظر منذ ساعات."

نظرَت سانيا إليّ. كانَ هذا جديداً. شهدَت القرية نوبات نقص مياه في السابق، لكن أحداً لم يحتج إلى استجداء الماء. كان خدا الفتاة الصغيرة أجوفين وعيناها كبيرتين.

"دعينا نتوقف،" قلت لسانيا.

كانت المرأة ترفع كوبها. تناولت قِربتي وسكبتُ بعض الماء فيه. ضمَّت المرأة ذراعي بيدها الطليقة وشدت عليها.

"شكراً لكِ يا آنسة! أنت إنسانية طيبة. شكراً لك. شكراً. لعل المياه العذبة تتدفق في طريقك!" واصلت سيل شكرها وبدأت أشعر بالحرج. وبمجرد أن أغلقت قربتي وأعدتها إلى العربة، اقتربت مني امرأة أخرى. كان طفلان يتعلقان بيديها.

"هل تعطين قطرة لنا أيضاً، هل تفعلين؟" سألَت.

حدَجتني سانيا بنظرة حادة.

"يجب أن نذهب يا نوريا،" قالَت.

كانت على حق. رأيتُ جميع المنتظرات خارج المركز الطبي ينظرن إليّ بأمل، وهن يدرسن الفرص وأفضل الطرق لطلب الماء مني. وإذا بقيتُ، لن يتبقى شيء في قِربتي.

"أنا آسفة،" قلتُ للمرأة. "أنا آسفة حقاً، لكنني لا أستطيع. هذا كل ما لديّ لنفسي."

نظرَت إليّ، كان تعبير وجهها يتحول إلى عدم التصديق، ثم إلى شيء أكثر شراً.

Twitter: @ketab_n

"أنتِ ابنة معلم الشاي، ألستِ كذلك؟" قالَت.

"هيا يا نوريا،" قالت سانيا.

"كان يجب أن أعرف. لطالما أحسَّ معلمو الشاي بأنهم أفضل كثيراً من هذه القرية." واصلَت المرأة.

اندفع الدم إلى وجهي وأدرتُ وجهي، ساحبةً العربة على سطح الشارع المتشقق. سمعتُ الحشد من خلفي يغمغم وظننت أنني ميزت اسمي، لكنني لم أكن راغبة في سماع المزيد.

"تجاهليهن وحسب،" قالت سانيا. "ليس خطأك أنك لا تستطيعين مساعدة الجميع."

شعرتُ بوجهي حاراً وبحلقي سميكاً. لم أعرف ما أقول. أردت أن أخرج من هناك. حاولت التفكير في الذي ينتظرني، وفي السبب الحقيقي وراء قدومي إلى القرية اليوم. وحتى مع مزيج الإهانة والارتباك، شعرت بومضة خافتة من الإثارة.

انعطفنا من زاوية الشارع لنسلك طريقاً ملتوية. كان لدي الوقت لأرى بيتاً واطئاً مطلياً بالرمادي وقد ظهرت على بابه دائرة زرقاء قبل أربعة أسابيع، ونوافذه المعتمة المنفرجة بلا رفيف حركة ولا صوت خلفها. اختارت أقدامنا اتجاهاً مختلفاً وحدها. في تلك الأيام لم يكن السير في القرية مستقيماً، وإنما وُلِدت مسارات جديدة من اتفاقيات صامتة بين الناس لتحل ببطء محل الطرق القديمة، فيما كانت علامة جريمة المياه تحتل الفضاءات على طول الشوارع. كان ثمة دزينة جديدة من البيوت التي أصبحت تحمل الآن علامة الدائرة الزرقاء. وكان البيت الرمادي هو الأحدث من بينها. ووقفت أشباحها على طول حوافّ الطرق، محاطة بطوق من الصمت الذي لا يعبره أحد إلا إذا كان ذلك حتمياً. وواصل سكان البيوت المجاورة حياتهم كما لو أن هناك فراغاً مدوِّماً فاغراً فاه حلّ في مكان البيت الجاني، والذي ربما يزيلهم عن وجه الأرض بمجرد النظر في اتجاهه.

دار الهمس في القرية بأن الناس الذين كانوا يعيشون في بيوت جريمة الماء شوهدوا مرة أو اثنتين، يلتقطون شيئاً من عتبات منازلهم أو يقفون بصمت خارجها، دون أن

Twitter: @ketab_n

يغادروا أفنيتهم الأمامية مطلقاً، وعادة في الصباح المبكر أو الليل المتأخر. وقوبلت تلك الحكايات بالطريقة نفسها التي تُستقبل بها قصص الأشباح: بمزيج من الخوف والفضول، الذي يتحول إلى عدم تصديق في ضوء النهار.

الحقيقة أن أحداً لم يعرف على وجه اليقين ما حدث لسكان البيوت المعلّمة بالدوائر. كان من الأسهل عدم السؤال.

لم يكن الصمت لازماً لتقييد الأشياء الداجنة.

كانت عاصفة باردة تنسحب على زوايا السقوف وتضربنا بسياطها من حين لآخر، مارقة عبر الفراغات بين البيوت. وفي أحد الأفنية الخلفية، كان رجل نحيل بارز العظام، ميّزته كمعلم في مدرسة القرية، يفرك فروة رأسه بمسحوق بني فاتح، مزيج من الطين وطحين قشر شجر المرار، الذي يُباع في أكشاك السوق كشامبو جاف. كنت معتادة على نبات عرق الحلاوة الذي ينمو خلف بيت الشاي في عناقيد، وأحببتُ الطريقة التي يرغي بها بين أصابعي عندما يُخلط بماء الاستحمام. للمرة الأولى خطر لي أن أحداً ربما يتساءل عن السبب في أنني لم أشترِ الشامبوهات الجافة أو قطع الصابون مطلقاً. لم أعرف كم من التغييرات ينبغي أن أصنع لأجعل حياتي تبدو مثل حياة القرويين الآخرين.

بينما كنا نقترب من بيت سانيا، لم أستطع الانتظار أكثر.

"سوف أذهب للنبش في القمامة،" قلت. "هل تريدين المجيء؟"

تنهّدَت سانيا.

"لا أستطيع. لديّ الكثير لأفعله في البيت." اختلسَتْ نظرة إلى قِرب مائي. "هل تريدين ترك هذه عندي وأخذها لاحقاً؟" سألَت. "لن تتمكني أبداً من سحبها كل الطريق إلى مقبرة البلاستيك والعودة."

"يمكنكِ الاحتفاظ بها،" قلت.

نظرَت سانيا إليَّ كما لو أنني عرضت عليها لتوي رحلة على ظهر تنين البحر.

"لا تكوني حمقاء!" قالت. "لن تحصلي على مزيد من الماء حتى الأسبوع القادم. طبعاً لا يمكنني أخذها."

Twitter: @ketab_n

"لستُ في حاجة إليها،" قلت. "لدي ماء في البيت لبقية الأسبوع. أرجوك، احتفظي بها."

بدت سانيا كما لو أنها ستصرّ، لكنها أطلقت نفساً عميقاً بدلاً من ذلك وقالت، "هذه المرة، ولكن لا تجرّبي على المحاولة مرة أخرى."

طافت رائحة مقبرة البلاستيك النفاذة قادمة باتجاهي. مررتُ بمكان حيث يحاول الناس ملء قِرب الماء والدلاء من جدول ضحل كدر المياه، كان يجري بالقرب من حافة المقبرة. كان والداي قد حذّراني دائماً لكي لا أشرب منه أبداً. قالا إن الماء فيه ملوث بالسموم المتسربة من المقبرة وستصيبني بالمرض. وقد مال القرويون إلى تجنب الجدول في السابق، لكنني كلما أتيت إلى هنا في الفترة الأخيرة، أجد بعضهم وهم يحاولون سحب الماء منه. وكنتُ قد قلت لامرأة مسنّة ذات مرة أن الماء فيه ليس صالحاً للشرب.

"ماذا لديك لأشربه، إذن؟" قالت. "الهواء، التراب، ربما؟"

كانت تلك آخر مرة أحاول فيها التحدث مع أحد عن الجدول.

كدت أتوقف عندما ميزت وجهاً أحمر الشفاه خلف قلنسوة الحجرات بين حفنة الباحثين عن الماء. كانت نينيا منحنية عند حافة الجدول، وهي تملأ وعاء ماء شفاف بماء بني مصفر. كان شيء شبيه بالصرصور حقاً في هيكلها القصير، وملابسها الصفراء وحركاتها المُجهدة. ولكن، في الوقت الذي اتخذت فيه هذه الصورة شكلاً في عقلي، شعرتُ بوخزة من العار. ما الذي تفعله سوى محاولة البقاء على قيد الحياة بأفضل ما تستطيع؟ ما الذي يفعله أي منا سوى ذلك بالضبط؟ خمَّنتُ أن مستخدِمي يوكارا لم يكونوا يدفعون تماماً بالقدر الذي كانت قد اقترحته سابقاً. أشاحت بوجهها بعيداً عني، ولم أستطع أن أعرف ما إذا كانت لم ترني أم أنها اختارت التظاهر بأنها لم تفعل.

مشيت عابرة دون أنْ أتوقف.

في تضاريس مقبرة البلاستيك الدائمة التغيُّر، الخادعة للبصر، كان من الصعب

Twitter: @ketab_n

تبيُّن العلامات، لكنني كنت أعرف طريقي. بالقرب من مركز المقبرة كانت عناصر صلبة بضعف طولي تنبثق من حبل القمامة. وقفت بجوارها ونظرت باتجاه حافة المقبرة، حتى ميزت جثة قديمة أكلها الصدأ لعربة ضخمة من العالَم الماضي. كانت أماكن العجلات لا تزال واضحة، كما هي حال لوحة أجهزة القياس القتيلة، لكن المقاعد وكل الأجزاء المعدنية التي ظلت قابلة للاستخدام كانت قد ذهبت منذ وقت طويل. لم يبدُ أن أحداً قام أبداً بتحريك هذه القطعة من الوزن الميّت، لأن ذلك سيتطلب قوة خمسة أشخاص على الأقل، ولم يبد أن هناك الكثير مما يمكن العثور عليه في هذه الزاوية من القبر. مشيت باتجاه هيكل المركبة.

من باب العادة دفعت بيدي عبر ثقب في لوحة أجهزة القياس وتحسستُ حتى وصلت إلى السطح الناعم لصندوق بلاستيكي في حجم صحن الفنجان تقريباً. لم أكن في حاجة إلى إخراجه: كان يكفي معرفة أنه ما يزال موجوداً هناك. كان أحد كبسولات الزمن التي كنتُ قد خبأتها أنا وسانيا في أماكن مفضلة عندما كنا أصغر سناً. كانت تحتوي على أشياء مثل الخرز، والزهور المجففة، وأساور المعصم المصنوعة يدوياً من أعشاب البحر والكنوز التي وجدناها في مقبرة البلاستيك. كنا دائماً نكتب التاريخ على الغطاء من الداخل ونؤشّر على التاريخ الذي يُسمح لنا فيه بفتح الكبسولة، عادة بعد عشر سنوات في المستقبل على الأقل. كانت هذه آخر واحدة صنعناها، ولسنوات عديدة ظللنا نتأكد دائماً من أنها ما زالت في مكانها كلما زرنا المقبرة.

سحبت يدي، ومسحتها ببنطالي وشرعت في المشي مبتعدة عن العربة المدمرة باتجاه حافة القبر. وبعد عشرين خطوة وصلت إلى حفرة غير عميقة كنت قد تركتها قبل بضعة أيام. لم يبدُ أن أحداً آخر جاء إلى هنا خلال هذا الوقت.

أخرجت قفازات سميكة من حقيبتي، وارتديتها وبدأت بتحريك الأشياء.

لم أكن قد تحدثت عن الأمر لأحد، لكن القرص الفضي هو الذي جلبني إلى هنا. بعد موت أبي، بدا البيت الهادئ وأنه قد لفني في نوم ثقيل، كما لو أن الأرض تسحب دمي باتجاه وعدها بالراحة الأبدية. لم يكن الصمت مجرد صمت

Twitter: @ketab_n

الفضاءات الفارغة التي تركها والداي خلفهما، والافتقار إلى أنفاسهما وكلماتهما وصوت خطواتهما داخل تلك الجدران. كان أيضاً صمت كل شيء تركاه دون أن يقال أو يُحكى، كل شيء أصبح الآن متروكاً لي لأتعلمه وأكتشفه بدونهما. كنت أشرع فقط في إدراك كم كان قليلاً ما أعرفه: عن الينبوع ومعلمي الشاي الآخرين، عن القوانين الغريبة والتوازنات المهدَّدة للتحالفات السرية والرشوة التي كنا نعيش بها، عن هذا العالم القاتم الناضج الممتد مثل صحراء بلا ضوء في كل الاتجاهات حولي ليندغم بضبابية في الأفق. كنت غاضبة منهما لأنهما تركاني وحيدة دون المعرفة التي أحتاج. لماذا لم تخبراني؟ لكنهما لم يعودا هنا، ليس سوى الأرض والريح، وهما بلا كلمات.

لم أكن قد فهمت تماماً بعد لماذا كانت قصة القرص الفضي مهمة كثيراً بالنسبة لي، لأنني لم أعرف كيف أجمع معاً تلك الخطوط التي جعلتها كذلك. كان أحدها خوفي من أنني سأجد سطح الينبوع منخفضاً جداً ذات يوم، أو أنني سأرى جنوداً بالأزياء الزرقاء في الكهف وسيوفهم مسلولة؛ وثمة سبب آخر كان فكرة متبرعمة، أو ربما آملاً شبيهاً بالعبث: أنه يجب أن يكون هناك أكثر من هذا في الحياة، أنه في خارج القرية، في مكان ما تحت السماء، لا بد من أن يكون هناك سبب للاعتقاد بأن العالم ليس جافاً ومحروقاً ومحتضراً بطريقة لا ينفع معها أي إصلاح. ومع ذلك، شرعت الخيوط بالتشابك في عقلي. ودون أن أعرف كيف أحول الفكرة إلى كلمات، شعرت بدافع لأفعل ما أستطيع من أجل استعادة قصة القرص والعثور على القطع الناقصة. بحثتُ عنها في الكتب في مكتبة أمي، وبحثت عنها وسط ركام الماضي المتروك في المقبرة. كنت أدرك عبثية المهمة، لكنني جهدت لكي أبعد عقلي عن الصمت الذي لا رجعة فيه للبيت الفارغ، وكان هناك شيء مهدئ في الأمر: وعد بالتغيير، فرصة مدفونة ربما يُقيَّض لها أن تشهد ضوء النهار بعد.

كان في الحفرة الواسعة غير العميقة التي حفرتها خلال الأسابيع التي انقضت منذ وفاة أبي الكثير من تكنولوجيا الماضية المحطمة. وقد استغرقني الأمر أعواماً لأجد

Twitter: @ketab_n

المكان المناسب، لكنني كنت مقتنعة تماماً بأن هذا هو المكان الذي وجدتُ فيه القرص الفضي أول الأمر قبل بضع سنوات. كنتُ قد ميّزت بعض الآلات ملقاة في المنطقة، متذكرة أن سانيا رفضت االكثير منها لأنها تالفة جداً بحيث لا يمكن إعادتها إلى شكلها مرة أخرى. كانت كل الأجزاء الأساسية مفقودة أيضاً، ولم تعد صالحة لتجاربها. وبقدر ما أتذكر، كان القرص قريباً من السطح، لكن مقبرة البلاستيك تغيرت عدة مرات منذئذ، وإذا كانت هناك أي أقراص أخرى، فإنها يمكن أن تكون قابعة على عمق أكبر بكثير —أو بعيدة عن مكان القرص الأول. ومع ذلك، لم أعرف أين يمكنني أن أبدأ البحث غير ذلك.

تحوَّل ظل العناصر الصلبة وأصبح أطول. دفعَت ذبابات الخيل الصلبة الأولى للربيع بأجسادها الثقيلة إلى الهواء من حولي، ثم حطت على أكوام القمامة الطرية مرة أخرى. سوف أحتاج إلى قلنسوتي قريباً. أحسست بالألم في أطرافي وأصبحت ملابسي لزجة على جسدي. لم أعثر على شيء سوى الخردة المعتادة: قطع من أدوات مطبخ وأحذية مهترئة مكسورة الكعوب؛ شظايا لا يمكن التعرف إليها، وكمية غير محدودة من الأكياس البلاستيكية. أزحت إلى جانب آلة بلاستيكية مسحوقة تخرج بعض الأسلاك من تحت قشرتها الصدئة —كانت واحدة من الأشياء التي اعتبرتها سانيا عديمة الجدوى، وبذلك لم تكن لدي أي فكرة عن الغاية الأساسية منها- حدّقتُ في أكياس البلاستيك المتشابكة أمامي. قررت أن أعود إلى المنزل بعد أن أسحبها من قبضة القبر، حتى مع أنني لم أعتقد بأنني سأجد شيئاً مثيراً للاهتمام تحتها. كانت الأكياس مترابطة في سلسلة طويلة عالقة في الأرض بقوة موجعة. وتمزّق بلاستيكها الجاف الهش في يديّ وأنا أحاول أن أمسك الكتلة المخشخشة بشكل مناسب. في نهاية المطاف، شعرت بشيء ما يستسلم، وانزلقت العقدة بسلاسة خارجة من المقبرة. جمعتُها في كرة ضخمة وألقيت بها إلى جانب.

في الحفرة التي صنعتها لتوي، لم أرَ شيئاً سوى أكياس البلاستيك.

Twitter: @ketab_n

أغلقتُ عينيّ. شعرتُ بعضلات رقبتي متوترة وبصداع يزحف صاعداً إلى مؤخرة جمجمتي. بدا وكأنه يسحب فروة رأسي ويجمعها في عقدة غير سارة، مثل ضفيرة ذيل فرس مشدودة جداً.

حان وقت العودة إلى المنزل بعد بحث آخر غير مثمر أيضاً.

فتحتُ عينيّ. كانت الآلةُ المحطومة من العالَم الماضي التي أخرجتها من الحفرة قبل ذلك ملقاة بجواري. لم تكن كبيرة. كان هيكلها البلاستيكي الصلب مكسوراً في عدة أماكن، كما لو أنها حُطِّمت عن قصد، وعلى أحد الجوانب كانت عدساتٌ زجاجية مستديرة تشبه قاع فانوس يراعات صغير. كان الزجاج مكسوراً بشكل سيئ، وقد سقط جزء منه.

لا بد من أنني رأيتُ حطام هذه الآلة نفسه عشرات المرات في رحلاتي السابقة لصيد الكنوز. لا بد من أنني حملتها في يدي وحركتها عشرات المرات. ولو أنني كنتُ قد نظرت إليها بدقة أكبر قبل سنوات، عندما اختارت سانيا أن تتركها وحين حلبتُ القرص معي إلى البيت، لما كنت قد لاحظت أي شيء يستحق الذكر.

الآن وقع ضوء الشمس على لوحة معدنية غير لامعة، ليست أكبر من نصف إصبعي الصغيرة، منقوشة ومدمجة في جانب الآلة.

حدقت في النقش، وبدا العالَم وكأنه توقَّف من حولي.

قرأت النصّ مرة أخرى، وأخرى.

م. يانسون.

كادت الآلة تتحطم في يدي عندما لففتها في خرقة، ودفعت بها في حقيبتي وخرجت من الحفرة. طقطق البلاستيك وماج وغمغم تحت قدميّ وأنا أسير على أرضية المقبرة بأسرع مما استطعت أن أتخيل.

حتى لو كانت قصة العالَم الماضي المسجلة على القرص الفضي وُجدت في مقبرة البلاستيك، فإن فرصي للعثور عليها بدت غير موجودة. الآن، للمرة الأولى، تجرأت على التفكير بأنه قد يكون هناك احتمال حقيقي، مهما بدا ضئيلاً، لأن أتمكن

Twitter: @ketab_n

من العثور على استكمال للقصة على القرص. كبرَت الفكرة في رأسي مثل غصن أخضر غض يندفع باتجاه ضوء الشمس.

عندما عدتُ إلى البيت، ذهبتُ مباشرة إلى مكتب أمي وأخرجت الآلة من حقيبتي. أزلتُ الخرقة الملفوفة حولها ووضعتها على زاوية المكتب الوحيدة التي لم تكن مغطاة بالكتب والملاحظات المكتوبة باليد. أنزلتُ الستارة، لأن الشمس أدارت ضوءها إلى هذا الجانب من المنزل عندما كنتُ في الخارج. سقط ظل رماديّ مزرقٌّ على الغرفة.

جلستُ على المقعد وحدقتُ في أكوام الكتب. حدقت في الورقة التي كنتُ قد كتبت عليها بأكبر قدر أستطيعه من التفصيل كل شيء تذكرته من التسجيل على القرص الملون. حدقت في الآلة من العالَم الماضي. كانت خرساء مثل حشرة ميتة. توهَّجت شعاعات الغسق بحدة وتسرَّبت من بين شرائح الستارة.

بعثة يانسون الاستكشافية، عصر الشفَق. الأرض المفقودة. م. يانسون.

عرفتُ أنني لا أمتلك كل القطع، وأنني ربما لن أمتلكها أبداً. وعرفت أيضاً أن هناك مكاناً لم أبحث فيه بعد.

كان البيتُ صامتاً وهادئاً، وبيتُ الشاي فارغاً وهادئاً، ولم يكن أحد يسير في الخارج. وإذا كانت روح أبي تتجول في الغرف وبين الأشجار، فقد كانت مسالمة، تحرس المكان الذي عاشت فيه. لم يومض ضوء جهاز الرسائل. رسَم النمل مساراته الرفيعة مثل خيط على بلاطات الحديقة الحجرية وفي زوايا البيت، وأصبح خشب الجدران متهالِكاً، وسقط الغبار على الرفوف دون أن يُلحظ، ولم يكن هناك أحد ليخبرني بما أفعل أو يسألني عما أفعله.

كان الجو مكفهراً في غرفة المعيشة. انفتح باب الخزانة بسهولة عندما فتحته واتكأ على الجدار، وعبق شذا خافتٌ من الورق القديم والحبر العتيق في الهواء.

لم تكن أعقاب الكتب تحمل التواريخ، أو السنوات أو أسماء معلمي الشاي

Twitter: @ketab_n

عليها، ولذلك ترتّب عليّ أن أبحث عن الكتاب المناسب لبعض الوقت عن طريق تصفح الصفحات الأولى من المجلدات المغلفة بالجلد. في النهاية وجدت الكتاب الذي كانت السنوات التي أبحث عنها مكتوبة على صفحته الأولى بيد غير مألوفة.

قلّبتُ الصفحات وشرعت في القراءة.

Twitter: @ketab_n

الفصل الحادي عشر

شربتُ آخر قطرات من كوب الشاي ووضعته على الأرض بجوار كومة الكتب. كانت رقبتي تؤلمني. جنحَت ذرات الغبار الميت وانجرفت في شعاع الضوء الذي يرشَح عبر النافذة. أزحتُ الكتب التي كنت قد فتشتها والملاحظات التي أحضرتها من مكتب أمي، ثم استلقيت على ظهري في الحيز الفارغ الذي صنعتُه على أرضية غرفة المعيشة وأغلقتُ عينيّ. ضغطَت على عضلاتي تجعيدة في قميصي كانت عالقة تحت ثِقَلي. دوَّمت أفكاري في حزمة مشدودة متشابكة، وفي كل مرة أمسكت فيها بأحد الخيطان، وحاولت أن أتعقبه، تشبثت الأخريات متشابكة في عقدة أكثر عناداً.

كنتُ قد قضيت اليومين الأخيرَين في قراءة كتب معلمي الشاي، وتصفحت حتى الآن سبعة منها من حقبة عَصر الشفَق. في النصف الأخير من القرن، كان أربعة من معلمي الشاي قد عاشوا في البيت. أولهم، ليو كيشيو، لم يكُن يهتم كثيراً بالكتابة، وملأ مجلداً واحداً فقط أثناء حياته. كانت المقالات قصيرة ومضمونها جافاً. "مطر هذا الصباح. مضت زيارة الملازم الثاني سالو وزوجته كما هو متوقع. يجب أن أتذكر إصلاح الحذاء." "جاء يناير أدفأ من السنة الماضية. حدث صدع في إبريق الشاي الخزفي." احتجتُ إلى مراجعة كتب أمي القديمة لأتأكد من أنني أتذكر بالضبط ما هو يناير: كان اسم أول شهر في السنة في التقويم الشمسي القديم.

Twitter: @ketab_n

وعلى الرغم من هذا التعقيد، استخرجت الدسم من ملاحظات ليو بسرعة. وقرب نهاية الكتاب، تغير خط اليد، واستغرقتني معرفة السبب بعض الوقت. وحتى أتأكد، فتحت الكتاب التالي في الترتيب، ووجدت اسم ميرو كيشيو مكتوباً على الصفحة الأولى. يفترض أن يكون ابن ليو. أكدت نظرة سريعة على خط يد ميرو شكوكي: يرجح أن تكون الكتابة في الصفحات التي تركها ليو فارغة لميرو.

لم يرث ميرو كياسة أبيه، لكنه أمضى بوضوح قسطاً كبيراً من وقت فراغه في الكتابة. ملأ ستة كتب بكتابة يد صغيرة، وخربش ملاحظات أيضاً على قطع ورق صغيرة فالتة مطوية بين الصفحات. بعض مقالاته لم تكن معنونة. وكان القسم في صفحات كتاب ليو الأخيرة واحدة من هذه. لا بد من أنه كان هناك نقص في معدات الكتابة في ذلك الوقت. ربما استخدم ميرو الصفحات الفارغة من كتاب أبيه من أجل المتابعة في لحظة يأس ما نفد فيها منه الورق.

كانت مقالات ميرو مختلفة تماماً عن مقالات ليو. كتب عن أفكاره وأحلامه، عن مشاعره خلال طقوس الشاي وخارجها. كتب قوائم بالأشياء التي جعلته يبتسم (قطة منكمشة في حضن أحد ما، القضمة الأولى من تفاحة ناضرة، عشب دفّأته الشمس تحت قدمي المرء الحافيتين)، والأشياء التي جعلته عصبياً (فردة حذاء مهترئة، نظارات قديمة جداً حتى لم يعد بالوسع الرؤية من خلالها، نفاد الحبر في وقت يحتاجه المرء فيه أكثر ما يكون).

فتحت عينيّ ونهضتُ على قدميّ. نهضت بسرعة: أعتمَت الغرفة واضطررت إلى الاتكاء على الجدار حتى ذهب شعوري بالنعاس. ذهبتُ إلى المطبخ وسكبتُ لنفسي كوباً آخر من الشاي الذي أصبح فاتراً. عدت، وجلست على الحشية والتقطت الكتاب الأخير من كتب ميرو وكنتُ قد قرأت نصفه فقط. بدت الصفحات هشة وجافة على أصابعي، كما لو أنها قد تتداعى ناثرة الكلمات النحيلة السوداء على الأرض لتحملها الريح. كانت هذه الصلة بالماضي هشة ورثَّة، مثل جسر شديد البلى حتى يصعب عبوره بأمان. ومع ذلك، كانت الكلمات نفسها قوية. وقد امتصتني حتى أنني فقدت مسار الزمن واضطررت إلى تذكير نفسي بما كنت أبحث

Twitter: @ketab_n

عنه. كنتُ مسحورة بالطريقة التي وصف بها معلم الشاي الذي عاش قبل وقت طويل من زمني أيامه: ليالي القمر المكتمل التي قضاها مستيقظاً؛ ذرات الرمال التي نثرتها على أرضية بيت الشاي أحذية الزائر؛ الثلج الذي يذوب مباشرة في الأرض اللامعة المظلمة، والذي لم يهطل أبداً في بعض الشتاءات. كانت تلك القصص والشذرات من حياة تلاشت منذ أمد طويل، والتي تصلني من الصفحات الرقيقة المصفرّة، كثيرة التنوير، كثيرة التفصيل الى درجة أنني لم أستطع رفع عينيّ عنها. لقد عادت عظام هذا الرجل والماء الذي في دمه إلى الأرض والسماء منذ وقت طويل، لكن كلماته وقصصه ما تزال حية تتنفس. كان الأمر كما لو أنّ ذاتي عاشت وتنفست على نحو حقيقيّ وحتميّ وأنا أقرأ قصصه.

تغيرت الظلال في الخارج، واستمعتُ إلى خشخشة الورق تحت يديّ.

لم أغلق الكتاب حتى لم يتبقَّ بالكاد ضوء لرؤية الكلمات. تداعت الجسور وعاد الماضي مرة أخرى ليكون أكثر من مجرد شبكة من الكلمات التي لا تُدرَك خلف شاشة مبهَمة، وأطبق عليّ صمت البيت. ذهب يوم آخر، ولم أجد ما كنت أبحث عنه.

قبل أن أذهب لأنام، خرجتُ لأمشط أرضية حديقة الصخور. أصبحَت الخطوط في الرمال غير مرئية تقريباً في المساء المتأخر. وبينما كنت أختتم، اختلستُ نظرة إلى الطريق الذاهب إلى القرية، واعتقدت أنني أستطيع تمييز هيكلين بشريين يراقبان المنزل من حافة الغابة.

تجمدتُ، ودقّ قلبي بقوة في صدري.

انزلق مُشط الأرض من يديّ. قرفصت لألتقطه من الرمل، وعندما استقمت، كانت حافة الغابة فارغة وهادئة.

في الصباح التالي، ذهبتُ لأبحث عن آثار، لكن الأرض الصلبة والسحادة السميكة من إبر أشجار الصنوبر لم تكشف عن شيء. في الغسق، ربما تبدو ظلال الأشجار مثل أشخاص يراقبون بلا كلل.

بعد بضعة أيام وصلتني رسالة غير متوقعة من أمي. دخلتُ إلى البيت وأنا أحمل

Twitter: @ketab_n

قربتَين مليئتين من الماء الذي اصطففتُ لأجله في القرية، ورأيت ضوء جهاز الرسائل يومض. كدت أُسقِط القِرَب على الأرض واندفعت لأفتح الجهاز. أضاءت الشاشة وقرأتُ خط يد أمي المستدير المتدحرج.

عزيزتي نوريا، كتَبت، أنا آسفة لأنني لم أتمكن من الكتابة أكثر. أفتقدك وآمل أن تتمكني من الانضمام إليّ هنا قريباً. إنني أفعل كل ما بوسعي لأجعل ذلك ممكناً. في الأثناء، هل يمكنك لطفاً أن ترسلي شيئاً من أشيائك؟ ليس كبيراً، وإنما شيء تستخدمينه كثيراً، مثل ملعقة من بيت الشاي أو واحد من أقلامك التي تستخدمينها في كتابة كتاب معلم الشاي الخاص بك. أود لو يكون لديّ تذكار كي أشعر بأنني أقرب إليك بينما لا نستطيع أن نكون معاً. لا تكلفي نفسك عناء تنظيفه أو تلميعه؛ أريده كما هو فقط. جهاز رسائلي يفقد الطاقة ولا أستطيع أن أشحنه حتى الغد في ضوء النهار. لذلك، يجب أن أختصر. محبتي. ليان.

غصتُ هابطة إلى الأرض. كان شعوري بالراحة هائلاً. إن أمي حية. لم أسمع أي شيء منها طوال شهر. التقطّتُ قلم جهاز الرسائل، وكتبتُ: هل أنتِ بخير؟ أفتقدك. أرسلت الملاحظة على الفور، لكنني لم أتلق رداً.

قرأت الرسالة مرة أخرى، لكن شيئاً فيها كان يقلقني.

كلما زادت مرات قراءتي لها، وجدتُ طلب أمي غريباً. كنتُ أعرف أنها تحبني، لكنها لم تهتم كثيراً بالأشياء المادية على الإطلاق. وعندما انتقلَت إلى شينجينغ، تركَت معظم كتبها خلفها دون لحظة تفكير، وكانت تميل إلى إعادة تدوير أي شيء يمكن تدويره دون إسناد أي قيمة عاطفية إليه. كنت قد شاهدتها وهي تهَب كل ألعابي، وتحوِّل ملابس طفولتي إلى أغطية للأثاث ورقع للسجاد وتتخلص بهدوء من مجموعة حجارة كنت قد جمعتها على إفريز نافذة مكتبها. وبالقدر الذي أعرفه، لم تحتفظ بأي من رسوم طفولتي، وكان الشال الذي تلقيته يوم تخرجي هو قطعة الملابس الوحيدة التي أعطتها لي على الإطلاق ولم تكن لها قيمة عملية صرفة.

كان من غير المتوقع أن تريد فجأة شيئاً من أشيائي كتذكار. وكنتُ قلقة أيضاً لأنها لم تقل لي أبداً كيف هي الأمور. كان من الممكن أنها لم تستلم رسالتي. وكان

Twitter: @ketab_n

من المحتمل أيضاً أنني لم أتسلّم ردها. كانت الاتصالات بائسة بسبب الحرب، وربما كانت خدمات الرسائل مراقبة. حاولتُ أن أبقي رسائلي محايدة وغير مؤذية بأقصى ما أستطيع، ولم أرَ سبباً لأن تخضع للرقابة، لكنه كان من المستحيل معرفة كل تدابير الجيش.

على الرغم من أنني لم أفهم طلب أمي، أعدتُ جهاز الرسائل إلى رف الحائط، وذهبتُ إلى المطبخ والتقطتُ ملعقة غير مغسولة كنت قد استعملتُها في ذلك الصباح. كانت بقعة بنية اللون تعلّم المعدن حيث جفت بضع قطرات من الشاي. لففتُ الملعقة بقطعة من القماش، وفتّشتُ في دُرج سفلي عن مغلف من الأعشاب البحرية يُستخدم لإرسال البريد وأسقطت الملعقة فيه. أحضرتُ كتاب معلم الشاي الخاص بي من غرفتي، وانتزعتُ منه ورقة وكتبتُ بضعة أسطر عليها: أمي العزيزة، هذا تذكارك حتى نلتقي مرة أخرى —محبتي، ن. طويت الورقة ودفعتها في المغلف، ثم أغلقت فمه وأوثقته بقطعة سلك. استطعت أن أرسله من القرية في اليوم التالي. وأملتُ فقط أن يجد طريقه إلى شينجينغ.

أصبحَت الأيام أطولَ وأكثرَ دفئاً بسرعة خلال الأسبوعين التاليَين بينما كان الربيع يقترب من الصيف. تدفق الماء عبر الظلام، انفلَت من الصخور المخبوزة بالشمس الحارّة وولّى هارباً. عندما لم أكن أفكر بالكتب أو البعثة الاستكشافية أو والديّ، كنت أفكر بسانيا. كنت أرغب في التحدث إليها، وأقول لها كيف كنتُ أبحث عن طريقي للخروج من الصمت منذ وفاة والدي، لكنني لم أبدُ وأنني عثرتُ على اللحظة المناسبة أبداً. كانت سانيا مكتئبة وهادئة في الآونة الأخيرة، واعتقدتُ أن هناك أشياء لا تقولها لي. لم يكن لديها الوقت أبداً للذهاب للتنقيب في القمامة. وعندما سألتُ عن السبب، كانت تتجنب الإجابة.

كنتُ لا أزالُ أخوض في مقالات ميرو. كنت أحاول أن أضع حكاياته في شكل ما من الترتيب، ولو أنني كنت أعرف أن ذلك سيكون حتماً مجرد وهم. أصبحت المهمة أكثر صعوبة لأنه كان هناك في زمن ميرو معلما شاي آخران في المنزل. وقد ورث ميرو اللقب عندما توفي والده، لكنه لم يكن لديه أي أولاد من

Twitter: @ketab_n

صلبه، ولذلك كان تلميذه هو ابن عمه نيكو كيشيو. على أن نيكو كان قد توفي شاباً، بعد بضعة أشهر فقط من تخرجه، وبذلك ورث ابنه توميو التلمذة واللقب. ولم تكن لدى نيكو وتوميو ميول ميرو الأدبية، وهكذا، قام ميرو بلا تردد باختطاف الصفحات الفارغة في كتابيهما لأجل كتاباته الخاصة.

كان الكتاب الذي أتصفحه مؤخراً قد كُتب قبل وقت طويل من زمن ميرو. وكنت قد وضعت علامة على القسم الأخير الذي كان ممتلئاً بكتابات ميرو، لكن ذلك كان أول جزء عدت إلى قراءته. كانت المداخلة مؤرخة بالسنة النهائية من عَصر الشفَق، والتي عرفتُ من "مجلة" توميو أنها كانت سنة وفاة ميرو أيضاً.

أعرف أن وقت أداء طقسي الأخير أصبح قريباً، وأحب أن أسجل هذه القصة قبل أن يتوقف قلبي. لم أكن قد دونتها من قبل، لأنني لم أعتبر ذلك آمناً. أما الآن، فقد مرت أربعة عقود منذ وقعت تلك الأحداث، ولا أعتقد بأن معرفتها يمكن أن تلحق الأذى بأحد بعد الآن. قد يأتي وقت يكون فيه كل شيء على ما يرام بحيث يتذكّر هذا أحد ويعرفه غير الماء، لأن الكثير من القصص ضاعت، والقليل جداً من تلك التي تبقت صحيحة.

حسبت بسرعة أربعين عاماً قبل ذلك التاريخ. ووجدتها تتفق مع السنة المذكورة في القرص الفضي. تربعتُ على الحشيّة، ووضعت الكتاب في حجري، ومضيت في القراءة.

كان قد مضى عليّ وأنا أعمل معلم شاي بضع سنوات فقط، وكان أبي قد مات قبل سنة من ذلك، عندما سمعت ذات مساء بعد حلول الظلام طرقاً على الباب. وعندما فتحته، وجدت رجلين وامرأة يقفون في الشرفة. قالوا لي أسماءهم وقالوا إنهم على استعداد للقيام ببعض الأعمال في الحديقة والمنزل مقابل الحصول على الطعام والماء. لم يكن ذلك خارجاً عن المألوف في ذلك الوقت. كان كثيرون من الناس قد فقدوا منازلهم وممتلكاتهم في الحروب، وكانت الوسيلة الوحيدة للعديدين كي يحصلوا على الماء والمأوى هي التنقل من قرية إلى أخرى بحثاً عن عمل. ومع ذلك، لم يبدُ هؤلاء الناس مثل المتشردين العاديين. بدت ملابسهم جديدة إلى حد ما وكانت

Twitter: @ketab_n

لهم تلك الريح القلقة التي تسم الهاربين. كان أحد الرجال جريحاً. وكانت خرقة ملطخة قد رُبطت حول ذراعه، وقد تورم الجلد المرضوض من حولها بشدة. ومن تحت حافة الخرقة ظهر وشم: تنين بحر نحيل يحمل في مخالبه ندفة ثلج. الطريقة التي قالوا بها أسماءهم —واحد بسرعة كبيرة، وآخر بتلعثم— جعلتني أشتبه بأن الأسماء مختلقة. لكنهم كانوا منهكين بوضوح، كما لو أنهم كانوا يسافرون لأيام بلا راحة كافية، ولم يكونوا يحملون شيئاً سوى حقيبة صغيرة مصنوعة من تلك المواد القديمة المقاومة للماء. قررت أنهم لا يبدون خطيرين كثيراً وآويتهم في بيت الشاي لقضاء الليلة. لم أكن أحتفظ بشيء كبير القيمة في بيت الشاي، ولذلك لم أكن قلقاً من احتمال التعرض للسرقة، وكنت دائماً خفيف النوم، وعرفت أنني سأسمع إذا ما حاولوا التسلل إلى داخل البيت في منتصف الليل. وكان على الباب قفل قوي لا يمكن فتحه بلا ضجيج. أعطيتهم بعض الخبز والشاي، والبطانيات والوسائد ومصباحا، وقدتهم في الطريق عبر الحديقة. ثم رجعت لتحضير مرهم مهدئ للجرح، لكنني عندما عدت به إلى بيت الشاي، وجدتهم كلهم مستغرقين في النوم. تركت إناء المرهم خارج الباب.

في الصباح التالي، بينما كانوا لا يزالون نائمين، جاء صبي الخباز ليحضر لي الخبز ويتقاسم معي بعض الثرثرات الجديدة. أخبرني بأن الجنود كانوا يقومون بدوريات في القرية في الليلة الفائتة، ويطرقون الأبواب باحثين عن ثلاثة من مجرمي الحرب. وعندما استيقظ ضيوفي، دعوتهم إلى البيت لتناول الإفطار وراقبتهم عن كثب. كان من الصعب قراءتهم، كان سلوكهم جيداً ورسمياً إلى حد ما، كما لو أنهم من ذوي التعليم العالي. وعزز ذلك احتمال أنهم ربما نشأوا وهم يتمتعون ببعض امتيازات الجيش. وفي الوقت نفسه، أذهلتني بعض التعليقات التي أدلوا بها بغرابتها، وبدت غير مناسبة لأناس يجيئون من خلفية عسكرية. وجدتُ أنني لا أستطيع أن أستوعبها. كنتُ بحاجة إلى معرفة المزيد.

بينما كنا نتناول كوباً آخر من الشاي، ذكرت لهم ما سمعته في وقت سابق من الصباح. صمتوا وتحولت وجوههم إلى حجر، وعرفت أنهم لا بد من أن يكونوا

Twitter: @ketab_n

اولئك الذين يطاردهم الجنود. طلبت منهم إعطائي سبباً يجعلني لا أبلغ عن مكان وجودهم.

شرع الرجال في الاحتجاج على ذلك، لكن المرأة أسكتتهم بإشارة من يدها. وعندما تحرك طرف كمها، لاحظت أن لديها وشماً على معصمها، شبيها بذلك المنقوش على ذراع الجريح.

أخبرتني بأنهم كانوا عائدين من الأرض المفقودة، حيث كانوا يحققون في صلاحية الماء للشرب وإنقاذ المناطق من الكارثة. فاجأني ذلك، لأنني ظننت أن الذهاب إلى الأرض المفقودة غير قانوني. وعندما قلت ذلك بصوت عال، اعترفت المرأة بأن رحلتهم الاستكشافية كانت غير قانونية وسرية. رأيت في تعبيرات رفاقها أنهم يفضلون أن يحتفظوا بكل ذلك لأنفسهم، لكن المرأة أخذت رشفة من الكوب، واعتدلت في جلستها واستمرت في الحديث.

علم جيش تشيان الجديدة بأمر رحلتهم بطريقة ما، وشرع في تعقبهم. وقد قُتل قائدهم في رحلة لجلب الماء بالقرب من كولاري، وظلوا هاربين منذئذٍ. وقبل بضعة أيام، فُقد أحد مرافقيهم وأخذ معه مجموعة من النسخ الاحتياطية لتسجيلاتهم وكاميرا الفيديو التي استخدموها لتصوير المواد. كانت بقية النسخ الاحتياطية معهم، ولم يريدوا أن يضع الجيش يده عليها. لم يعرفوا ما إذا كان صديقهم حياً أم ميتاً. وكانت نيتهم الاختفاء بالقرب من القرية لبضعة أيام على أمل أن يتجه الجنود إلى مكان آخر.

كان ثلاثتهم ينظرون إليّ. وكان الرجل الأقصر، ذو الشعر البني يضع إحدى يديه على جرحه الذي بدا أنه يسبب له ألماً مستمراً. التمع العرق على وجهه. ولم يفصح تعبير الرجل الطويل عن شيء.

سألتني المرأة ألا أبلّغ عنهم.

سألتهم عن السبب وراء قدومهم إلى بيت معلم الشاي، ولماذا اعتقدوا أنني سأساعدهم.

"كان أبي معلّم شاي،" قالت المرأة عندئذٍ. وقُتل في حروب الماء عندما كانت

Twitter: @ketab_n

صغيرة، لكنها تتذكر قصصه عن معلمي الشاي الذين يفهمون ماهية الماء.

سألتُ عما إذا كان هناك حقاً ماء نقي عذب في الأرض المفقودة.

نظرت المرأة إلى الرجلين. رأيت الأطول منهما يأخذ نفساً عميقاً ثم يطرق موافقاً في نهاية المطاف.

"يوجد،" قالت. "ونحن نريد أن يكون للجميع، وليس للجيش فقط."

فكّرتُ بقصتها. لم أفهم لماذا يمكن أن تكذب عليّ في شيء كهذا. كان مصيرهم في يديّ. كانت المكافآت عن الإمساك بمجرمي الحرب كبيرة، وإذا أردت الإبلاغ عنهم، كان كل ما عليّ أن أفعله هو الاتصال بشرطة القرية الآن وعلى الفور. كانوا ثلاثة وكنتُ وحدي، ذلك صحيح؛ لكنني كنت بصحة جيدة، وهم ضعفاء. وسوف أكون خارج الباب وبعيداً عن متناولهم قبل أن يدركوا ذلك. وبدا أنهم يدركون ذلك، أيضاً.

قلتُ لهم إنني سأساعدهم.

إذا لم يكن التعبير عن شعورهم بالارتياح حقيقياً، فقد كان ذلك أفضل تظاهرٍ بشيء رأيته في حياتي على الإطلاق.

أخذتُهم إلى المكان الوحيد الذي أثق أنه آمن. كان من المهم ألا يعرفوا حتى هم أنفسهم الطريق إلى هناك، ولذلك اضطررت إلى أخذهم هناك واحداً واحداً، معصوبي العيون وعبر طريق متعرج. كان ذلك شرط العرض الذي قدمته لأمنحهم الملاذ، وبعد المفاوضات، امتثلوا بلا شكوى. عرفت أن هناك احتمالاً لأن يضموا معرفتهم وتخميناتهم عن الموقع ليصلوا إلى اليقين وتعقب الطريق ثانية في وقت لاحق، لكنها مغامرة كان عليّ أن أخوضها. وعندما أصبحوا جميعاً في مكان الاختباء بأمان، قمت برحلة أخرى إلى البيت لإحضار الطعام والملابس النظيفة.

مكثوا هناك أسبوعين. كنت أذهب لرؤيتهم كل يومين، وفي كل مرة أخبرهم بآخر الأخبار من القرية. لم يقولوا الكثير عن أنفسهم، لكنني عرفت بعض الأشياء: كلهم كانوا من الأكاديميين، وبدا أنهم ينتمون إلى منظمة سرية أكبر تناضل من

Twitter: @ketab_n

أجل إزالة القيود عن الماء. بعد أسبوعين أرادوا المغادرة، لأن المكان بدأ يصبح ضيقاً عليهم، ولأنهم قلقون (أو هكذا زعموا) من وضعي تحت الخطر ببقائهم مدة طويلة. وبالقدر الذي أعرفه، كان الجنود قد نقلوا بحثهم إلى القرى المجاورة، ولذلك اعتقدتُ أن مغادرتهم ستكون آمنة بقدر معقول. رسمتُ لهم خريطة تبين طريقاً إلى خارج القرية يقلُّ احتمال أن يكون محروساً وأعطيتهم الماء والطعام. كانوا يريدون الوصول إلى كولوبارفي أولاً ثم يمضون إلى نيو بيتربرغ. أخذتهم واحداً واحداً من المخبأ على منحدر التل، حيث كنت قد تركت لهم صرر الطعام. كان الوقت قبيل الفجر وأوائل الربيع، وكانت السماء قد بدأت تُشرق باتجاه الصباح.

شكروني على لطفي وقالوا إنهم لا يملكون وسيلة لسداد معروفي. أجبتُ بأن بعض الأشياء لا تحتاج إلى سداد.

ابتسمَت المرأة. كانت عيناها غامقتين في غبش الصباح.

"هل تدرك أن أيّاً منا ربما لن يدرك الوقت الذي يجري فيه الماء حراً مرة أخرى؟" قالت.

"أعرف، لكن ذلك ليس سبباً كافياً للتخلي عن الأمل بأن يحدث ذلك ذات يوم."

"سيكون ذلك كافياً للبعض،" قالت.

غادروا، وراقبت هياكلهم المتضائلة، حتى اختفوا في طيات التل.

لا أعرف ماذا حدث لهم. لم أسمع منهم ثانية أبداً. لا أعرف أسماءهم الحقيقية، أو ما إذا استطاعوا إنقاذ المعرفة التي يحملونها معهم. ربما تكون المعرفة قد أنقذتهم. لن أعرف أبداً ما إذا كانوا قد أخبروني بالحقيقة أو أنني قد فعلت الصواب. لكن هذه هي قصتي الأخيرة، وبعد أن سجلتها على هذه الصفحات، يمكن أن يجفّ مائي الآن بحرية.

أغلقت كتاب معلم الشاي وحدقت في الأرضية التي تناثرت عليها الأوراق. كانت القطع تتحرك في عقلي، محاولة أن تشكل صورة يمكن تمييزها. أيمكن أن

Twitter: @ketab_n

يكون أولئك المسافرون الذين يطاردهم الجنود وزاروا منزل معلم الشاي ينتمون إلى بعثة يانسون؟ بدا الاحتمال صغيراً جداً. ومن الناحية الأخرى، ربما يكون ذلك هو الذي يفسر السبب في أن المطاف انتهى بالقرص الفضي إلى هذه القرية بالذات. إذا كانوا قد خافوا من إلقاء القبض عليهم وأرادوا منع الجيش من وضع يده على معلوماتهم عن الأرض المفقودة، فإنهم يمكن أن يكونوا قد ألقوا بتسجيلاتهم في المقبرة.

كنت أكثر فضولاً حول ما إذا كان ميرو قد خبّأهم في التل —بل وحتى في الينبوع نفسه. إن كان ذلك فسيكون شيئاً لم يُسمع بمثله. كل شيء في كلمات أبي وسلوكه أوضح أن معلّمي الشاي وتلاميذهم فقط، عندما يتعلمون ما يكفي، هم الذين يمكن أن يذهبوا إلى الينبوع، وربما بعض أفراد العائلة بين الحين والآخر —كنت متأكدة من أن أمي ذهبت إلى هناك. ومع ذلك، سيكون ميرو قد انتهك كل التقاليد والقوانين المكتوبة إذا خبأ غرباء لم يكن لديه سبب للثقة بهم في الكهف. ولكن، أي مكان آخر يمكن أنه يعني؟ لم يذكر أنه أخذ لهم الماء، وإنما الطعام فقط. وقد أدهشتني الغرابة في أنه لم يصف مكان الاختباء أبداً. كان ذلك غير معهود في أسلوب كتابته المسهب المفصل، ولذلك بدا الأمر اختياراً مقصوداً.

أطلق جهاز الرسائل صفيراً عند المدخل. أملت أن تكون أمي. لم أكن قد سمعت منها منذ طلبت الملعقة قبل بضعة أسابيع. كانت عضلات ساقي قد تخدرت بعد الجلوس الطويل، ومشيت متيبّسة لأقرأ الرسالة. كانت من سانيا.

هل يمكنكِ أن تبيعي لي بعضَ قِرَب الماء بالتقسيط؟ أسرعي! اليوم إذا استطعتِ، كتبَت. سقط حِملٌ بارد في معدتي. لم يسبق أن طلبت سانيا الماء أبداً. فكّرت مباشرة بمينيا. كان لا يزال هناك بعض الساعات المتبقية على انقضاء النهار، سوف أتمكن من الذهاب والعودة من القرية قبل وقت حظر التجول.

Twitter: @ketab_n

أنا في الطريق، أجبتُ. تركت الكتب منثورة على بلاط غرفة المعيشة، وملأت ثلاثَ قِرب بالماء، وحملتها إلى عربة الدراجة وشرعت في مسير بطيء نحو القرية.

Twitter: @ketab_n

الفصل الثاني عشر

كان الباب الأمامي مغلقاً. طرقته، لكن أيّ صوت لم يصدر من الداخل. طرقت مرة أخرى. لا شيء غير الصمت. خلعتُ معطفي وألقيته فوق قِرب الماء في العربة لأخفيها عن الأنظار. مشيت حول البيت إلى ورشة سانيا. جربتُ الباب، لكنه كان مغلقاً من الداخل. نظرت من خلال الجدران الشبكية: كانت هناك آلة نصف مجمّعة من الزمن الماضي على طاولة الورشة إلى جانب كعكة بذور نصف مأكولة، وكانت شفرات مروحة صغيرة تعمل بالطاقة الشمسية تشق حرارة النهار. لم تكن سانيا في أي مكان.

فكّرتُ بقصص العالَم الماضي التي سمعتها عن سفن الأشباح التي بدا أن بحارتها يتبخرون بلا تفسير؛ بقلَم يسقط على الطاولة في منتصف الجملة، بغسيل يتصاعد منه البخار في إناء النحاس، وبشاي يكون ما زال دافئاً في كوبه عندما تصل النجدة.

"سانيا،" لا جواب. "سانيا!" صرختُ ثانية. "كيرا؟ يان؟"

لم يصدر أي صوت من سانيا أو والدَيها. حتى صوت مينيا لم يتردد صداه في المنزل. استدرتُ لأعود إلى الباب الأمامي، لكني سمعت عندئذٍ صليلاً من خلفي. وعندما نظرت في اتجاه الصوت، رأيت سانيا تندفع ناهضة من أرضية ورشتها. كان وجهها ممتقعاً.

Twitter: @ketab_n

"هل كل شيء على ما يُرام؟"

استدارت سانيا إليّ ومسحَت العرق عن جبينها بظاهر يدِها.

"كنتِ سريعة في القدوم." أطفأَت المروحة فوق الطاولة، وفتحت الباب، وخطَت خارجة من الورشة.

"لم أركِ،" قلتُ. "لم أظن أن أحدًا هنا."

"أوه، كنت أفتش تحت الطاولة فقط،" قالت، لكنها تجنَّبت نظرتي. كنتُ متأكدة من أنه ليس ثمة مكان في الغرفة يمكن أن أكون قد فوّتُّ ملاحظته بالخطأ.

"هل كل شيء على ما يُرام؟" كرّرتُ. انسدلَ كتفا سانيا.

"كلا،" قالت. رأيت الدموعَ ترتعشُ وراء وجهها. "مينا..." كان صوتُها يخرج خشناً ومشروخاً. "إنها ليست على ما يرام. أمي أخذتها إلى الطبيب –مرة أخرى– لكن ذلك كان بلا فائدة آخر مرة أيضاً،" ابتلعَت ريقها ورفعَت أنظارها. "تحتاج الأدوية إلى الإذابة في الماء."

خطوتُ خطوةً في اتجاهها، ثم أخرى، ولم تتحرك. لم أرَها تبكي منذ تعثرَت في التل عندما كانت في العاشرة والتوى كاحلُها. شهقَت على كتفي مرة واحدة ثم هدأت. وقفنا هناك لوقت طويل، تحت لسع شمس ما بعد الظهيرة. في النهاية ابتعدَت سانيا عني ونشقَت.

"آنا آسفة،" قالت.

"لا تكوني سخيفة،" قلت وقرصت ذراعها. "أحضرتُ لكِ الماء."

شعرت بالسلوى لأنها حاولت أن تبتسم.

"سأقوم بأعمال التصليح لكِ حتى نهاية العالم، إذا لم تقبلي الدفع بطريقة أخرى،" قالت. فتحتُ فمي لأناقش، لكنها قاطعتني، "ذلك عادل. ليس الأمر وكأن لديك بئراً في حديقتك."

لم أنظر إليها عندئذٍ؛ لم أكن متأكدة مما قد تراه على وجهي.

"تركتُ القِرب في الفناء الأمامي،" قلت. "دعينا نذهب، قبل أن يخطفها أحد."

أنزلنا القِرَب من العربة وحملناها إلى الباب. عندما فتحَته سانيا، اندفعت من

Twitter: @ketab_n

الفجوة رائحة كثيفة جعلتني أفكر بالشَّعر القذر والحليب المتحمض. كانت هناك أكواب فارغة وأطباق مزيتة وقد التصقت بها بقايا الطعام على طاولة غرفة المعيشة وتحتها. لاحظتُ ملابس طفل منقوعة في ماء عكر في قاع حوض الغسيل في الركن. بعضها عليها لطخات كبيرة داكنة. طفت أكوام من الغبار في تيار الهواء على طول الأرضية عندما مررنا بها.

نظرَت سانيا إليَّ ثم نظرَت حولها، كما لو أنها تدرك للمرة الأولى خلال أيام كيف يبدو البيت.

"إنها فوضى مروعة،" قالت. "لا تستطيع مينيا الاحتفاظ بأي طعام في أمعائها، لم نتمكن حتى من غسل كل حفاضاتها."

رأيتُ أنها محرَجة، لأنها طلبت مني أن أشهد آثار المرض.

"يمكنك أن تفعلي ذلك الآن،" قلتُ وحاولتُ أن أبتسم.

حملنا القِرب إلى المطبخ. ساعدتُ سانيا في صب القليل من الماء النظيف في زجاجة رضاعة. شطفَت الزجاجة، ملأتها مرة أخرى وأخرجت من خزانة قطعة قماش، أخذت منها جرعة بمقدار ملعقتين من مسحوق أبيض ووضعته في الماء. هزّت الزجاجة قليلاً حتى يذوب المسحوق. عامَ سديمه الشاحب في الماء الغائم.

سمِعنا صوتَ خطوات قادم من الشرفة. ذهبت سانيا إلى الباب بزجاجة الرضاعة. خطت كيرا داخلة، حاملة مينيا بين ذراعيها. لم أكن قد رأيت مينا لبضعة أسابيع وانقلبت معدتي. كانت هزيلة وضعيفة، وكانت عيناها المشرقتان عادةً محضَ ظلَّين في وجهها ناتئ العظام. كانت كيرا شاحبة وهيئتها غائرة.

"لا يستطيعون قبول مزيد من المرضى،" قالت. "أقرب مستشفى فيه متسع يقع في كوسامو."

"ماذا يتوقعون منا أن نفعل؟" سألت سانيا.

"قالوا أن نعطي المحلول الطبي لمينيا وأن ننتظر انخفاض الحمى."

Twitter: @ketab_n

"لكن ذلك ما كنا نقوم به طوال الأسبوعين الماضيين! هل قلتِ لهم أننا لم نحصل على ماءٍ كافٍ؟"

"سانيا،" قالت كيرا. "المركز الطبي مليء بمرضى أسوأ حالا من مينيا." كان صوتها متعباً ومسحوقاً. "لديهم طبيبان وثلاثُ ممرضات، وبعض المتطوعين من القرية. وهم مدينون بمياه بقيمة ثلاثة أشهر للسوق السوداء. إنهم لا يعرفون ما إذا كانوا سيستطيعون الاستمرار بتشغيل العيادة حتى الشهر المقبل."

أصبح الهواء بيننا ثقيلاً. أدركتُ أنا وسانيا في الوقت نفسه الشيء الذي لا بد من أن تكون كيرا قد فهمته في وقت سابق: ليس للأطباء أي خيار سوى إرسال مينيا إلى البيت لتموت.

أعطتْ سانيا الزجاجة بالمحلول الطبي لكيرا.

"هل هي نظيفة كفاية؟" سألَت كيرا.

"نعم،" قلت. نظرَتْ إليَّ كيرا وسانيا كلاهما بحدة، وعَبر تعبيرٌ عن الفهم وجه كيرا.

"أنت تعرفين أنه لا يمكننا أن ندفع، أليس كذلك؟" سألَت كيرا. كانت الكلمات موجهة إلى سانيا كما كانت موجهة إليّ.

"لا تحتاجون إلى ذلك،" أجبتُ.

جلسَت كيرا في مقعد متهالِك، أخذَت زجاجة الرضاعة وقدمتها لمينيا. كانت لدى مينيا بالكاد القوة لتفتح فمها، لكن كيرا استطاعت أن تجعلها تلعق بضع قطرات السائل من الزجاجة بعد إقناع طويل. ثم حملَت مينيا إلى غرفة النوم.

"سانيا، هل تأتين إلى هنا لحظة،" نادَت.

"سأنتظر هنا،" قلت لسانيا التي أطرقت برأسها. خفضَت كيرا صوتَها خلف الباب، لكنني استطعت أن أسمع كلماتها مع ذلك. وأعتقدُ أنها أرادتني أن أسمع.

"ما كان عليك أن تطلبي منها الماء،" قالت.

Twitter: @ketab_n

"ماذا يسعني أن أفعل غير ذلك؟" سألَت سانيا بتحدٍّ. "لا أستطيع استكمال بناء أنبوب الماء. من شبه المستحيل العثور على الأجزاء المفقودة الآن، والأسعار في عنان السماء."

تنهّدت كيرا.

"أعرف يا سانيا. لا ينبغي أن يكون العثور على الماء مسؤوليتك. لو كانت صحة مينيا أحسن، ربما كنت لأتمكن من القيام بجولات للعمل في الخياطة في القرى القريبة معها، أو لحاولت العثور على عمل في مصنع أحذية الجيش في كوسامو. أريد فقط أن لا ندين بالعرفان لأحد."

سمعتُ ما يكفي. خرجتُ إلى الشرفة وأغلقت الباب ورائي بحرص. جلستُ على الدرجة ونظرتُ حولي: إلى أقراص نبات عباد الشمس العرجاء المطرقة نحو الرمال، إلى المظلة الشمسية المنسوجة من أعشاب البحر، التي تُظلّ زوجاً من المقاعد الشاحبة المغبرة المبعثرة، المشدودة بفوضى في أطرُها الخشبية. بدت الأفنية المحيطة والبيت متشابهة كلها –مجرد انعكاسات رتيبة متعبة لبعضها بعضا، منهدّةٍ تحت ثقل المساء.

لم أعرف كم من الوقت مضى عندما خرجت سانيا من البيت وأغلقت الباب بهدوء وراءها.

"كلاهما نائمتان،" قالت. "أصبح ذلك مشهداً نادراً في البيت مؤخراً."

أبقيتُ صوتي منخفضاً، لكن الكلمات غادرت فمي أكثر حدة مما توقعت.

"هل فقدتِ عقلَك؟"

انتفض رأس سانيا مستديراً في اتجاهي. انشدَّ صدري وضاق عندما رأيت أثر الأسابيع الأخيرة على وجهها، لكنني واصلت.

"هل تدركين كم هو خطير عليك أن تبني أنبوب ماء غير قانوني؟ إذا عثرت دورية المياه عليه –" فكرتُ بالورشة الفارغة، بالقعقعة، بظهورها المفاجئ. "إنه تحتَ

Twitter: @ketab_n

ورشتك، أليس كذلك؟ موقعُ إنشاءاتك."

كانت ملامح سانيا مهتزة من شدة الإرهاق، لكن الضيق، أو ربما اليأس، جعلها تثبتُ لوهلة.

"حصص الماء ليست كافية لنا، ولا نستطيع تحمُّل شراء المزيد،" قالت. "تدبّر أبي ترتيباً ليحصل على جزء من راتبه في شكل ماء، لكن شكله ورائحته يبدوان أحياناً وكأن ملابس داخلية وسخة نُقعت فيه."

عبَستُ.

"ألا تستطيعون الشكوى لأحد ما؟" سألتُ.

شخرَت سانيا.

"لَمن؟ للضباط أنفسهم الذين يعطوننا إياه بشكل غير قانوني؟"

فهمتُ ما تعنيه.

"توقفي،" قلتُ. حدَّقت بي غير مصدّقة. "لا تقتربي أبداً من أنبوب الماء مرة أخرى."

"من الواضح أنكِ لم تضطري للاختيار أبداً،" قالت. "إذا كنتِ ستفضلين أن يُلقى بك في السجن بسبب جريمة مياه، أو أن تتركي عائلتك تموت من العطش."

وقفتُ عاجزة عن الكلام لحظة، لأنها نادراً ما قالت لي أي شيء بهذه القسوة. بدا أن صرامة كلماتها أخذتها على حين غرة. أخذَت يدي وشدَّت عليها.

"أنا آسفة، نوريا،" قالت. "لم أقصد أن..."

"كم تحتاجين؟"

"نوريا–"

"كم؟"

نظرَت إليّ مباشرة. كانت عيناها داكنتين ومشرقتين.

"أكثر مما يمكنك تحمُّله. ملء قربتين كل يوم،" قالت.

Twitter: @ketab_n

"سوف أحضره لك."

هزّت رأسها رافضة.

"إنك تحتاجين ماءك، لا يمكنك."

"نعم، يمكنني،" قلت.

بدا لي أنها ستسأل عن شيء. وشعرت بالامتنان لأنها لم تفعل. لم أكن بحاجة لأن أكذب.

تغير شيء بين سانيا وبيني، شيء لم تكن لديّ الكلمات لأصفه حينذاك، وربما ليس لدي شيء منها، حتى في هذا الوقت. لم تكن قد حدثني عن أنبوب الماء أو عن مرض مينيا، ولم أكن قد حدثتها عن الينبوع.

الأسرار تنحتنا مثلما ينحت الماء الحجر. على السطح لن يتغير شيء، لكن الأشياء التي لا نستطيع قولها لأحد تبلينا وتستهلكنا، وببطء تستقر حياتنا حولها، وتقولب نفسها على شكلها.

بدأتُ أحضِر الماء لسانيا بانتظام. وهي قبلته بلا كلام. انقشع الضباب عن عيني مينا، وأصبحت تحديقتها قادرة على فهم الأشياء التي تدور من حولها ثانية. عادت الكلمات إلى لسانها. كانت أطرافها ما تزال ذاوية مثل غصينات الشتاء العارية، لكن حياتها لم تعد في خطر. كان سلوك كيرا تجاهي خليطاً من الامتنان وتجنُّب المُحرَج. لم يذكر يان الماء أبداً عندما أراه، وهو ما كان يحدث نادراً بما يكفي، لكنه سألني بضع مرات عما إذا كان ثمة حاجة في بيت معلم الشاي أو حديقته تحتاج إلى إصلاح أو بناء يمكن أن يقوم به. ودائماً قلتُ لا.

أثناء ذلك، وصلتُ إلى طريق مسدود في بحثي عن مزيد من المعلومات عن بعثة يانسون الاستكشافية. وباستلهام آخرِ تدوين في مفكرة ميرو، تصفحتُ بقية كتب معلمي الشاي، لكنني عثرت على ملاحظات قصيرة قليلة، لم تخبرني

Twitter: @ketab_n

أيٌّ منها بأيِّ شيء لم أكن أعرفه مسبقاً. مقبرة البلاستيك حرصت على حراسة أسرارها، إذا كانت لديها أسرار أصلاً. لم تُسفر زياراتي عن أي نتائج، سوى جرح تصيبني به قطعة معدن حادة، وحفنة من المكونات التي أضعها في جيبي لسانيا. رفعَ الصمت جداره في وجهي في كل مكان. بقي ضوء جهاز الرسائل مظلماً. دفَع العشب الطري بسيقانٍ خرساء من تربة الحديقة، واستراح غبارُ أبي بلا صوت في كفن الأرض.

ثمَّ، ذات صباح في أواخر الربيع، انكسَر الصمت.

كان اليوم مثل أي يوم آخر يفضي إلى الصيف. تقوَّست السماء الملبدة في لون المعدن المصقول، رمشت شعلات الأوراق الغضة فاتحة الخُضرة على أغصان الأشجار والغيضات المتناثرة. كانت الشوارع هادئة. مررت ببيتٍ يجلس أمامه زوجان عجوزان تحت مظلة مضفورة من أعشاب البحر. رأيت الدموع تنثال على خدّي المرأة المتغضنين. أحاط الرجل كتفيها بذراعيه. أشحتُ بوجهي بعيداً.

عندما وصلتُ بيت سينا بقِرَب الماء، وجدتُها تنتظرني على الباب.

"هل سمعتِ؟" سألَت. رأيتُ التعبير على وجهها وانقبض قلبي.

"ماذا حدث؟ هل كل شيء على ما يرام؟"

"نعم. أقصد، لا." توقفَت عن الكلام، وقد غمر وجهها تعبير مهتاج. "البيت المطلي بالرمادي ذو العلامة الزرقاء على الباب. بجوار المركز الطبي؟"

تذكرتُ النوافذ الفاغرة والستائر المنسدلة، والممر الفارغ عبر الفناء الأمامي، والجيران الذين يتفادون النظر إلي البيت في الشارع.

"لم يكن السكان قد أُخِذوا بعيداً، كما فكر الجميع،" قالت سانيا. "كانوا محتجزين في الداخل نحو شهرين قيد الإقامة الجبرية في المنزل، تحت الحراسة ليل نهار. لم يستطيعوا الذهاب إلىٰ أي مكان، لكن الجنود كانوا يحضرون لهم من الماء والطعام ما يكفي ليظلوا أحياء. هذا الصباح أُجبِروا على الخروج، و..." حاولَتْ

Twitter: @ketab_n

وضع الكلمة بشكل مناسب في فمها. "تمَّ إعدامهم."

"هل أنتِ متأكدة؟" طفَت صورة الدائرة الزرقاء اللامعة أمام عينيّ، صارخة مثل كدمة على خلفية طلاء البيت المشروخ، وانعكس لون السماء في الماء، بلون أزياء الجنود. وجدتُ من الصعب أن أصدق، بالرغم من كل شيء حدث بعد عيد القمر الأخير.

"أبي رأى ذلك،" قالت سانيا. "كان في طريقه إلى الساحة الرئيسية. رأى الجنود يسحبون الناس إلى خارج المنزل ويحزّون رقابهم وسط الفناء الأمامي. كل الذين كانوا يعبرون الشارع شاهدوا ذلك."

حاولت ألا أتخيل المشهد، لكن عقلي تجاوزني قافزاً إلى الأمام: المعدن اللامع يضغط الجلد الضعيف ويعكس لون التراب؛ حركة ذراع بلون الزي العسكري؛ بركة الدم تنتشر على تراب الفناء الشاحب وضوء الشمس يتكسَّر فيها.

"أهذا هو الذي سيحدث منذ الآن فصاعداً؟" سألَت سانيا بصوت مشدود مشنوق. "أي شخص يمكن أن يُعدَم في فنائه الأمامي أو يُؤسر في منزله في أي وقت؟"

"سوف ينتهي ذلك،" قلتُ. "يجب أن يحدث."

"وإن لم يحدث؟" حدَّقت سانيا بي ولم أستطع أن أتذكر أنني رأيت أبداً مثل ذلك التعبير اليائس على وجهها. "الناس لن يتوقفوا عن احتياج الماء. سوف يضطرون إلى المغامرة بأرواحهم ويبنون أنابيب الماء غير الشرعية. أنا —"

أدركتُ ما كانت تحاول أن تقوله لي.

"أنتِ لم تستمري في بناء أنبوب مائك، أليس كذلك؟" سألتُ. أدارت وجهها نحو الأرض، وسقط شعرُها ليغطيه.

"لا نستطيع الاعتماد على مائك إلى الأبد، نوريا،" قالت. "سوف تحتاجينه لنفسك."

Twitter: @ketab_n

فكرتُ بمعلمي الشاي الراحلين، باختياراتهم وواجباتهم. فكرتُ بميرو، الذي فعل ما اعتقد أنه الصواب، ضد كل التقاليد. فكرتُ بوالديّ، اللذين لم يكونا هنا، وبسانيا، التي كانت هنا.

"تعالي،" قلتُ. "أريد أن أريكِ شيئاً."

مشينا إلى التل كما فعلنا كثيراً من المرات عندما كنا طفلتين، عندما نتقمص دور المستكشفين الحكماء الذين لا يخافون في المكان الغريب والبريّ. كانت غيوم قاتمة تبني جداراً يسودُّ على صفحة الأفق، ويطبق على السماء بالتدريج. كانت قدماي تعرفان الدروب ولم تنزلقا على الحجارة. خلف المشهد لاح آخر، موثّق في الذاكرة: كانت مساراته أعرض وقمم التل عالية مثل الجبال البعيدة، والصخور أكبر وأصعب على التسلق، وقيعان الأنهار الجافة جروحاً عميقة في جوانب الصخر. مقارنة بهذه الصورة التي تنجم من امتداد السنين، بدا كل شيء سراباً ومروَّضاً الآن؛ ومع ذلك شعرت كما لو أنني أسير خطوة فخطوة أبعد إلى داخل مكان معتم مُغرِقٍ شديد الانحدار، بل أكثر مما بدا التل في عيني طفولتي. استطعت تقريباً أن أسمع صخور الطريق تهتز من خلفي، وخطوطها تتداعى إلى الرمل. ولو أنني استدرتُ لأرى، فإنني سأرى صحراء فقط، وبعيداً في الأفق أطراف الغابة الحادة داكنة الخضرة، لكن البيت والقرية سيكونان قد ذهبا، وكل الطرق قد دُفِنت، ولن يتبقى لنا خيار سوى المضي باتجاه النقطة العمياء التي كنا نقترب منها.

لم تسأل سانيا أين كنا ذاهبتَين، وتبعتني صامتة.

عندما وصلنا فم الكهف، قالت، "أتذكر هذا! مقرّ جمعية المستكشفين المركزيين والمهمين لتشيان الجديدة."

"اتبعيني،" قلت لها. زحفتُ إلى الجزء الخلفي من الكهف وبحثت في طيات الصخرة عن المقبض الذي عثرَت عليه أصابعي بسهولة الآن. بدا الحجر ناشفاً، خشناً وبارداً. انفتحت الكوة في سقف الكهف. انعكس ضوء فوانيس اليراعات

Twitter: @ketab_n

المضطرب في عينيّ سانيا في الضوء الكابي، كما لو أن أفكارها كانت تومض وترفّ.

"ما هذا المكان؟" سألَت.

"المكان الذي لا وجود له،" قلت.

انحمرت هدأة التل المألوفة علينا ببطء، بينما نسير أعمق إلى قلبه. سمعتُ خطوات سانيا خلفي. ولم يذهب السحر الغريب الذي كان قد بدأ في الخارج. ارتد صدى الينبوع الخافت عن الجدران بهمس، ولم أستطع التخلص من الشعور بأنني إذا ما استدرت، فإن سانيا ستختفي في ثنايا الكهف، وتصبح ظلاً بين الظلال تحت الأرضية. تلبسَت حركاتنا الجدران، رقيقة مثل شباك العنكبوت. لم أتوقف حتى وصلنا الكهف الذي يندفع فيه الماء من الصخرة إلى البركة.

سمعتُ سانيا تلهث ورائي. خطَت إلى جانبي وأمسكت ذراعي. أحسستُ بارتجاف يدها وبفضة طلاء أظفارها القمرية على جِلدي.

"هذا،" قالت. "كل هذا الماء. هل هو لكِ؟"

"نعم،" قلت. انشدَّت قبضة أظفارها. "لا،" صحَّحتُ.

استدارت سانيا إليّ، واخترقتني نظرتها. كانت غاضبة.

"كيف أمكنكِ؟" بصَقَت. "كيف أمكنكِ إخفاء هذا؟ الناس في ذلك المنزل —" كان صوتها يرتجف. "مينيا. كان يمكن أن..."

غمر الخجل وجهي. لم أستطع النظر في عينيها.

"كيف أمكنكِ؟" كرّرَتْ.

تكوَّر الخوف في عقدة ثقيلة في داخلي. لم أعرف ماذا كنتُ لأتوقع — الامتنان؟ الغوث؟ ربما الإثارة، لأنني أعطيت سانيا جزءاً من سري؟ كنت أعرف أنني أضع نفسي تحت الخطر بإحضار شخص آخر إلى الينبوع، لكنني لم أفكر أبداً بأن الخطر يمكن أن يأتي من هذا الاتجاه. لم أعد على يقين الآن.

"يجب أن تعِدي بأنك لن تخبري أحداً،" قلتُ بتسرّع أكثر من اللازم. "أستطيع أن أساعدك فقط إذا ظل الينبوع سراً."

Twitter: @ketab_n

"ليس لك الحق،" قالت. كنتُ ما أزال عاجزة عن حمل نفسي على النظر إليها.

"سانيا،" قلتُ، واستطعتُ بالكاد أن أسمع صوتي. "ماذا تظنين أنه سيحدث إذا عرف أحد بهذا؟" كانت ما تزال تمسك ذراعي. رفعتُ نظري.

تكاثف الظل على وجهها وكان جسمها متصلباً. ثم تحرك شيء وراء عينيها. استرخى كتفاها، ورق تعبيرها، وعاد صوتها هادئاً مرة أخرى.

"لا يزال هذا غير صائب،" قالت.

"أعرف،" أجبتُ.

كان الجو بارداً في الكهف، كحالِه دائماً، تسللت الرطوبة إلى عظامي، لكن وجه سانيا كان محمرّاً من المشي. كان تحمُّلها للبرد دائماً أفضل مني.

"ماذا سنفعل؟" سألتُ. بدأت بخلع ملابسها. أسقطت سترتها على الحجر، سحبت قميصها فوق رأسها وحلت رباط حذائها.

"هل تعرفين كم من الوقت مرّ منذ استحممتُ آخر مرة بماء نظيف؟" سألَتْ. تخلصَت من باقي ملابسها وخطت بحذر إلى حافة البركة. وجدَت مكاناً كان فيه الصخر منحوتاً ومستوياً ومائلاً إلى الماء. رأيتها ترتجف عندما دفعت بقدمها في ماء الينبوع، لكنها أنزلت نفسها في الماء بلا توقف، حتى وصل إلى خصرها. خاضت فيه أعمق وجلست القرفصاء.

لفها الماء مثل حجر ناعم مُلقىً فيه. ظهرت فوق السطح، مرتجفة، وقد التصق الشعر الأسود بجمجمتها، وفي ضوء المصباح المرتعش بدت شاحبة جداً ونحيلة حتى كما لو أنها كانت شفافة تقريباً: روحاً مائية تعلقت على حافة الواقع.

"هل هو بارد؟"

"تعالَي وجربي بنفسك،" قالت.

الأسرار تنحتُنا مثلما ينحَتُ الماء الحجر.

لو أننا ندعو شخصاً آخر إلى الفضاء الصامت الذي يصنعه السرُّ فينا، فإننا لا نعود وحيدين هناك.

Twitter: @ketab_n

خلعتُ ملابسي وخطوت إلى الينبوع. صلّبتُ نفسي أمام برد الماء اللاسع، وجعلته يستقر على جِلدي، حتى وهو يقطع أطرافي ويقرص ظهري. كان الحصى في قاع الكهف قد صُقل واستدار، ولم أستطع الرؤية خلال الماء حيث كنت أخطو في شبه الظلام. انزلقت قدمي، ومدّت سانيا يدها لتسندني.

أخذتُ يدها، وأغلقتُ عينيّ.

تقطَّر الماء في مكان ما بعيد خارج الكهف، وانسحبت الريح فوق الصخور وتغير الضوء ببطء، ونحنُ صامتتان ساكنتان.

على السطح لا شيء يتغير، لكن حياتنا تستقر ببطء حول الأشياء التي لا نستطيع أن نقولها لأحد، وتقولب نفسها على هيئتها.

في نهاية المطاف، أفلتتني سانيا وابتعَدَت. مشت خطوة، وأخرى. تغضّنَ حاجباها في تجعد مرتبك. خفضَت نظرها، محاولة أن ترى عبر الماء في الغبش. مسحَت القاع بقدمها. خطوتُ أقرب إليها وشعرتُ بشيء ناعم ومستوٍ تحت أخمص قدمي، مثل طبق مصنوع من مادة ما، قاسية ولامعة.

"نوريا،" قالت سانيا. "ما هذا؟"

كان صندوقاً من الخشب المصقول، وقد نمت طبقة رقيقة من الطحالب القاتمة الزلقة على سطحه. كان بسماكة اثنين أو ثلاثة من كتب معلمي الشاي موضوعة فوق بعضها تقريباً، وإنما أكثر طولاً. كان زوج من الأحزمة الجلدية مشدودا عليه، ليبقيه مغلقاً. لم يكن هناك قفل على الصندوق. جلبناه إلى ضوء مصابيح اليراعات. شرعت في فك أحد الحزامين.

"هل أنت متأكدة من أن فتح هذا الشيء آمن؟" سألَتْ سانيا.

"كلا،" اعترفتُ. "ولكن ألا تريدين أن تعرفي ماذا في الداخل؟"

هزّت سانيا رأسها وشرعتُ في فك الحزام الآخر.

داخل الصندوق، كان واحد آخر معدني، مغلق بإحكام، لكنه لم يكن مقفلاً أيضاً. كان الماء قد تسرب عبر الطبقة الخارجية، وإنما لم تكن هناك رطوبة داخل الصندوق المعدني. كان يضم لفافة بلاستيكية سميكة، استطعنا أن نرى من خلالها

Twitter: @ketab_n

صرة قماش. أزلت البلاستيك وحلَلتُ القماش الذي تبين أنه قميص بني مهترئ. حدقنا في محتويات الصُرة، غير قادرتين على الكلام.

في طيات القماش كانت ستة أقراص ناعمة فضية اللون.

في تلك الليلة أمطرت، أمطرت حتى أرغت الأرض طيناً غامقاً، وجرت الجداول الصغيرة خلال الحجارة والأفنية وسيقان الأشجار الذاوية. فتح الناس أفواههم وشربوا الماء مباشرة من السماء وشكروا القوى التي لا اسم لها. تدفق الماء إلى الدلاء والأحواض وعلى السقوف، وضمت أصواته المشهد بأصابعها الناعمة التي تحكُّ الرمل والعشب وجذور الشجر.

جلستُ مع سانيا على شرفة منزل معلم الشاي، نشاهد الوهج الواهن لمصابيح اليراعات على الجدران وألواح الأرضية. شعرتُ بدفء البشرة الجالسة بجواري.

لمعَت سبعة أقراص فضية على الطاولة الخشبية.

هبط الليل بهدوء، لم تكن ثمة حاجة لأن يكون أيُّ شيء عدا ذلك.

Twitter: @ketab_n

الفصل الثالث عشر

«هل يمكن أن تعيدي هذا الجزء الأخير مرة أخرى؟» سألتُ.

ضغطَت سانيا الزر ذا السهمين الذي يشير إلى اليسار على آلة التكنولوجيا من الزمن الماضي. كان معصمي يؤلمني من الكتابة. هززت يدي بينما تسقسق الكلمات المعكوسة المعادة في السمّاعات. رفعَت سانيا إصبعها عن الزر، وقال صوت، «– حتى أكدنا كافة النتائج. لكن من الواضح مع ذلك أن كلا من سولتفيليت–سفارتسين، ريفيو ومعظم الأرض بين مالميرغيت وكولاري على الأقل تنتمي إلى مناطق الموارد المائية الصالحة للشرب جزئياً بالفعل. وحسب تقديراتنا، فإنها ستكون كلها كذلك في غضون أقل من خمسين سنة.»

«توقفي هنا،» قلتُ. أوقفَت سانيا القرص، وكتبتُ الجملة الأخيرة في دفتر ملاحظاتي.

كنا قد رتبنا كل شيء في دائرة أنيقة على أرضية الورشة: الآلة القديمة، الأقراص، الكتب التي أحضرتها من مكتب أمي. تناولتُ المجلد الثقيل الذي يحتوي على خريطة للأرض المفقودة من حقبة العالَم الماضي وتعقبتُ عليها أسماء الأماكن بإصبعي. كانت ريفيو هي المكان الأول الذي التقطه نظري. رسمتُ دائرة حولها، ثم عندما انحنيت إلى الخلف، انشدَّت عضلات رقبتي وظهري في عقد مؤلمة.

Twitter: @ketab_n

«أعتقد أنني بحاجة إلى استراحة،» قلت. إننا جالستان هنا منذ ساعات.

هزّت سانيا كتفيها.

«أنتِ التي أردت تدوين كل شيء. سأذهبُ لأحضر بعض الشاي.»

بينما وقفت، واصلتُ البحث عن الأماكن المذكورة في التسجيل وتعليمها على الخريطة.

«ما زلت لا أستطيع أن أفهم ما ستفعلينه بهذه المعلومات، مع ذلك،» علَّقت وهي خارجة.

«ولا أنا،» قلتُ، لكن ذلك لم يكن صحيحاً تماماً.

كانت الأقراص الفضية موضوعة في صفّ فوق القماش الذي كانت ملفوفة فيه. وكانت الأرقام من واحد إلى سبعة مكتوبة عليها. استطعنا أن نحدد ترتيبها من التواريخ المذكورة في بداية كل منها. حتى الآن استمعنا إلى أربعة أقراص كاملة، وكتبتُ محتويات كل منها كي أستطيع ترتيبها في قصة متماسكة. مع ذلك، كانت هناك مشكلة: في بعض الأحيان كان من الصعب فهم الكلمات، فقد أبلى الزمن الصوتَ وجعله رثاً في بعض المواضع وكانت بعض المقاطع ممطوطةً بشكل سيئ حتى أن الآلة كانت تتجاوزها في كل مرة. وفوق ذلك كله، كانت أجزاء طويلة مفقودة، أيام وأسابيع كاملة بين المداخلات الطويلة. شككتُ أنه كان ثمة في الأصل عشرة أقراص، وربما أكثر.

أصبحتُ الآن متأكدة من أن الأقراص كلها جاءت من نفس المكان. كان هناك صوتان ذكريان مميزان عليها، أحدهما كان بوضوح ذلك الذي كنا قد سمعناه على القرص الأول. كنت مقتنعة تماماً بأن المجموعة الغامضة من المستكشفين الذين أبقاهم ميرو آمنين في عصر الشفَق كانت هي ما تبقى من بعثة يانسون الاستكشافية، وأنه خبأها في الكهف داخل التل. لم أستطع التفكير بتفسير آخر لكيف يمكن أن يكون المطافُ قد انتهى بالأقراص في الينبوع. كنت لا أزال آمل أن أتمكن من تعقب مسار المستكشفين، لكن الاستماع مع التدوين في دفتر

Twitter: @ketab_n

الملاحظات وتعقب الخريطة كان بطيئاً حد الإيلام، وكنت أعرف مسبقاً أن القصة لا يمكن أبداً أن تصبح كاملة مكتملة. كان هناك الكثير من الزمن بين وقتنا وبين بعثة يانسون، وقد غامت الكثير من التفاصيل بمرور السنين وذهبت الكثير من الصور إلى غبار العالم الذي لم يعد موجوداً. استطعنا أن نستحضر فقط شكلاً لا يكاد يبين، وقد عتمت المسافة ملامحه وخطوطه.

مع ذلك، وعلى الرغم من مرور الوقت والبِلى، كان هناك شيء في كل هذا جعلني أشتعلُ وأومض، كما لو أن جِلدي أصبح فجأة مشدوداً وقيود حياتي شديدة القرب، أينما تلفتّ. كانت بعثة يانسون قد وُجدت فعلاً. عاش أفرادها وتنفسوا، وملأوا مركبتهم من العالَم الماضي عن آخرها بالطعام والماء والمعدات العلمية، وبطريقة ما حملوها كلها مع أنفسهم عبر حدود الأرض المفقودة المحروسة. تسلقوا الدروب الوعرة التي لم يكن أحد آخر قد سلكها طوال عقود، ونظروا من منحدرات المضائق إلى القرى الغارقة التي أنهكتها المياه. غمسوا أصابعهم في الجداول التي تجري من الهضاب وفي بحيرات الجليد الراكدة، وعندما كشفت معداتهم أن الماء صالح للشرب، أصبحت كل خطوة في طريقهم تكتسب غاية ومعنى.

في أحلامي، كنتُ معهم، في ذلك المكان الغريب، حيثُ صوت الماء أبديّ الحضور. ومع ذلك، لم أستطع أن أرى وجوههم أو أن أتحدث إليهم. كانوا في الخلفية، خارج المتناول، كما لو أنني لم أكن أنا نفسي سوى روح بلا جسد، يحتجزها بخار قاتم، غير قادرة على العبور إلى أرض الأحياء. كانت سانيا بجانبي دائماً، وكل شيء حولنا كان واضحاً: أطرافُ التل البيضاء، الهواءُ الهش، الماء الصافي وهو يعكس السماء، مشرقاً وغير مفهوم مثل عالم آخر ضاجٍ بالضوء.

المسافةُ من الأحلام إلى الكلمات طويلة، وكذلك هي الطريق من الكلمات إلى الأفعال. ومع ذلك، كلما ستمعتُ أكثر، قصّرتُ عن بلوغ اليقين.

انصفقَ الباب. خطَت سانيا داخلة الورشة ووضعَت كوباً من الشاي الفاتر في يدي. ثمة قطرة أراقتها سالتْ سافرة هابطة على جانب الكوب وفوق أصابعي.

Twitter: @ketab_n

«لا أظن أنني أستطيع القيام بالمزيد اليوم،» قلتُ لها. «هل تمشين معي إلى البيت؟»

كان ذلك يعني، بالطبع: هل أنتِ قادمة لأخذِ المياه؟ لكننا لم نقل ذلك أبداً بصوت عالٍ. لم يكن ذلك مُخطّطاً. لم يكن الحديث عن الماء قد أصبح مُحرِجاً بيننا نحن الاثنتين فقط، وإنما بين الجميع في القرية. كان من السهل كثيراً أن يقع المرء في خطأ أن يبدو وكأنه يتبجح بوضعه المائي، أو أنه يتسوّل الماء من الآخرين.

«لا أستطيع اليوم،» أجابَت سانيا. «ذهبَت أمي لتعمل هذا الأسبوع في مطبخ الجيش، يجب أن أبقى في البيت مع مينيا. سوف آتي غداً.»

«لا ينفع غداً. لديَّ ضيوفُ شاي قادمون.»

بدَت سانيا خائبة الأمل، لكنني كنتُ أعرف أنه سيكون من المستحيل عليّ العثور على وقت لها غداً. كان نائب عمدة كولوياري زبوناً كثيرَ المطالب، وكانت زيارات الشاي تملأ اليوم دائماً من شقشقة الفجر حتى المساء المتأخر. لم أكن أتحمل فقدان المزيد من الضيوف. كان العديد من زوّار أبي المنتظمين قد كفوا عن القدوم بعد موته، على الرغم من التعازي والتأكيدات على أنهم سيستمرون طبعاً في الزيارة بعد أن أصبحت الآن معلم الشاي في البيت. في زمن أبي كان زبائن جدد يجدون طريقهم إلى طقوسه بتوصية من الرائد بولين، لكنّ بولين بدا مصيباً عندما قال لي إن زمن عمله كراعٍ لنا قد ولّى. لم أسمع كلمة منه منذ جنازة أبي.

«هل تستطيعين أن تأتي بعدَ غد؟» سألتُ، وأطرقَت سانيا موافقة. سحبتُ قلنسوة الحشرات على رأسي، وأخذت دفتر ملاحظاتي وحقيبتي ومشيت عبر الباب الشبكي إلى جفاف ما بعد الظهيرة المغبرّ في الخارج.

بينما أعبُرُ خارجة من بوابة بيت سانيا، رأيت جندياً يقترب من أطراف القرية. حوّلتُ أنظاري عنه. الكلُّ في القرية تعلموا أن يفعلوا هذا. ومع ذلك، عندما مررنا ببعضنا على الطريق، حيّاني. نظرت إليه بدهشة. استغرقني الأمر بعض الوقت حتى أميزه. كان الجندي أشقر الشعر نفسه الذي رأيته يتحدث إلى سانيا في الصيف

Twitter: @ketab_n

الماضي، عندما جاء تارو وجماعته للتفتيش عن الماء في أملاكنا.

تحولتُ إلى الطريق المتلوية المفضية إلى خارج القرية. رأيت من زاوية عيني أن الجندي وقف عند بوابة سانيا.

لم يكن هذا أول حفل شاي أؤديه وحدي بعد وفاة أبي. كنت قد تعلمتُ البحث عن السلوى في حضوره غير المرئي: كانت ذكرياته متصلة بقوة ببيت الشاي حتى أنني شعرت كما لو أنه ما زال جالساً هناك، يرقب حركاتي، مستعداً لإرشادي بلا قسوة. ومع ذلك، عكَس عقلي صورته هذه المرة كشكل قاتم جدِّي، كما لو أنه يعرف ما أعاني. أجبتُ بطاعة عن أسئلة نائب المحافظ عن الصورة المعلقة على الجدار، وقدمت الشاي والحلويات المجهزة وفقاً للتعليمات الدقيقة، ونقعتُ الشاي حتى أصبح قوياً، تماماً كما رغب. ومع ذلك، لم أستطع كل الوقت أن أتسامى حد الوصول إلى السلام الذي يتطلبه التركيز.

نكثُ الوعد ليس شيئاً يسهلُ حمله. من الصعب إرضاء الموتى، وأحياناً من الأصعب عدم إرضائهم.

تركتني زيارة الشاي مع الشعور بأني مستنزفة. وعندما أقفلتُ أخيراً باب بيت الشاي في الليل المتأخر، مشيتُ إلى البيت في ضوء مصباح اليراعات، وأحسست بأطرافي ثقيلة وهشة مثل الزجاج. كنت منهكة حتى لم أمتلك القدرة على تحضير العشاء. وفي ضوء أوائل الصيف الليلي الخافت، سقطتُ على سريري وغفوت.

أيقظني الطرقُ على الباب.

«نوريا؟» سمعتُ صوت سانيا قادماً من الشرفة. «هل أنتِ في البيت؟»

«دقيقة،» هتفتُ ونهضتُ على قدميّ.

نظرتُ إلى الخارج عبر النافذة. كانت الشمس تشرق زاهية على الحديقة. وضعتُ قدميَّ في الصندل ومشيتُ مترنحة قليلاً لأفتح الباب الأمامي. كانت سانيا تقف في الشرفة، حاملة أربع قِرب ماء فارغة مربوطة معاً في يدها.

«أرسلتُ لك رسالة في وقت سابق،» قالت. «ظننت أنك ربما نسيتِ أن

Twitter: @ketab_n

تردي، لكني أتيت كما اتفقنا.»

كنتُ قد نسيت تماماً أنها ستأتي. اختلست نظرة إلى جهاز الرسائل على الحائط. في الحقيقة، كان الضوء الأحمر يومض. أزحتُ شعري عن وجهي.

«لم أسمع أي شيء،» قلت. «كم الساعة؟»

«ليست متأخرة كثيراً،» قالت سانيا. «التاسعة على أبعد تقدير. أنا أتيتُ مبكرة قليلاً على أي حال.»

فتحتُ الباب أوسع، وتنحيت إلى جانب. دخلت سانيا بقِرها وخلعت قلنسوتها. لاحظتُ الآن فقط أنها تحمل مغلف بريد محبوك من عشب البحر، وأعطته لي.

«صادفتُ ساعي البريد في القرية. وعندما سمع أنني في طريقي إلى هنا، أعطاني هذا لأحمله. قال أن ذلك سيوفر عليه مشقة الطريق.»

«أخذتُ مغلف البريد. ولأنني كنت متأكدة أنه من أمي، فتحته على الفور. في الداخل كان جهاز رسائل، مهلهل قليلاً، لكنه ما زال في حالة جيدة نسبياً، ولا رسالة من أي نوع.

«غريب،» قلت، وكشف تعبير سانيا أنها تتفق معي. «هل أنتِ متأكدة من أنه لي؟»

«هذا ما قاله ساعي البريد.»

حاولتُ أن أشغل جهاز الرسائل، لكن الشاشة ظلت مظلمة.

«لا بد من أن تكون البطارية فارغة،» قالت سانيا.

شعرت أنني أشبه بصَدَفة مخَشخِشةٍ جوفاء، وأدركت أنني لم آكل منذ صباح أمس.

«هل تودّين بعضَ الشاي؟»

أطرقَت سانيا موافِقة وتبعتني إلى المطبخ. وضعتُ جهاز الرسائل على إفريز النافذة، حيث كان تحت ضوء الشمس المباشر. لن يستغرق طويلاً حتى يشحن.

Twitter: @ketab_n

عندما أصبح الماء ساخناً والبخار يتصاعد من أكواب الشاي على الطاولة، وضعتُ إصبعي على شاشة جهاز الرسائل. ومَضَتْ شاشة العرض. كانت سانيا على حق. اشتغلت الشاشة وكان المعرِّف يقرأ بصمة إصبعي. لم يكن هناك ما هو غير طبيعي في هذا: كل أجهزة الرسائل جرى تشفيرها لتميز حساب المستخدم أو حساب العائلة ببصمة الإصبع، وعلى المستوى النظري، يستطيع كل مواطن أن يستخدم حسابه على أي جهاز رسائل متوفر. ومع ذلك، لم يكن الاسم الذي ظهر على شاشة العرض اسمي. آينو فانامو، أعلن جهاز الرسائل. كانت سنة الولادة نفس سنة ولادتي، لكن التاريخ لم يكن كذلك. كان مكان الولادة مسجلاً على أنه شينجينغ.

«ما الأمر؟» سألَتْ سانيا ونهضَت من مقعدها لتنظر إلى جهاز الرسائل. ارتفع حاجباها عندما رأت الشاشة.

«حاولي أنت،» طالبتها. وضعتْ سانيا إصبعها على الشاشة. «سانيا فالاما،» قالت الشاشة. وضعتُ إصبعي على الشاشة مرة أخرى، وظهر التعريف: آينو فانامو.

«رائع،» قالت سانيا لاهثة. «جهاز سفر مزوَّر!» أدركتُ تعبيرها: عنى ذلك أنها أصبحت تتساءل مسبقاً عن كيف تمت قرصنة جهاز الرسائل، وإذا ما كان بوسعها أن تفعل الشيء نفسه. «تمت برمجته ليصل هوية مزورة بسجل بيانات هويتك،» واصلَتْ. «لكنه سيكون في أيدي أي أحد آخر جهاز رسائل عادياً تماماً.»

كان ضوء أحمر ورقم ١ يومضان في زاوية الشاشة ليقولا إن هناك رسالة واحدة على الجهاز. ضغطتُ الضوء بطرف إصبعي.

إذا وصل هذا إليكِ، بدأَت الرسالة، فإن من المهم أن تفعلي ما أقوله لك. ليس آمناً أن تظلي حيث أنتِ. اتصلي ببولين. سوف يساعدك في الحصول على تذكرة قطار. وبمجرد أن تعرفي موعد قدومك، أرسلي لي المعلومات باستخدام هذا الجهاز.

Twitter: @ketab_n

لا تستخدمي جهاز الرسائل الآخر، وإنما اتركيه خلفك عندما تغادرين المنزل. آمل أن أراك قريباً.

لم يكن هناك توقيع، لكنني عرفت خط اليد: إنه خط أمي.

بقينا أنا وسانيا صامتتين فترة طويلة. وأخيراً سألَت، «هل ستذهبين؟»

«لا أعرف،» أجبت. فهمتُ الآن لماذا طلبت أمي أن أرسل إليها شيئاً من أشيائي. كانت تحتاج بصمة إصبعي من أجل جهاز جواز المرور المزور، لكنها لم تطلب ذلك مباشرة خشية أن يكون بريدنا مراقباً. لا بد من أنها اضطرت إلى رشوة أحد ما ليتأكد من أن أتسلم الجهاز. كنتُ قد أرسلتُ الملعقة قبل أكثر من شهر، ولذلك ربما كان الجهاز المزور في الطريق لعدة أسابيع.

كان يجب أن أشعر بالإثارة من عرض أمي. إذا كانت تطلب مني القدوم، فذلك يعني أن شينجينغ مكان آمن نسبياً على الرغم من الحرب. ستكون حياتي أسهل بدون إخفاء الينبوع المستمر وحراسته، دون رؤية الوجوه التي تزداد نحولاً في القرية، دون الخوف من رؤية البيت الذي سيكون التالي ليحمل دائرة زرقاء على بابه. لن أحتاج إلى حمل الماء من التل وأخذه إلى سانيا، ولا إلى تنظيف البيت ورعاية الحديقة وصناعة حلويات الشاي وحدي. سيمكننا أن نصنع الأشياء معاً مرة أخرى، كما كنا نفعل قبل مغادرتها وموت أبي. القلق نفسه الذي لفني في الليلة السابقة وكان ما يزال يتشبثُ بعظامي انسحق في داخلي بقوة، حتى أنني أردت فجأة أن أستلقي على أرضية المطبخ وأدع الأشياء تحدث من حولي وحسب. تمنيت أن يتولى أحد آخر المسؤولية عن حياتي، عن كل شيء أصبح حديثاً فقط جزءاً من روتين حياتي اليومية. بدت لي شينجينغ قصيّة، مغلفة بالضباب الناعم، سهلةً ومرحِّبَة مثل حُلُم.

مع ذلك، كان الشيء الذي أردت الهروب منه يتطلب مني أن أبقى. مَن سيعتني بالينبوع إذا غادرتُ؟ إلى مَن ستذهب سانيا، عندما تحتاج الماء لعائلتها؟ أيّ عقاب يكون قد وقع بها إذا تركتُ الينبوع في عهدتها، وعرف الجيش بأمره

Twitter: @ketab_n

وكنتُ أنا في مكان آخر، في النهاية الأخرى من القارة؟ لم أستطع أن أضعَها تحت مثل هذا الخطر.

وراء كل ذلك، لاحت مسؤولية بدأت تتكون تواً في شكل مسار طريق من مجموع القطع الممزقة المتناثرة: الماء الذي لم يكن موجوداً هنا، وإنما في الأرض المفقودة. كنتُ أستطيع أن أنفّذ رغبة أمي وأسافر إلى شينجينغ، أو رغبة أبي وأبقي هنا لأحرس الينبوع. أو كان بوسعي أن أفعل ما أريد، أن أختار الطريق غير المألوف الذي لم يكُن أيٌّ منهما قد أمِله.

في ذلك اليوم، بدت كل الاحتمالات متساوية. لكنه حتى حينئذ، كان واحد منها قد شرع مسبقاً في التقدم أمام الاحتمالات الأخرى، وشرع يسحبني في اتجاهه.

شربنا الشاي وأكلنا خبز القطيفة الذي غمسناه في زيت عباد الشمس. رأيتُ سانيا وهي تحاول أن لا تزدرد الطعام.

«لطالما تساءلتُ عما إذا كان يمكن كسر حماية الهوية بطريقة ما،» قالَت سانيا. «لدي فكرة حول ذلك. ربما أستطيع أن أفعل الشيء نفسه.»

كنتُ أعرف أنها ستحب أن تأخذ جهاز جواز مروري المزور إلى ورشتها لتدرسه، لكنها لم ترِد أن تطلب ذلك مباشرة ولم أكن مستعدة لأعطيه لها. سوف أحتاج الجهاز إذا قررتُ السفر إلى شينجينغ، وكنتُ قلقة من احتمال أن تمسح المعلومات الزائفة بالخطأ.

عندما أنهينا شاينا وخبزنا، أخذَت سانيا قِرب مائِها إلى صنبور المطبخ وملأتها. سوف أحتاج للذهاب إلى الينبوع في الأسبوع القادم لكي أغلق أنبوب الماء الاحتياطي المفضي إلى البيت. حملنا القِرَب معاً إلى عربتها. كنا قد بدأنا بالإبقاء على صندوق مليء بالأعشاب البحرية في العربة، والذي نخبئ فيه قِرب الماء مسطَّحة. وفوق تلك القِرب كنا نضع قاع العربة الزائف الذي صنعته سانيا. وعندما يكون في مكانه، كنا نحمل الصندوق المزيف بالملابس القديمة وبقِرب ماءٍ قديمة مكسورة. فإذا أوقف حرس المياه سانيا لتفتيش الصندوق —وهو ما كان يحدث من

Twitter: @ketab_n

حين لآخر- فإنهم سيجدون فقط أشياء التصليح والخياطة التي يفترض أنني أوكِلُها إلى سانيا وأمها.

راقبتُ بينما تتركُ عجلات عربة سانيا أثلاماً في وحل الطريق عندما غادرت. ورفرفَ كُمُّ قميص ربِّ من تحت غطاء الصندوق المغلق مثل لهب أبيض فرّقته الريح.

شرعت سانيا في مرافقتي كلما سِرتُ إلى الينبوع للتحقق من سطح الماء. كان الجوّ يصبح حاراً، وفي كثير من المرات يكون بطن التل هو المكان الوحيد البارد. في تلك الأيام، كنا نذهب إلى الكهف فقط لنهرب من حرّ النهار. في السابق كنتُ أسير إلى الينبوع، ألقي نظرة سريعة على سطح الماء وأعود. والآن أصبحت رحلاتنا المشتركة إلى الينبوع أكثر تكراراً. كنا نجلس بجانب مجرى النهر الجاف، نأكل الطعام الذي أحضرناه معنا ونراقب الغيوم وهي تعبر صفحة السماء. في بعض الأحيان كنتُ أقرأ كتاباً بينما ترسم سانيا على جهاز ملاحظات أعطيته لها. ومع ذلك، كان جوهر تلك الزيارات دائماً هو الينبوع، ومع أننا لم نتحدث عن ذلك أبداً، اعتقدتُ دائماً أنها تشعر مثلي تماماً: بأن خطر احتمال أي يجف الينبوع أو يضيع لَم يبدُ لنا حقيقياً. وعندما نسير إلى داخل الكهف وإلى حافة الماء، فإن الأمر يشبه كل مرة دخول عالَم آخر. كان ترَفُ الماء الذي لا يُحَدّ يخصنا وحدِنا، ولَم أكن أريد أن يكون غير ذلك.

لا ينبغي الوثوق بالزمن. يمكن لبضعة أسابيع أن تبدو بداية الأبد، ومن السهل أن يصبح المرء أعمى عندما يعتقد أنَّه ليس هناك ما يحتاج إلى تغيير.

ربما كنا نقضي اليوم كله في ساعة، أو ربما ساعتين عند الينبوع؛ لم يكن لدينا سبب لتعقب الوقت. كانت الشمس حارقة والحشرات شرسة، وظلال الكهف تحطُّ بتأثير مهدئ على جلودنا المسفوعة بحرّ الصيف المبكر. كانت حديقتي تنتظر التعشيب في المنزل، ولدى سانيا طاولة مليئة بعمل الإصلاح في ورشتها، لكننا كنا نتسكع مع ذلك. كانت سائيا في مزاج جيد وتصمم تركيباً من الحجارة السائبة في الضوء الخافت لمصابيح اليراعات التي أحضرناها معنا.

Twitter: @ketab_n

«ما هذه؟» سألتُ. كانت قد صنعت كومة من الحجارة، ووضعت حولها دائرة من التماثل الحجرية الصغيرة التي رُسمت عليها وجوه غاضبة.

«هذا بيت،» قالت سانيا، وأشارت إلى الهيكل الحجري في مدخل الدائرة. «هؤلاء حرس المياه.» وأشارت إلى الهياكل الحجرية التي تحيط بالبيت. «وهاتان نحن.»

أبعدُ قليلاً خارج الدائرة الحجرية كان تمثالان إضافيان. شكلت قطعة من البلاستيك لتمثل دلواً مثبتاً بينهما. وكانا كلاهما يبتسمان ابتسامة عريضة.

«ألا يلاحظنا الحرس؟» سألتُ.

«إنهم ينظرون في الاتجاه الخاطئ،» قالت سانيا. «أريد قصفة من شعرك،» قالت، وبدأت باستلالها من الخصلة التي تركتُها سائبة من ضفيرتي التي في هيئة ذيل الفرس.

«لأي غرض؟» سألتُ ودفعتُ يدها بعيداً.

«كي أستطيع أن أكمِلَك،» قالت.

«كلا، أفضِّل أن أبقى صلعاء،» وضحكتُ، لكنها طاردتني في الكهف، وفي النهاية تركتُها تقص قطعة من أطراف شعري بسكينها المطوية. وضعَت الشعر على واحد من التمثالين الحجريين، وفوقَه حصاة صغيرة لتثبته في المكان. ثم قصَّت قصاصة من شعرها ووضعتها بنفس الطريقة على رأس التمثال الآخر المتسلل خارج أنظار الحرَس.

«الشبَه لا تُخطئُه العَين،» قالَت.

كنا لا نزال في حالة معنوية عالية عندما شرعنا في المشي عائدتين عبر النفق. لم نكن هادئتين بالتأكيد، وتردد صدى خطواتنا وضحكاتنا مضاعَفاً بسبب الجدران. وعندما وصلنا الكوة، أدارت سانيا المقبض في الجدار بلا حذر، واندفع دشٌّ بارد من أنبوب الماء على عنقي. صرختُ وصفعتُ وجهها بضفيرتي المبتلة.»

Twitter: @ketab_n

«هيا، عندما نخرج ستكونين سعيدة بأن ملابسك رطبة وباردة،» قالت بوجه بريء.

«إذن، أنا متأكدة من أن ذلك شيء لا تريدين تفويته أنتِ أيضاً،» قلت وسحبتُها تحت رذاذ الماء. حمحمت، خلَّصت نفسها من قبضتي وأغلقَت الأنبوب من المقبض. كنتُ ما أزال أنفض الماء عن سترتي وبنطالي وشعري، عندما فتحت الكوة بالمقبض الآخر وانزلقت عبرها نازلة إلى الكهف.

«سأكون عندك في لحظة،» هتفتُ بسوانيا. ظلتْ صامتة، ولم أرها في الجهة الأخرى. ظننتُ أنني سمعت صوت اصطدام خافت. «سانيا؟»

ملأتُ القِربة الصغيرة التي كنتُ قد أحضرتها معي وأنزلتُها إلى الكهف. ثم انزلقتُ عبر الفتحة حاملة مصباح يراعاتي وقلنسوة حشراتي المنقوعة بالماء. وعندما رفعت عينيّ، هرَب صوتي.

كانت سانيا تقف قرب فم الكهف وظهرُها باتجاهي، حاملةً أحد المصباحَين. وكان الآخر يرقد شظايا على الأرض الصخرية بجوار قلنسوتها المضادة للحشرات. على باب الكهف وقف هيكل رجل، ترتسم خطوطه الخارجية الحادة كالسيف على خلفية ضوء النهار الخشن. ميزتُ ملامحه في وهج ضوء الفوانيس الذي أصبح باهتاً.

«هذا شيء لا نراه كل يوم في القرية،» قال يوكارا. «شابتان تظهران من طيات التل وهما تقطران رطوبة.»

أدارت سانيا وجهها باتجاهي عندئذ، وحاول عقلي قراءة تعبيرها ألف مرة، ليفهم كل تفصيل. الذاكرة تزل وتنزلق وتتمزق، لكن ثمة شيئان كنت متأكدة منهما عندئذ، ولا أزال كذلك الآن: كانت سانيا متفاجئة مثلما كنتُ أنا، ومع ذلك، كان شعور آخر غير المفاجأة يطفو على السطح.

بدَتْ مذنبة.

لم تكن لدينا أي قصة تغطية نقدمها ليوكارا، بطبيعة الحال. بدت الغلطة

Twitter: @ketab_n

صبيانية إلى حد السخف ومنطوية على الإهمال بعد ذلك، لكنها ارتُكِبت، ولم تعرف أيٌّ منا كيف تصححها. كنا واثقتَين كثيراً من أمن الكهف المختفي ولم نتوقف لحظة لنفكر بكيف يمكن أن نفسر وجودنا في الكهف، في حال عثر بنا أحد هناك. أعتقد أنه كان يمكننا القول إننا نقوم بنزهة، لو كان الوضع مختلفاً. لكن يوكارا رأى الكوة، والمياه المتدفقة، وملابسنا المنقوعة. لم تكن لدينا طريقة لإقناعه بأنه ليس ثمة ماء في الجوار.

لم يسأل، أو يهدد، أو يبتزّ. لم يكن بحاجة إلى ذلك. كان واضحاً أننا إذا لم نقدم الماء له ولعائلته، فإن الكهف سيعج بالجنود في المارة التالية التي نذهب فيها إليه —إذا كان ثمة مرة أخرى من الأساس.

«إنه خطئي،» قالت سانيا لاحقاً في المساء، عندما غادر يوكارا بيت معلِّم الشاي بخمس قِرَبٍ مليئة بالماء. «أنا آسفة. لم أعرف أن هذا سيحدث.»

«ما الذي تقولين؟» سألتُ.

«اضطررتُ للذهاب لرؤية يوكارا في الأسبوع الماضي،» قالت. «نفدت لديّ رقع البلاستيك ولم أعرف أحداً آخر أذهب إليه في القرية يمكن أن يكون لديه شيء منها ليبيعه. تقاضى سعراً عالياً وتصرف بغرابة. طرح أسئلة بخصوصك.» نظرَت إليّ.

«ماذا قال؟» سألتُ، وقد أصبحتُ قلقة الآن.

«اشتكى من أنك لا تأخذين إليه أعمال التصليح، حتى مع أن أباك كان أفضل زبائنه.»

كان ذلك صحيحاً. حتى قبلَ مرض أبي كنت آخذ أعمال التصليح إلى سانيا بالسر، وبعد موته لم أصلح أي شيء عند يوكارا.

«يُقال أيضاً إنه قال أشياء عن أبيك،» واصلت سانيا. «يقال إنه كان يتساءل دائماً كيف كانت لدى أبيك الكثير من قِرب الماء ليصلحها، مع أنه لا يُفترض

Twitter: @ketab_n

أن يكون لديه ماء أكثر من أي أحد آخر في القرية. هو...» احمرّ خدّا سانيا وصمتت.

انتظرتُ.

أكملَت سانيا، «سألني ما إذا كان لدى عائلتك سر أو مصدر ماء آخر.» رفعَت سانيا يديها لتغطي عينيها. «نوريا، لم أقصد البوح بأي شيء! تفاجأتُ كثيراً فقط عندما أسقطتُ صندوق الرقع البلاستيكية التي باعها لي، وانتثَرت على أنحاء أرضية ورشته. لم أقل أي شيء. لكنه كان يشكُّ في شيء مُسبقاً، وعندما رآني مرتبكة، لا بد من أنه قرر اللحاق بنا إلى التل...» تلاشى صوت سانيا.

لم أعرف ما أقول لها، ولذلك قلت، «لم يكن ذلك خطأك. إذا كان يشك في شيء، فأنا متأكدة من أنه كان سيتبعنا على أي حال.»

فيما بعد، عندما غادرت سانيا، فردتُ خرائطي وفتحت دفتر الملاحظات الذي كنتُ قد دونت فيه محتويات الأقراص. بحثتُ عن طرق كانت تُستخدم في عصر الشَّفق، وأخرى ربما ما زالت جيدة بما يكفي للسفر عليها الآن. بدأتُ بوصل أسماء الأماكن التي سمعتها على الأقراص الأخرى، ورسمتُ طريقاً باتجاهها من بيتي في القرية.

Twitter: @ketab_n

الفصل الرابع عشر

بمجرد أن ينهدم الفراغ الصامت حول سرّ ما، فإنه لا يمكن أن يُعادَ كُلًّا متماسكاً مرة أخرى. سوف تصبح الشقوق أطول وأعرَض، وستصل بعيداً وتتفرع مثل شبكة الجذور تحت الأرض، حتى يصبح من المستحيل القول أين بدأ الأمر وإذا ما كان سيصل إلى نهاية.

ما زلت لا أعرف على وجه اليقين كيف انتشر الخبر في القرية. لا أعتقد أن يوكارا قصد أن يحدث ذلك. كان الوصول إلى الينبوع امتيازاً عظيماً جداً وأعطاه الكثير من السلطة. لم يكن ليتخلى عن ذلك طوعاً. فهمت ذلك الآن، لأنني في مكان ما بعيد خلف الكلمات والضوء، في مكان لم أستطع أن أراه أنا نفسي، كنت قد شعرت بالشيء نفسه: كان الينبوع ميزتي التي تعوضني عن عمل كان ليذهب بلا مكافأة بخلاف ذلك. لم أكن قد أدركتُ بعد أن المرء لا يجب أن يتوقع المكافآت عن كل الأفعال.

ربّما أخبر يوكارا زوجته نينيا. لا بدّ من أن يكون قد فعل، لكنه لم يستطع أن يختلق لها قصصاً لانهائية عن المسؤولين الذين أصبحوا فجأة كرماء مفتوحي الأيدي، وتفسيرات عن زياراته المتكررة لبيت معلم الشاي، ليس مع زوجة مثل نينيا. كان إخبارها يعادل عقد اجتماع للقرية وإعلان الخبر هناك. ثم تفجّرت الشائعة وكُبِرَت إلى ثرثرة، إلى أن سمعها حتى أولئك الذين لم يكونوا حاضرين.

Twitter: @ketab_n

في النهاية، لا يهم كيف عرف بقية القرويين عن الينبوع. ذلك لم يغيّر النتيجة. عندما ظهرت امرأة ذات رداء مزيت وملابس غير مغسولة على البوابة مع ثلاثة أولاد ناتئي العظام وطلبت بصوت واهن أن أبيعها بعض الماء بالدَّين، لم أستطع أن أردَّها. وبعدها جاء آخرون، صبي كبير العينين قال إن والديه مريضان كثيراً ولا يستطيعان العمل، رجلٌ عجوز ظل يهمهم عن ابنه الذي اختفى في الحرب، والمزيد من النساء —نساء شابات بأطفال رضع، نساء عجائز بأرحام جافة وسَير متعب وعيون مرهقة، نساء في منتصف العمر يطلبن الماء لآبائهن أو أزواجهن أو أبنائهن.

لففتُ حزاماً جلدياً حول ذراع ماي هارمايا لإبقاء القِربَة ثابتة في مكانها.

"هل هو مشدود كثيراً؟" سألتُ.

"كلا، يمكنُكِ شدُّه أكثر قليلاً،" قالت ماي. شددتُ الحزام أكثر. "تبدو القِربة أكثر ثباتاً الآن،" قررَت. كانت القِربة مشدودة فعلاً إلى أعلى ذراعها، وبدا لي أن لونَ جِلدها يتحول إلى الأرجواني حول الرباط الجِلدي.

أسدلَت ماي أكمامها ولفت شالاً شمسياً رقيقاً حول كتفيها، ولم يُظهر شيء أن ثمة خمس قِرَب مخبأة تحت ملابسها الفضفاضة: اثنتان مربوطتان إلى فخذيها، واثنتان إلى أعلى ذراعيها، وواحدة إلى خصرها. انخضّ الماء قليلاً عندما اتهدّت قدماها على ألواح الشرفة التي أنَّت تحت ثقلها. كانت ماي واحدة من المتطوعين في مركز القرية الطبي، وثالثَ ضيف ماء يزورني في ذلك اليوم.

"هناك أحدُ ما قادم!" نادى فيسا، ابن ماي، من جوار البوابة. أرسلَت قدماه سُحباً صغيرة محلِّقةً من الغبار، مثل لطخات وسط سطوع النهار، بينما يجيء راكضاً باتجاه البيت. كان في التاسعة من عمره ويشعر بالأهمية لأننا أوكلنا إليه مهمة مراقبة الطريق المفضية من القرية إلى بيت معلم الشاي وإخبارنا فوراً إذا ما رأى أحداً قادماً عليه. "لديهم مركبة."

"اذهبي إلى بيت الشاي،" قلتُ لماي. "انتظريني هناك." أطرقَت موافِقة. "وأنتَ أيضاً، يا فيسا." شرعت ماي في المسير باتجاه بيت الشاي على بلاطات الممر

Twitter: @ketab_n

الحجرية، واندفع فيسا وراء أمه قافزاً في نصف ركض.

كان عليّ أن أتصرف بسرعة. ركضتُ إلى غرفتي واستبدلتُ ملابسي بزي مراسيم الشاي الذي كنتُ أبقيه دائماً نظيفاً ومكوياً. في طريقي إلى الخارج اختلستُ نظرة إلى الشرفة لأتأكد من أنني لم أترك قِرب ماء مليئة هناك قبل أن أتجه إلى البوابة. وقفتُ على أكمةٍ صغيرة بجوار جرس الريح المتدلي من شجرة الصنوبر ونظرتُ إلى الطريق. في العربة المقتَربة شاهدتُ سائقاً ورجلَين في أزياء زرقاء، لم أستطع تمييز ملامحهما. أعرف أنني كنتُ قد رتبت لزيارة شاي في يوم الخميس، لكن اليوم هو الأربعاء فقط. أيمكن أن أكون قد خلطتُ في الأيام؟ حاولتُ أن أبقي بيت الشاي نظيفاً بحيث أستطيع إجراء مراسم شاي في مهلة قصيرة إذا لزم الأمر، لكنني كنتُ أكره الزيارات التي لا يكون لديّ الوقت للاستعداد لها مسبقاً. والآن، سيترتب عليّ أن أُخرِج ماي وفيسا من بيت الشاي مع قِربهما دونَ جعل الموقف يبدو غريباً.

لحسن الحظ، كان أنبوب الماء الذي يجري من التل إلى البيت مغلقاً. تجرأتُ على إبقائه مفتوحاً ليوم واحد في الأسبوع فقط، لأنه في حال قامت دورية مياه بتفقد الأنحاء، لم أكن لأستطيع تفسير السبب في أن أنابيب الماء لا تزال تعمل في بيت معلم الشاي، بخلاف كل الأماكن الأخرى في القرية. ولذلك، كنتُ أخزن أكبر قدر أستطيعه من الماء عندما يكون الأنبوب مفتوحاً، وعادة ما كنتُ أملأ قِربَ القرويين من تلك الاحتياطيات. الآن شعرتُ بالامتنان لحذري.

رفرفت العربة بين الأشجار وهي تشق طريقها وتوقفَت تحت سقف العشب البحري بجوار البوابة. وعندما ترجل الضيفان من المقعد الخلفي، رأيت وجهيهما وحدّقت. أحدهما كان غريباً عليّ، لكن الآخر كان الجندي أشقر الشعر نفسه الذي كنتُ قد رأيته خارج بوابة منزل سانيا قبل بضعة أسابيع فقط.

"مرحباً بكم في بيت معلم الشاي،" قلت وانحنيت. "هل لي أن أسأل عن سبب زيارتكم غير المتوقعة؟"

انحنى الجندي أشقر الشعر رداً على تحيتي.

Twitter: @ketab_n

"لا أعتقد أننا تعارفنا،" قال. "أنا الملازم موروموكي وأعمل تحت إمرة القائد تارو. وهذا هو الكابتن إيوهالا." أطرق مرافقه برأسه في اتجاهي. "أتيتُ إلى هنا بتوصية من الرائد بولين. أعتقد أنك تتوقعيننا لحفل شاي اليوم."

انشدّتْ رئتاي وعَلُق نفَسي في حلقي. تم الترتيب للحفل كتابة، كما هي العادة، ولم يكن اسم كوروموكي مألوفاً لي، لم أقِم الصلة بين الاسم وبين الوجه الذي أراه الآن أمامي. أملتُ أن يكون صوتي قد بدا ثابتاً عندما أجبت، "كنتُ أتوقعكم غداً، ملازم موروموكي، الرسائل التي استلمتها ذكَرَت تاريخ الغد، وقد أكّدتُ التاريخ في ردّي عليك."

أمال موروموكي رأسه. بدا مثل كلب ضيق الوجه يلتقط رائحة فريسة في الريح.

"ذلك غريب، آنسة كيشيو،" قال. "أنا متأكد من أنني أمليت هذا التاريخ على الكاتب. غداً ليس ممكناً على الإطلاق."

"لدي ضيوف شاي الآن،" قلتُ. "لكنهم يستعدون للمغادرة. إذا كنتم تستطيعون الانتظار نصف ساعة، سيكون لي الوقت لأرتب بيت الشاي لكم. أخشى أن الحلويات ليست طازجة تماماً. كنت أنوي صنع المزيد صباح الغد قبل وصولكم."

"إذا كان لديكِ ضيوف شاي فعلاً، لماذا لستِ في بيت الشاي؟" سأل موروموكي.

"نسيتُ إحضار الحلويات من البيت قبل بدء المراسيم."

"سوف نعود إلى الأمر في نصف ساعة، عندئذ،" قال موروموكي. انحنيتُ له ثانية، وعاد هو وضيفه إلى العربة في الظل.

ذهبتُ إلى المطبخ ووجدتُ طبقاً من حلوى الشاي القديمة في إحدى الخزائن. تحققتُ بسرعة من أنها ليست متعفنة وتذوقتُ واحدة: كانت جافة، وإنما ليس زنخة. ينبغي أن تنفع. حملتُ الطبق إلى بيت الشاي. كدتُ أدخلُ عبر باب الزوار المنزلق، وفي اللحظة الأخيرة تذكرتُ أن أستخدم باب المعلِّم خلف المبنى. نظر ماي

Twitter: @ketab_n

وفيسا إليّ بتساؤل عندما دخلت إلى الغرفة.

"يجب أن تكونا حذِرَين،" قلتُ لهما. "هناك جنديان عند البوابة. وهما يعتقدان بأنكما هنا كضيوف شاي. سوف أشيعكما إلى البوابة. وعندما تستأذنين في المغادرة، اشكريني على الحفل، ناديني بالآنسة كيشيو وانحني. هل أنت واثقة من أنك تستطيعين حمل كل هذه القِرَب بأمان؟" سألتُ ماي. كان وجهها قد سقط وبدأت بمضع ظفر إصبعها الصغير.

قامت ماي ببعض الحركات، كما لو أنها تختبر عضلاتها تحت ثقل الماء.

"نعم،" قالت.

نظرت ماي إلى فيسا. هز رأسه، وظل رأسه يتحرك صعوداً وهبوطاً مرة وأخرى. بعد ذلك، هزت رأسها هي أيضاً. أشرت إلى مدخل الضيوف.

بدا لي أن قِرب ماي كانت تنخضُّ بصوت عالٍ مع كل خطوة تخطوها باتجاه البوابة بينما نسير على ممر الحديقة. رأيتُ حركات فيسا من زاوية عينيّ، وخشيتُ أن يشرع في القفز أو أن يفعل شيئاً غير مناسب بالنسبة لزائر شاي.

عندما وصلنا البوابة أخيراً، انحنيتُ لماي. انحَنَتْ هي في المقابل بتوتر، وحذا فيسا حذوَها.

"شكراً، معلِّمة كيشيو. كانت زيارتي لك من دواعي سروري."

"شكراً لك، سيدة هارمايا. لعل المياه النظيفة تتدفق في طريقك."

كان موروموكي قد نزل من العربة ليحرِّك رجليه. وعندما مشى ماي وفيسا إلى الأرض المفروشة بالحصى بين الأشجار، تحدث إلى فيسا.

"أنتَ صغير قليلاً للمشاركة في حفل شاي."

لمحتُ شعورَ ماي بالخطر، لكنها استجمعَت نفسَها بسرعة مذهلة. لقد علَّمَنا حضور دوريات المياه والجنود الذين يراقبون القرية كيف نخفي آثار مشاعرنا جميعاً؛ ما تزال عضلاتنا ووجوهنا وألسنتنا تتذكر الشكل الطبيعي للحياة، ولذلك كانت سريعة في استئنافها عند الحاجة. وضعَت ماي يداً ثقيلة على كتفِ فيسا وقالت،

Twitter: @ketab_n

"أحاول فقط تعليم الصبي بعض السلوكيات. يريد أن يصبح مسؤولاً عندما يكبر."

ابتسم موروكومي، وفكرتُ في الكلب الجائع مرة أخرى.

"هكذا هو الأمر إذن؟ حظاً سعيداً بالنسبة للمهنة، يا فتى،" قال ومسح على شعر فيسا الداكن بيده.

انحَنَتْ ماي لموروموكي وقادَتْ فيسا إلى الأمام.

"وداعاً، سيدتي!" هتف موروموكي خلفهما. مشيا ببطء، ولم تكن خطوات ماي خفيفة. استمر فيسا في اختلاس النظرات من فوق كتفه، عيناه واسعتان، لكن ماي أدارت وجهها بصرامة باتجاه الطريق أمامهما. كانت حركة يدها قوية.

"سوف أدق الجرس عندما يصبح كل شيء جاهزاً،" قلت لموروموكي. استدرت واندفعت إلى بيت الشاي، وفي كل خطوة تساءلتُ عما إذا كان قد لاحظ شيئاً خارجاً عن المألوف.

رنت الأكواب لدى اصطدامها ببعضها وأنا أضع الصينية على أرضية بيت الشاي، لكن موروموكي لم يُظهر أي علامة على أنه لاحظ ارتعاش يديّ. أخفيتُ توتري خلف شكل المراسم بقدر ما استطعتُ: تركتُ الحركات المألوفة تنساب على سجيتها، وفي الوقت نفسه حاولتُ أن أقرأ خلسة آثار الشك أو الانتصار في ملامحه. لم أجد أياً منها. كان موروموكي يعرف آداب الطقوس بشكل غير متوقع ولم يطرح أسئلة غير عادية. كان يتحدث مع ليوهالا بصوت منخفض ولم يكن أي شيء يوحي بأن هذا يمثل أي شيء سوى فترة استراحة من العمل بالنسبة لهما.

الهدير الناعم للماء القريب من الغليان في المرجل هدأني. ذكّرتُ نفسي بالفكرة المتأسسة في قلب مراسيم الشاي: أمام الشاي، الجميع متساوون، حتى لو أن ذلك لا يعبر إلى حياتهم خارج جدران بيت الشاي أبداً. بدأت أعتقد بالتدريج أنه جاء إلى هنا من أجل حفل الشاي ولم يكن تنفيذاً لأوامر تارو، وأن قدومه في اليوم الخطأ نجم عن سوء فهم فعلاً. لم يأتِ موروموكي على ذِكر تارو مرة أخرى، ولم يتحدث عن أي شيء سوى نوعية الشاي، ومعداته، وعن الشتاء الأخير البارد بشكل غير

Twitter: @ketab_n

اعتيادي. وجدتُ نفسي أفكر: أيمكن أن يكون هناك عالَم لا يحتاج فيه الناس إلى اختيار جانب ينحازون إليه، حيث يستطيع الجميع الجلوس معاً لشرب الشاي دون أن يحوز أحد السلطة ويعيش آخر مع الخوف؟ كان ذلك عالَماً لطالما حلُم به معلمو الشاي، والذي بنوه، وحرَسوه —ولكن، هل كانَ حقيقياً في أي وقت، وهل يمكن أن يكون كذلك أبداً؟

في ذلك العالَم، والذي ربما لا يكون هذا العالَم، انحنى موروموكي وتناولَ الشاي الذي قدمتُه، ولم أحتَج إلى تصنيفِه كصديق أو عدو في ذهني.

في هذا العالَم، انحنيتُ له في نهاية المراسم وخرجتُ من مدخل معلِّم الشاي. تداعى وهمُ وجود مكان بلا سلطة في غبش بيت الشاي. شيعتُ موروموكي وليوهالا إلى البوابة ولم أعرف ما إذا كنتُ خدمتُ لتوي صديقاً أم عدواً.

في تلك الأسابيع التي أحاطت بوقت الانقلاب الصيفي، عندما تدفق الماء سراً من التل إلى بيت معلم الشاي، ووجد القرويون طرقاً لا تعدّ لنقله من هناك إلى بيوتهم —تحت ملابسهم، داخل صناديق خفيّة في صناديق العربات، تحت خردة الخشب والأثاث والخِرق التي تظاهرتُ بأنني أبيعها أو أرسلُها للتصليح، وهكذا- قضيت كل دقيقة استطعت ادخارها خلف باب غرفتي المغلق، أفحصُ الخرائط والملاحظات. نظرتُ في أسماء الأماكن، نظرتُ في الطرق، محاولةً تقدير صلاحيتها للاستخدام، وقمتُ بقياس المسافات، وبحثتُ في التضاريس محاولةً تخمين الوقت الذي يستغرقه السفر بالعربة الآلية من مكان إلى الذي يليه. أمضيتُ أسبوعاً وأنا أحسِبُ الساعات والأيام التي يمكن أن تستغرقها الرحلة إلى الأرض المفقودة والعودة، قدَّرتُ كمية الطعام والماء التي يمكن أن تحملها العربة، وكم سيبطئ وزن الحِمل من سرعة السفر. اعتقلتُ حفنةً من يراعات الضوء داخل مصباح وبدأتُ أسقِط لها قطعاً من الفواكه حتى أرى كم من الوقت يمكن أن تعيش وتُنتج الضوء، إذا لم أدعها تخُرج.

في نهاية المطاف، ذات يوم غائم عندما كان نصف شهر قد مضى على

Twitter: @ketab_n

انتصاف الصيف، أخبرتُ سانيا عن خططي.

كنا نجلس على حشيّات على أرضية ورشتها. كان معي كتابٌ مفتوح على حُجري. حلَّقت ذبابة كبيرة عالقة في الداخل صاعدة وهابطة على الجدار الشبكي، منتقلةً من الأرض إلى السقف وعائدة مرة أخرى. كانت سانيا تضع قرصاً فضياً يحمل الرقم سبعة في الآلة من العصر الماضي. وتكوّمت الستة الأخرى في الصندوق حيث أحتفظُ بها. كان هذا القرص الأخير هو الوحيد الذي لم ننتهِ من سماعه.

"سانيا،" بدأتُ. "هل سبق أن تساءلتِ كيف تبدو الأرض المفقودة الآن؟"

"لماذا أفعل؟" سألتْ وضغطَت غطاء فجوة الآلة وأغلقَتهُ. هززت كتفَيّ، لكنني لم أجب. رفعتْ أنظارَها وحدَّقت بي. ضاقت عيناها. "لا يمكن أن تكوني جادة،" قالَت.

"لِمَ لا؟" أظن أنني أدركت عندئذ فقط كم كنتُ جادَّة. أخرجتُ خريطةً من حقيبتي كنت قد حزمتها في وقت أبكر لكي أجلبها معي.

"نوريا،" قالَت سانيا. "ليس لديكِ سوى بضع شذرات من الماضي. وحتى لو أن البعثة كانت حقيقية، فإنه ليس لدينا القصة الكاملة لرحلتها. إذا كان هناك ماء نظيف في الأرض المفقودة في عصر الشَّفَق، فليس هناك أي ضمان على الإطلاق بأن يكون بعضه ما يزال متبقياً الآن. ثم، كيفَ يمكن أن تصِلي إلى هناك أصلاً؟"

"عبر الطرُق،" فردتُ الخريطة التي كنتُ قد رسمتُ عليها الطريق المحتمل. "روفانيمي تقع على حدود الأرض المفقودة. أظن أنني سأتمكن من الوصول إلى هناك بعربة آلية، وسيكون من السهل قيادتها كل الطريق إلى هناك. لقد بحثت في تلك الخرائط، وتلك الكتب القديمة، والملاحظات، والأخبار الحالية أيضاً. أنا متأكدة تماماً من أن هناك العديد من الطرق غير المحروسة التي تعبر الحدود إلى الشمال من روفانيمي. كانت طرق العالَم الماضي عريضة وحسنة الإنشاء، شيدت لسير لمركبات السريعة. لا بد من أن يكون الكثير منها ما زال قابلا للاستعمال، لأن هناك أناساً يعيشون في تلك المناطق، تماماً خارج الأرض المفقودة. بعثة يانسون

Twitter: @ketab_n

استخدمت الطرق القديمة، ونستطيع نحنُ أن نسلك المسار نفسه الذي —"

"انتظري لحظة،" قاطعتني سانيا. "مَن تقصدين، 'نحنُ'؟"

أدركتُ أنني تكلمتُ بلا تفكير. احمرَّ وجهي.

"فكَّرتُ أنكِ ربما تحبِّين الذهاب معي،" غمغمتُ، مُحرجَةً.

حدَّقت سانيا فيّ، وأدركت أنني لم أتخيل أبداً فكرة الذهاب وحدي. في كل أحلام يقظتي كانت موجودة هناك معي، تقرأ الخريطة، تتولى الملاحة بمعونة النجوم، تتسلق الجبل وتستكشف الكهوف معي. لم أكن قد فكرت فعلاً في احتمال أنها ربما لا تريد الذهاب، أو بما سأفعله ما إذا كانت فرصتي الوحيدة هي أن أذهب وحدي.

"نوريا،" قالَت سانيا. كان وجهها هادئاً رغم كلماتها عندما تحدثَت إليّ. "كيف يمكنني أن أذهب؟ لا يستطيع أبي وأمي ومينيا النجاة هنا بدوني. لا أستطيع أن أتركهم. وإلى جانب هذا، الطرق كلّها مراقبة. كيف يمكنني حتى أن أصل روفانيمي؟ ليس لديَّ جهاز سفر مزور مثلك."

"قلتِ أنكِ ربما تستطيعين قرصَنة واحدٍ آخر،" ذكَّرتُها.

"ربما،" وتنهدَت سانيا. "هناك الكثير من 'ربما' في خُطّتك. وماذا إذا، إذا استطعنا الوصول إلى الأرض المفقودة بطريقة ما، ولم يكن هناك أي مياه باقية هناك؟ سيكون الأمر كلُّه مضيعة للوقت."

"أعرف أنه يوجد ماء هناك،" قلتُ. "يجب أن يكون."

لم تستسلم سانيا.

"حتى لو كان،" قالت. "ماذا عندئذٍ؟"

كانت على حق، بالطبع. حتى لو وجدنا الماء فعلاً —لو وجدتُ، صحَّحتُ في عقلي— لن تكون لديّ أي طريقة لجلبه إلى القرية. كم من القرويين سيكونون راغبين في المغادرة إلى أرض غريبة، فقط من أجل وعدٍ غامض بالماء؟ وحتى لو كان بعضهم يائسين كفاية ليبحثوا عن مكان جديد للعيش، فإن الأرض المفقودة

Twitter: @ketab_n

محظورة، لا يمكن الوصول إليها. ربما يتمكن مسافر أو اثنين من شق طريقهما إلى هناك، لكنه كلما زاد عدد الناس الذين يقومون بالرحلة، أصبح الأمر أكثر صعوبة.

أحسستُ بأن التخلي عن الخطة التي كانت تتخذ شكلاً طوال أسابيع وأشهر هو أمرٌ لا يطاق، لكنني ربما كنت مستعدة للمحاولة، لدفنها تحت الاستحالة وجعلها تذهب بهدوء، لو أنّ ذلك اليوم اتخذ مساراً مختلفاً، لو أنّ ما حدث تالياً لم يحدُث.

شغَّلَت سانيا آلة الزمن الماضي. شرع القرص في الدوران في عُشه، وذكر صوتٌ ذكوري التاريخ الذي كنتُ قد دونته في وقت أبكر. تحدث عن نتائج البحوث والطقس. تعقبتُ ملاحظاتي، وبدأت في تدوين ما يقوله عندما وصل التسجيل جزءاً لم نكن قد استمعنا إليه من قبل. بعد نصف صفحة أو نحو ذلك من الملاحظات الجديدة، توقف الصوت فجأة في منتصف الكلام. صدر صوت طقطقة، ثم أزيز، ثم تردد صوت أنثوي في السماعات. قال الصوت، "محاولة أخرى. نيلز، إذا كنت تسمعُ هذا، أنا آسفة لأنني أسجل فوق فوق تسجيلك، لكن هذا أكثر أهمية." وصمتت للحظة.

نظرتُ إلى سانيا، ورأيتُ أنها هي أيضاً تعرفت إلى الصَّوت. كنتُ في الفترة الأخيرة قلقة كثيراً بشأن طريق رحلة بعثة يانسون، حتى أنني نسيتُ تقريباً تلك المرأة التي كانت حكايتها قد قُطعت في نهاية القرص الأول. لم يظهر صوتها على أي من الأقراص الأخرى. ومع ذلك، كان هذا نفس الصوت بالتأكيد، وتلوَّت الإثارة في داخلي مثل السمكة في الشِّباك. انغلقت الفجوة بين هذه اللحظة وعصر الشفَق على غير توقُّع. حبستُ أنفاسي، بينما تتدفق كلمات المرأة التالية في فضاء الغرفة.

"من الصعب أن أعرف من أين أبدأ،" قالت المرأة على القرص. "التاريخ لا بداية له ولا نهاية، هناك فقط أحداث يعطيها الناس شكل القصص حتى يفهموها أفضل... وحتى يحكي المرء قصة، فإنه عليه أن يختار ما لا يقول."

استمرَّت في الحديث، ونحن استمعنا، وكل الكلمات التي لم تكن لها تلاشت

Twitter: @ketab_n

من دواخلنا. في الخارج كانت الغيوم تغطي السماء، وخلفها كانت السماء تتخذ لون الصيف العميق، حتى ولو أننا لم نكن نراها. نبتَ العشب، وتنفَّس الناس، ودار الكون. أما في الداخل، في هذه الورشة، بتلك الكلمات تغير كل شيء: تغير ما كنا نعرفه، تغير ما كنا نحسُّ به، تغير مثل بحر يصعد ويبتلع كل الشوارع والبيوت، ولا ينسحب، ولا يعيد ما أخذ.

عندما أصبح القرص أخيراً يغزلُ في فضاء الغرفة صمتاً أجوف، رفرفَ النفَس بعفوية في رئتيّ. ثمة شيء تحوَّل في داخلي، في داخلنا. وعندما نظرتُ إلى الخارج، كان كما لو أنني أفتح عينيّ للمرة الأولى، ورأيت كل شيء أكثر صفاءً: الحجر الخشن وسط الفناء الخلفي، الأطراف الشائكة لشجيرة ناشفة، وبيت عنكبوت منكسر عند المفصل.

بمجرد أن يتحطم الحيز الصامت حول سِرّ، فإنه لا يمكن أن يُرمَّم مرة أخرى.

"أتعتقدين أن ذلك صحيح؟" سألَتْ سانيا أخيراً. كان صوتها ضعيفاً، ولم تنسحب الهوة المشروخة من حولنا، وإنما استقرت بعمق، وكان من المستحيل أن تذهب مثل المحيطات. "كل شيء قالته؟"

"نعم،" قلتُ. "أعتقد أنه صحيح."

"وأنا كذلك،" قالت سانيا.

أطفأت آلة الزمن الماضي. أبطأ القرص ثم توقف أخيراً. من بين كل حالات الصمت التي واجهتنا كان هذا أقواها وأكثرها حتميَّة: ليس صمت الأسرار، وإنما صمت المعرفة.

في تلك الليلة، عندما كان المنزل فارغاً والحديقة ساكنة، ولم يكن أحد يتحرك على الطريق، مشيتُ إلى الينبوع. كانت الشمس تلامس الأفق، لكنها لم تسقط تحته، وكانت الليلة الصيفية أكثر إشراقاً من يوم في منتصف الشتاء.

ألقى مصباحي وهجاً على جدران الكهف الصخرية المعتمة. وعندما خفضته بقرب سطح الماء، رأيت ما كنتُ قد أحسستُ به مُسبقاً منذ وقت طويل.

Twitter: @ketab_n

السطحُ غار. ليس إلى حد خطير، وإنما كان أخفض مما تذكرتُ أنني رأيته من قبل.

لمعت العلامة البيضاء على الخاصرة تحت الماء مثل عين عمياء واسعة، أوضحَ من أي وقت مضى.

Twitter: @ketab_n

الفصل الخامس عشر

خلعتُ قلنسوة الحشرات، مسحتُ جبيني بقطعة قماش مجعدة وشربت رشفة من قِربة صغيرة. تقافز سرب من ذبابات الخيل داكنة الأجنحة عندما أعدتُ القلنسوة إلى مكانها. لوَّحتُ بالخرقة في دائرة لأطرد الذبابات. ألصق الجوُّ الكثيف ملابسي بجلدي. كان الصيف قد وصل ذروة القيظ، وكانت شمس منصهرة منداة تبثُّ الحرارة من وراء طبقات الغيوم. كنتُ قد استطعتُ إجراء مقايضة واحدة رغم وقوفي في ساحة القرية لعدة ساعات. كانت مروحة الأرض الكبيرة جيدة كفاية للخباز الذي أعطاني في المقابل كيسين محزومين من الخبز المجفف. كنتُ أعرف أن المروحة تساوي أكثر، لكن ذلك ربما كان أعلى سعر يمكن أن يدفعه أحدٌ في القرية في ذلك الوقت. كنت أحتاج إلى الطعام الذي يسهل حمله ويمكن حفظه لوقت طويل، ولذلك لم تكن تلك مقايضة سيئة.

كان رجل قصير، عريض العظام، اختفى شعره الترابيُّ كله تقريباً، قد توقف أمام كشكي. استطعت أن أخمِّن أفكاره وهو يراقب بعينيه الرماديتين الفاتحتين مجموعة الأشياء التي كنتُ قد جمعتها من البيت: زوج من المقاعد المزينة بالخشب المحفور، مبهرجان جداً بالنسبة لغرفة معيشته البسيطة؛ حفنة من كتب العالَم الماضي، والتي لن يجد أحد في بيته الوقت ليقرأها؛ مجموعة شاي وبضعة أطباق سيجد من الصعب

Twitter: @ketab_n

أن يملأها. كان الشيء الوحيد الذي ألقى عليه نظرة أطول هو الصنادل —زوجان قديمان كانا لأبي، وزوج تركته أمي خلفَها. قارن الرجل أحجام النعال بحذائه المهترئ تماماً، لكنه بدا وكأنه قد قرر أن لا مصلحة له في مقايضته.

"هل تلك العربة للبيع؟" سأل، مشيراً إلى عربة الدراجة التي كنتُ قد وضعتُ عليها بعض البضائع من أجل العرض.

"كلا، إنها الوحيدة التي لدي،" أجبتُ.

"سيئ للغاية. كنتُ لأدفع اللوتس الأزرق أو تبغ الغليون مقابل ذلك،" قال، وانحنى مودعاً ومضى في طريقه.

كان الجو في الساحة مسترخياً اليوم تقريباً. رأيتُ جنديين فقط عندما وصلت، كانا يتكئان على جدار عند طرف الساحة، يبدوان ضجِرَين ويشربان سائلاً كهرمانياً من قربتيهما. كان بضعة أولاد يرتبون مكعبات لعبة الماهيونغ البلاستيكية على الأرض، وكان أحد ما يعزف الأكورديون عبر متاهة الأكشاك غير المستوية، وكانت تمارا، شقيقة نينيا، تبيع الحلي ودبابيس الشعر على بعد مسافة قصيرة في الجانب الآخر من الزقاق. بدا لي غريباً أن النساء ما يزلن يرغبن في تزيين شعرهن. وعندما ذكرتُ ذلك لسانيا، قالت، "الناس يتمسكون بما اعتادوا عليه لأطول فترة يستطيعونها. إنها الطريقة الوحيدة للبقاء."

رأيت زياً أزرق يومضُ بين الأكشاك. اقتربَ صاحبه حتى ميزت الوجه المألوف. الرائد بولين رآني بينما ينعطف إلى الزقاق حيث وضعتُ طاولتي، وسارَ إليّ مباشرة. صنع حذاؤه الثقيل نمطاً حاداً عميق الحوافّ في الرمل.

خطا بولين مقترباً أمام كشكي. انحنيتُ له، وانحنى هو في المقابل.

"نوريا،" قال. "كنتُ أسأل القرويين أين أجدك." تلفتَ حوله وخفَض صوته. "وصلتني رسالتُك."

"هل تودّ بعض الشاي، رائد بولين؟" سألت.

أطرق موافقاً. أشرتُ إليه ليدور حول كشكي. ألقيتُ قطعة قماش على طاولة المبيعات لأغطي البضاعة وتركت ستارة الجدار الخلفي مفتوحة قليلاً لأرى في

Twitter: @ketab_n

حال جاء أحد للمقايضة. خلف الستارة قدمتُ مقعداً صغيراً لبولين وجلستُ على آخر. سكبتُ لنا شاياً دافئاً من قربة وأشعلتُ عود بخور حادّ الرائحة لأطرد الحشرات، لكن ذباب الخيل ظل يئز حولنا عندما خلعنا قلنسواتنا الواقية من الحشرات لنشرب الشاي.

"كيف كانت أحوالك، نوريا؟" سأل بولين وارتشف من شايه. كان وجهه جافاً كالورق، وحركاته أبطأ مما أتذكر.

"صامدَة رغم الصعوبات،" قلتُ.

صمت بولين، مديراً الشاي في كوبه الخزفي، وبدا غارقاً في أفكاره. في النهاية قال، "أستطيع أن أساعدك، لكنني لا أستطيع ذلك بلا مقابل. العربات الآلية غالية هذه الأيام، خاصة إذا كنتِ لا تريدين أن يشرع أحد في التساؤل عن السبب في حاجتك إليها." رفع عينيه، وسمعتُ سؤالاً غير منطوق خلف كلماته.

"أحتاجها لأتمكن من بيع المنقولات خارج القرية،" قلت. "أعرف أن هناك مشترين أكثر للأشياء الثمنية في كوسامو وكولويارفي. يستطيع البائع الماهر أن يجني ربحاً جيداً هناك."

درسَني بولين بنظراته، وأمِلتُ أنه يفكر بما تعمدتُ أن أبقيه غير مذكور: السوق السوداء، الأشياء النادرة التي يعرف أنها موجودة في بيت معلم الشاي، لأنه كان قد ساعد والديَّ في حيازة بعضها.

"هل أنتِ واثقة من أن المخاطرة تستحق الثمن؟" سأل.

"هناك القليل من زوار الشاي هذه الأيام، والأقل يدفعون كما كانوا يفعلون في السابق."

فكّر بولين في ذلك ثم قال، "سمعت أن مراقبة السوق السوداء أكثر تساهلاً في كولويارفي وكوسامو. لا أعني أن أياً من ذلك سيكون موضع اهتمام لك، بطبيعة الحال."

"كم؟" سألتُ، مهنئة نفسي على نجاحي.

انحنى بولين إلى الأمام في مقعده ورسمَ رقماً من خمس خانات في الرمل. كان

Twitter: @ketab_n

ذلك أكثر مما توقعتُ، لكنني سأتمكن من الدفع.

"أنا موافقة،" قلت. "متى ستحتاج الدفع؟"

"مقدّماً،" أجاب بولين. "أستطيع إرسال أحد لإحضار النقود من منزلك غداً."

"كلا، سيكون أفضل إذا أحضرتُها إلى هنا،" قلت. "هل هذا مناسب؟"

أومأ بولين برأسه موافقاً.

"سأتأكد من ألا يقيم أحد صلة بين العربة وبيني،" قال بهدوء. "أتوقع منكِ أن تفعلي الشيء نفسه."

شرب شايه ووضع الكوب في الرمل بجوار ساق مقعده. كانت الخطوط على وجهه عميقة، وأصبحت أعمق عندما تكلم.

"هذا آخر شيء يمكن أن أفعله لك. تعرفين هذا، أليس كذلك؟"

"نعم،" قلتُ.

أحنى بولين رأسه قليلاً، وانحنيتُ في المقابل. وبينما كان يسير مبتعداً، تسلَّق طابور من النمل جانب الكوب ليصل إلى نقطة السائل المتبقية في القاع. مسحتُ الأرقام التي رسمها بولين على الأرض بنعل حذائي، حتى لم يتبق شيء سوى سطح ناعم من الرمل.

امتد المساء باتجاه الليل، وشيئاً فشيئاً شرع الناس في جمع بسطاتهم وبضائعهم. فككتُ الستارة المنشورة على أعمدة الدعم وطويتُها. رتبتُ الأشياء في العربة، وضعتُ أكياس الخبز بينها، وعندما أصبح كل شيء في مكانه ربطت حبلاً حول الحِمل، ووجهتُ الدراجة باتجاه بيت معلم الشاي. مررت بحدائق مطرِقَة داكنة بلون الجلد البني؛ بالمركز الطبي الذي يحدِّق في الطريق بنوافذ فارغة، وبالناس وهم يعودون إلى بيوتهم من السوق. ومن بعيد، استطعت أن أرى منزلاً واطئاً من الطوب الأحمر وقد ارتسمت دائرة زرقاء لامعة على بابه. كان هذا آخر بيت في القرية يحمل علامة جريمة المياه. كانت الدائرة قد ظهرت على الباب قبل خمسة أسابيع. انعطفتُ عن الطريق لألتف بحيث لا أحتاج أخيراً إلى المرور بالباب المُعلَّم.

أكثر من مرة لفتني الإعلانات المكتوبة على القماش على جانب الطريق.

Twitter: @ketab_n

كانت تَعِدُ بمكافآت لأي شخص يبلغ عن جريمة مياه. ابن الخباز، الذي يصغرني بعام، كان يقف أمام أحد الإعلانات. تذكرته من مدرسة القرية. كان واحداً من أسرع العدائين في صفه، وكانت ملابسه متواضعة ويحصل على علامات دون المتوسط. رأيته الآن يرتدي زياً أزرق ويقوم بكتابة مبلغ مكافأة جديد في قمة اليافطة الإعلانية. على مسافة قصيرة كان إعلان آخر، ما يزال طلاؤه الرطب يلمُع بخفوت. إذا كان ابن الخباز على قائمة رواتب الجيش، فكرت، فذلك يفسر السبب في أن عائلة الخباز تستطيع مبادلة الخبز بالمراوح.

عندما وصلت المنزل، فعلتُ شيئاً كنتُ أتجنبه لأسابيع.

فتحتُ صندوقاً خشبياً كنتُ أحتفظ به على رف الكتب في غرفتي، واستخرجت جهاز الرسائل الذي كانت أمي قد أرسلته. لم أكن قد استعملته من قبل. وبالرغم من طلب أمي، كتبتُ لها رسائل عدة مرات على جهاز الرسائل القديم. لم أذكر كلمة عن الجهاز الآخر المزوَّر، لكنني أردتها أن تعرف أنني بصحة جيدة بالرغم من الحرب والظروف في القرية. لم أتلقَّ رداً، ولذلك لم أعرف إذا ما كانت رسائلي قد وجدت طريقها إليها. ومع ذلك، أصبح علي أن أجعلها تعرف قراري.

وضعت إصبعي على الشاشة وانتظرت حتى اشتغلت الشاشة وظهر اسم آينو فانامو. كتبتُ في الحقل، قَررتُ أن أبقى في القرية حتى عيد القمر. سأغادر إلى شنجينغ في اليوم التالي للعيد وسأعلمك بتاريخ وصولي. آينو.

أرسلتُ الرسالة، أغلقتُ الجهاز ووضعتُه في الصندوق الخشبي. كنت أعرف أن الكذبة التي أرسلتها تواً لم تكن الإجابة التي تأملها.

في وقت مبكر من بعد ظهر اليوم التالي، وقفَت أمام كشكي امرأة شابة ترتدي الزي الأزرق للعاملات في مطبخ الجيش.

"نوريا كيشيو؟" سألَتْ.

انحنيتُ. سلَّمتني المرأة رسالةً مختومة.

"إنها من الرائد بولين،" قالت. "قال إنك ستعرفين ما المطلوب في المقابل."

سحبتُ مغلف بريد مختوماً يحتوي على النقود من حقيبتي.

Twitter: @ketab_n

"كما أرسلَ إليكِ رسالة أخرى أيضاً،" قالَت المرأة، وانحنت أقرب إليَّ وخفضت صوتها. "الأحد قبل منتصف الليل."

"الأحد قبل منتصف الليل،" كرّرتُ. كان ذلك اليوم هو الخميس. هزت المرأة رأسها، استدارت على عقبيها وسارت مبتعدة. وعندما ذهبَت، سرتُ خلف كشكي ونظرتُ من حولي لأتأكد أنّ أحداً لا يراقبني. كانت امرأة عجوز تغفو متكئة على الجدار تحت ظل الكشك المجاور؛ كان الطفلان اللذان رأيتهما يلعبان بالمكعبات في اليوم السابق يرسمان في الرمل. فتحتُ الختم واستخرجتُ محتويات المغلف. وجدتُ خريطةً مرسومة على قطعة ورق عليها مكان معلَّمٌ بمصلب خارج القرية، في ضواحي الغابة الميتة.

كانت الرسولة قد أخبرتني متى، لكنني أصبحت الآن أعرف أين.

يوم الأحد شرعتُ في السير باتجاه الغابة الميتة قبل وقت لا بأس به من منتصف الليل، لأن الرحلة إلى هناك طويلة. كان وهج الشمس الليلية يطفو على السماء مائية اللون، لكن صقيع الأرض المظللة تسلل إلى جسدي، وتسلَّق عظامي وملأ أنحائي بالارتجاف. لم أعرف ماذا أتوقع هناك. لم يكن لديّ خيار سوى الثقة ببولين.

كانت القرية هادئة. سلكتُ الطريق الطويل عبر جانب التل لأنني كنتُ أخشى من احتمال أن أصادف الجنود. حوَّم في الهواء سربٌ من الحشرات في سحابة داكنة، مثل حزم من الظلال المهجورة. كانت تتفرق لحظة قصيرة، وتتناثر من حولي عندما أسير عبرها، ثم تعود فتنضمُّ ثانية في تكوينات محتشدة، معتمة المشهد مثل أرواح قديمة نهضت من تحت الحجارة، أو ذكريات مدفونة التي اتخذت شكلاً مرئياً. تطايرت الحجارة من تحت حذائي وصرَّت بخفوت وهي تحتك ببعضها.

كانت الغابة الميتة تدعى ذات مرة "غابة الطحالب"، وهو اسم يستدعي صورة أوراق الشجر عميقة الخضرة التي تتموج في الريح، والخضرة هائلة الخصوبة والرطوبة حتى يمكنك أن تشعر بها على جِلدك. وحتى قبل ذلك بوقت طويل، عندما لم تكن الكلمات لوصف مثل تلك الخضرة لازمة بعد، لأنها كانت شيئاً مسلماً به في

Twitter: @ketab_n

تلك الأرض، لم يكن لتلك الغابة اسم على الإطلاق، هكذا كان قد أخبرني أبي. والآن، تلوّت سيقان أشجارها العارية باتجاه السماء بجفاف الرمل وبلا لون مثل بيت عنكبوت منسوج على المشهد، أو مثل قشور الحشرات الجوفاء العالقة فيه. لم تعد الحياة تدور فيها، وأصبحت عروقها متقصفة مكسورة، وجلودها متحمدة إلى حروف لغة منسيّة، لتكون محض علامات شبه غير مفهومة على ما كان موجوداً هناك ذات مرة. بعض السيقان عصرت نفسها وغارت في الأرض، حيث تتمدد صامتة، ساكنة.

تعقبتُ الطريق على الخريطة، حتى وصلت المكان المعلّم بالمصلّب. اقتربت منه بحذر، غير واثقة مما ينتظرني. أصغيتُ.

كانت الأصوات الوحيدة المسموعة هي غرق الغابة البطيء، والريح تتشبث بالأغصان التي بلا أوراق، والصرير الخافت للجذوع المنحنية باتجاه الأرض.

استغرقني الأمر بعض الوقت لأعثر على ما كنتُ أبحث عنه. كانت العربة الآلية مخبأة بمهارة. لا تمكن رؤيتها لو أنني لم أكن أعرف كيف أبحث. كانت قد دُفعت إلى حفرة غير عميقة مغطاة ببساط من أعشاب البحر البالية التي بلون الأرض والأغصان الجافة. اقتنعت بأن الطريق التي يبدو أنها جُلبت عليها كانت قد بدأت في مكان ما بعيد. وعنى ذلك أن العربة جيدة بما يكفي لقطع طريق بتضاريس أكثر صعوبة. رفعتُ بساط العشب البحري وفحصتُ العربة. كنتُ أعرف القليل عن العربات الآلية، لكن هذه بدَت أكثر جِدّة وبدت في حال أفضل من عربة يوكارا. كان ثمة خدوش على الجوانب، والإطارات بالية قليلاً، لكن اللوحات الشمسية والمقاعد غير مكسورة. كان مفتاح التشغيل في مكانه. سحبتُ الغطاء وأعدته فوق العربة، ومشيتُ في طريق ضيقة حتى التَحَقَ بطريق ترابي أوسع قليلاً، يتلوّى ذاهباً باتجاه القرية. كان الطريق مغلقاً بعارضة خشبية نصف متعفنة وصخور كبيرة. وإذا نُظِر إليه من الناحية الأخرى، فسيبدو كما لو أنه لم يُستخدَم لسنوات. لم تكن هناك أي آثار للعربة: لقد وفى بولين بوعده بخصوص صعوبة تعقب العربة. ومع ذلك، كان هناك شخص ما يعرف أنها موجودة، وهكذا، كلما تمكنت من أن

Twitter: @ketab_n

أقودها للخروج من هناك أسرع، كان ذلك أفضل.

كنتُ قد فكرت كثيراً بأين أحتفظ بالعربة. كان أسهل شيء هو أن أخبئها في بيت معلم الشاي، لكنني لم أرد المغامرة باحتمال أن تعثر عليها دورية مياه وهي محملة بالطعام والماء، ومجهزة بوضوح للقيام برحلة طويلة. ولذلك قررت أن أخبئها بجوار مقبرة البلاستيك تحت جسر قديم. كانت المقبرة تفيض على الحواف بالخردة القديمة التي تركها الناس حولها، وكان فم المكان تحت الجسر شبه مغلق بالتراب والقمامة. كان من المستحيل معرفة أن هناك فراغا أجوف في الداخل عن بُعد. كنتُ قد عثرتُ أنا وسانيا على المكان قبل بضع سنوات. وإذا حدث أن مرّ أحد بجوار الجسر وشاهد العربة، فسيكون من المستحيل ربط الاكتشاف بأي أحد. أسوأ ما يمكن أن يحدث سيكون فقدان العربة. سيكون نقل الطعام والماء إليها أكثر صعوبة، لكنني سأتدبر الأمر إذا أخذتُه إليها بكميات صغيرة كل يوم.

بمجرد أن وجدت الفجوة التي استُخدِمَت لجلب العربة إلى الغابة —كان من المستحيل تغيير العارضة، واستطعتُ أن أزيح إحدى الصخور إلى أحد الجوانب بغصن جاف– سِرتُ عائدة إلى العربة. كان عليّ أن أنتظر الصباح، عندما ينتهي حظر التجوال الليلي، وأن أستخدم أبعد الطرق الممكنة. كان الطريق إلى مكان الاختباء صعباً، لكن ذلك عنى أن خطر أن يرصدني أحد كان أقل.

جلستُ على الأرض الجافة المتشققة واستمعت إلى آخر جوهر الليل وهو ينغلق من حولي.

لاحظتُ أولاً أن جهاز السفر المزور كان مفقوداً عندما عدتُ إلى البيت في الصباح. فتحتُ الصندوق الخشبي وتفقدته لأرى إذا ما كانت أمي قد ردّت علي، ورأيت على الفور أن جهاز الرسائل لم يكن حيثُ تركتُه، فوق الأشياء التي جمعتها من مقبرة البلاستيك. سقط قلبي في أمعائي. حاولت أن أتذكر متى أخرجتُ جهاز الرسائل آخر مرة وفتحته. في الصباح السابق؟ أم في اليوم الذي سبقه؟ لم أكن متأكدة. كان العديد من القرويين قد جاءوا إلى البيت لأخذِ الماء في الأيام القليلة الماضية. لم يكن الكبار يقتربون عادة أكثر من المطبخ، لكن النساء كنّ يحضرن

Twitter: @ketab_n

أولادهن الذين كانوا يتحولون في الغرف كالعادة. كانت فكرتي الأولى هي أن واحداً منهم دخل غرفتي، وعثر على صندوقي الخشبي وأخذ جهاز الرسائل بدون إذن. نظرياً، كان ذلك ممكناً. حاولتُ أن أتذكر ما إذا كنتُ قد تركتُ الجهاز في مكان آخر. فتشتُ المطبخ. فتشتُ غرفة الجلوس، بحثت خلف رفوف الكتب وتحت السرير وبين أكوام الكتب وفي جيوب ملابسي، بلا نجاح.

لم أرِد أن أفكر في أكثر الاحتمالات رعباً: أن لا يكون أيّ من الأطفال قد أخذ جهاز الرسائل، وأن لا يكون قد أُخِذَ بالخطأ.

جاءت سانيا لزيارتي بعد الظهر. كنتُ أكنس الشرفة وبيت الشاي، ولم أكن في مزاج مناسب للحديث.

"أريد أن أتحدث إليكِ،" قالَت وتلفّتَت حولها.

"لا يوجدُ أحد هنا،" قلتُ لها وركنتُ المكنسة على حائط بيت الشاي. هناك أشياء كنا نتحدث عنها فقط عندما نكون وحدنا، وأشياء أخرى لا نتحدث عنها على الإطلاق. أحدها هو ما قاله صوت المرأة في آخر قرص فضي. تساءلتُ عما إذا كان ذلك هو الذي تريد الحديث عنه.

نظرَت سانيا إليَّ في العَين.

"أريدُ أن أذهب معكِ،" قالَت.

"لن أذهب إلى الينبوع لبضعة أيام،" قلتُ وشرعتُ في السير باتجاه البيت.

"لا أقصد الينبوع." بدَت كلماتها ثقيلة بشكل غير معتاد. توقفتُ واستدرتُ لأنظر إليها. كان وجهها متوتراً، كما لو أنه يحتجز خلفه مشاعر الحزن أو الإثارة. "كنتُ أفكر،" قالت. "أريد الذهاب إلى الأرض المفقودة معك. أمي وأبي ومينيا على ما يرام الآن، وقد أصبحت صحتها أفضل وتستطيع أمي أن تعمل ثانية. هل يمكنني أن آتي؟"

أردتُ أن أسحبها بين ذراعيّ وأحضنها، كنتُ جِدّ مسرورة بأنها تخطو إلى داخل أحلامي بعد كل شيء، بأننا سنكون أخيراً المستكشفين الحقيقيين الذين لعبنا أدوارهم حين كنا طفلتين. لكن مشكلة غير متوقعة كانت تُعقّد خططي.

Twitter: @ketab_n

"طبعاً أريدكِ أن تذهبي معي،" قلتُ. "لكن جهاز الرسائل الذي أرسلَته أمي ضاع. لا أعرف أين وضعتُه. أخشى أن أحداً ربما يكون قد سرقه. ليس لديّ جهاز مرور مزور —"

شرَعت بقعة حمراء في تلوين وجه سانيا الشاحب، وتململَت بقلق.

"نوريا،" قالَت. "أريد أن أعترف بشيء." دفعَتْ يدها إلى حقيبتها واستخرجت جهاز رسائلي. "أنا آسفة لأنني لم أقل شيئاً. أردتُ أن أفاجئك." أعادَت إليَّ الجهاز المزوّر، وأخذتُه منها دون أي كلمة. شعرت بالارتياح لأن أحداً من القرية لم يأخذه، وبالغضب لأنها أخذته دون أن تطلب ذلك مني، وببعض القلق لأنها استطاعت أن تأخذه دون أن أدرك ذلك. شغّلتُ الجهاز.

"لا تقلقي، كل شيء فيه كما كان تماماً،" قالت سانيا. نبشَت حقيبتَها مرة أخرى وأخرَجَت جهاز رسائل آخر، أقدم قليلاً وأكثر تضرراً. "انظري." خطَت إليّ ووضعَت إصبعها على شاشة العرض. ومض ضوء بلون الورق الأبيض، وبعد لحظة ظهر اسم: "لومي فانامو." كان مكان الولادة مسجلاً في روفانيمي وتاريخ الولادة أكبر بسنة واحدة فقط بعد تاريخ ولادة آينو فانامو.

"أنتِ ولِدتِ في شينجينغ،" قالت. "لكنَ والدَينا، أوتي وكاي فانامو، قررا العودة إلى وطنهما قرب روفانيمي. انتقلا عبر القارة عندما كنتِ أنتِ صغيرة جداً، وولِدتُ أنا بعد سنة فقط. بعد أن غرق والدانا في حادث في حقول أعشاب البحر، أكملنا السنوات الثلاث الأخيرة في مدرسة في كوسامو حيث أقمنا مع أقاربنا. ونحن الآن عائدتان إلى القرية الصغيرة في ضواحي روفانيمي إلى بيت العائلة حيث تركَنا والدانا المتوفين." رفعَت عينيها عن جهاز الرسائل وابتسمَت لي.

"ليس سيئاً،" قلتُ، معجبة. وهزَّت سانيا كتفيها.

"فكّرتُ في طريقتين بديلتين ربما تعملان لقرصنة جهاز. احتجتُ جهازك لأتحقق من أيهما ستنجز الخدعة. لم يستغرق الأمر طويلاً في النهاية." أطفأَت جهاز رسائلها. "أصعب شيء كان أن أضَع يديّ على جهاز مستَعمَلٍ آخر."

"أنتِ رائعة،" قلتُ لها.

Twitter: @ketab_n

"كلا، فضولية فقط، وأعمل حتى تنزف أصابعي،" قالت. "حسناً، متى سنذهب؟"

فيما بعد، عندما كانت تتحقق من إعدادات جهاز الرسائل، راقبتُ حركات أصابعها وتعبير التركيز الذي لم أستطع النظر إلى ما وراءه على وجهها. كانت قد أخذت جهاز الرسائل من غرفتي سراً، لكنني أردتُ أن أغلق الفجوة التي نحتتها الشكوك في داخلي. أخبرتُها بكل شيء عن خطتي، والعربة الآلية، والأماكن التي أريد ارتيادها. وكما لو في حُلم، استطعتُ أن أحس بملمس الماء المتدفق على بشرتي، منتظراً إيانا صافياً متحفِّزاً، والذي أصبح الآن في متناول يدي تقريباً. لا شيء آخر مهم.

لم أسألها عن السبب في أنها غيَّرت رأيها، وهي لم تقله.

Twitter: @ketab_n

الفصل السادس عشر

تم إعدام سكان بيت الطوب الأحمر في اليوم الذي كان فيه كل شيء جاهزاً لمغادرتنا، بعد أسبوعين من حصولي على العربة. لم أرَ ذلك. رأيت البقع البنية بلون الصدأ على الحصى في الفناء الأمامي، والأثاث الذي جُرّ إلى خارج البيت. وفي لمحة، من بعض المسافة، رأيت الباب حيث يقسم لوح خشب مُمسمَر الدائرة الزرقاء إلى اثنتين.

"لا تنظري،" قالت سانيا، لكنني نظرتُ، وتمنيتُ بعد ذلك لو أنني لم أفعل. كان ذلك ما نفعله في تلك الأيام: حاولنا أن نشيح بأنظارنا بعيداً عن الأشياء التي تحدث، وفشلنا، ثم حاولنا المضي في العيش كما لو أننا لم نرها. ودائماً كانت تلك الأشياء تظل معنا، وتتخذ لها مسكناً تحت جلودنا، في حيِّز الصدر المغناطيسي الأحمر القاتم، بينما تخدش شظاياها الملتويةُ القلبَ الطريَّ الرطب. عندما أسيرُ في الشوارع، كنتُ أرى الناس يحملون هذه المشاهد في داخلهم: مدفونة، ليس عميقاً بما يكفي لكي لا تلقي بآثارها على وجوههم، وتشوهها مثل انكسار الضوء البطيء.

كنا في طريقنا إلى مقبرة البلاستيك. كانت السماء حاجزاً ضبابياً من الأبيض

Twitter: @ketab_n

والرمادي والأزرق الشاحب، متغيرة مثل البحر، لكنني لم أكن أعرف إذا ما كانت تنغلق إلى عاصفة أم تنفتح لدفق من الضوء العاري. كانت الأقراص الفضية تُثقِل حقيبتي.

"يجب أن نُخفيها،" كانت سانيا قد اقترحت. "في مكان حيث لا يبحث أحد، وإنما حيث يمكن أن يجدها أحدٌ ما. أولئك الذين سجلوا قصتهم كانوا يريدون أن يعرف بها أحد. لقد أدركوا أنها يمكن أن تغير كل شيء يعرفه الناس عن حروب النفط في العالَم الماضي. يجب أن نعطي نحنُ الفرصة نفسها لآخرين. على سبيل الاحتياط."

عرفتُ ما تعنيه. لم نقل ذلك علناً، -إذا لم تُقدّر لنا العودة. لكنني كنتُ قد فكرتُ في ذلك، وكنتُ متأكدة من أنها فعلَت ذلك أيضاً.

سرنا عبر مقبرة البلاستيك، حيث عظام الخردة الهشة الجوفاء تنسحق تحت نعال أحذيتنا السميكة. وصلنا جثة عربة العالَم الماضي قرب المكان الذي وجدتُ فيه أوّل قرص فضي وآلة الزمن الماضي التي ظننتُ أنها تعود إلى بعثة يانسون.

كنتُ قد ختمتُ على الأقراص في نفس الصندوق المعدني الذي كانت فيه عندما وجدناها في الينبوع، ولففته بقماشة رثة وبعض خردة البلاستيك. سحبتُ الحزمة من حقيبتي. حفرَت سانيا حفرة قرب أحد الإطارات الخلفية، ووضعنا الأقراص فيها. فكرتُ بصوت المرأة على الأقراص وشكرتُها بصمت في عقلي. هي، ابنة معلِّم شاي من زمن غير مألوف، ذهبَت لتستكشف قبلنا بزمن طويل وبيَّنت أن ذلك ممكن. بدونها ربما لم أكن لأجد الشجاعة أبداً لأضع خطتي موضع التطبيق. كوَّمتُ بعض الخردة السائبة فوق الأقراص، وغطينا كل شيء بكتلة خشنة من أكياس البلاستيك. لم يكن أي شيء يشي بأن هناك شيئا مهما مخبوءاً في المكان.

استدارت سانيا لتذهب، لكنني طلبتُ منها أن تنتظر.

تسلَّقتُ إلى قمرة القيادة في المركبة ودفعت بيدي في الثقب عبر لوحة ساعات القياس الصدئة. أخرجتُ صندوقاً بلاستيكياً مدوّراً. لم يكن ثقيلاً، وتحركت الأشياء داخله بخفيف إلى أحد الجوانب عندما أمَلتُه.

Twitter: @ketab_n

"هل تتذكرين هذا؟" سألتُ.

تغيّر وجه سانيا، كما لو أن الضوءَ انتشر عليه فجأة.

"كنتُ قد نسيت!" قالت مندهشة. "ماذا خبأنا في هذا الصندوق؟"

خطَت أقرب وتحققَتْ من السنة التي كنا قد عيّناها على غطاء الصندوق لتشير إلى تاريخ فتحه المقرر.

"ما تزال هناك أكثر من عشرين سنة متبقية،" قلتُ.

"كان لدينا شرط،" ذكَّرتْني. "ألا يُفتح حتى التاريخ المتفق عليه، إلا تحت ظروف استثنائية."

"أتظنين أن هذا يُعدّ ظرفاً استثنائياً؟"

كانت تبتسم، لكنني استطعتُ أن ألمح الجديّة الكامنة وراء ابتسامتها عندما أجابت، "إذا لم يكن كذلك، لا أعرف ما الذي سيكون."

نظرتُ إليها. التقطَت نظرتي وهزت رأسها برفق. أخذَت الصندوق من يدي وحملته. أدرتُ غطاء الصندوق، حتى تشقق ختم الورنيش الذي كنا قد أذبناه بحرص على حافته وانكسر. على داخل الغطاء كان التاريخ الذي يشير إلى عشر سنوات مضت. كنا في الثامنة من العمر عندما جمعنا الكنوز ووضعناها في كبسولة الزمن هذه. أحنينا رؤوسنا لنفحص المحتويات معاً. كان هناك قفل معدني صغير مبقع بالصدأ ومفتاح لم يتناسب معه، وصفحة مصفرّة مليئة بكتابة صغيرة —لا بدّ من أنني مزقتها من أحد كتب أمي– بضعة حجارة ملساء صغيرة و، نظارات قديمة مخدوشة أحد جذعيها مكسور. كانت العدسات ملطخة بلونين مختلفين: واحدة حمراء، وواحدة زرقاء.

"أتذكر هذه،" قالت سانيا. "النظارات السحرية."

تذكرتُ أنا أيضاً تلك اللعبة التي كنا نلعبها بالنظارات: كنا نلبسها بالتناوب بوصفنا جاسوستين مستكشفتين، وننظر بها عبر الجدران إلى الأماكن المخبأة وتصفُ كلٌّ منا ما تراه للأخرى.

"هل يجب أن نأخذ شيئاً معنا؟" اقترحتُ. "من أجل الحظ؟"

Twitter: @ketab_n

"كل غرام من الوزن الزائد سوف يبطئ سرعتنا،" لاحظَت سانيا، وكانت على حق، بطبيعة الحال. أعدتُ النظارات إلى الصندوق وكنتُ أوشك على أن أغلق الغطاء، عندما أوقَفَتْ يدي وقالت، "ليس بعد."

ناولتني الصندوق، فكَّت سواراً رفيعاً بالياً من عشب البحر من على معصمها ووضعَته فوق الأشياء الأخرى.

"أنتِ أيضاً،" قالت.

"هل أحضرتِ معكِ سكينَكِ المطويّ؟" سألتُ.

بحثَت سانيا عن السكين في جيوبها وأعطتها لي. وضعتُ الصندوق على لوحة القيادة، وسحبتُ الشفرة الرقيقة من مخبئها وقطعت خصلة طويلة من شعري.

"هذا كل ما لديّ،" قلتُ وأعدتُ السكين إلى سانيا.

طويتُ الشعر إلى لفيفة حولَ إصبعي، وسحبته في عقدة فضفاضة ووضعته في داخل سوار العشب البحري. ارتخت العقدة وانحلّت قليلاً واستقرت على السوار في داخل حلقته غير المنتظمة: شعري الداكن وعشب البحر المجفف التي كانت سانيا تحمله حول معصمها، اندغما معاً في دائرة متصلة بلا بداية ولا نهاية. أغلقَت سانيا الغطاء، حريصة على وضع حواف الختم المكسورة بعضها مقابل بعض.

بدا ذلك أشبه بترتيب وقائي ضد الفناء، كما لو أننا ألقينا رقية لا يمكن نقضها. إذا لم نعد، سيكون هناك شيء تبقى منا —حتى لو أنه بلا اسم، صبويّ وبلا قيمة، لكنه شيء اخترناه لكي يُحفَظ، أثرٌ تركناه خلفنا.

هذا ما فكرتُ فيه.

واعتقدتُ أنه ما فكّرتْ هي به أيضاً.

ما أزال أريد أن أصدِّق ذلك.

عندما غادرنا مقبرة البلاستيك، قالت سانيا، "أراك الليلة." كان جسدها ضئيلاً ومحدد الأطراف داخل ردائها الكتاني الخشن. كان ظل قلنسوة الحشرات ناعماً على وجهها. سارَت مبتعدة ولم تنظر وراءها.

بعد أن ذهبَت سانيا، مشيت بتثاقل عبر الأرض غير المستوية إلى العربة الآلية

Twitter: @ketab_n

لأتأكد مرة أخرى من أن كل شيء على ما يرام. عبَقَ بطن الجسر برائحة التراب المتداعي والقمامة المتحللة. تفقدتُ محتويات العربة وربطتها خلف المركبة الآلية. حسبتُ كمية الطعام والماء بحرص وأضفتُ مقداراً صغيراً إضافياً لأكون على الجانب الآمن، ولكن ليس الكثير. لم أعرف كيف سيتكشف مدى دقة تقديراتي لسرعة تنقلِنا، أو كيف يمكن أن تكون الحالة الفعلية للطرق بمجرد أن نعبر الحدود. ومع أن آمالي كانت عالية، لم أجرؤ على الاعتماد كليّة على احتمال عثورنا على الماء، ولذلك كانت معظم المساحة محجوزة لحمل ماء الشرب.

نقلت أكياس الفاكهة المجففة، وبذور عباد الشمس واللوز كي أفسح مكاناً لقِربة ماء إضافية أخرى كنتُ قد حملتها على ظهري. كانت مشكلة نقل الماء مصدر صداعنا الأكبر، لأننا كنا نعرف أنه سيتم إيقافنا بالتأكيد إذا حاولنا نقل كمية عدة أسابيع من ماء الشرب معنا علناً. كنا قد راجعنا كل وسائل حيل الماء وخطط التهريب التي طورناها خلال الأسابيع الماضية عندما كان القرويون يأخذون الماء إلى بيوتهم من بيت معلم الشاي. وأجرت سانيا بعض التعديلات المخططة بحرص على العربة، وكانت النتيجة تحفة رائعة: أزالت المقاعد، وصبت حيزاً قابلاً للإغلاق تحتها وأخفته مرة أخرى بدقة حتى كان من المستحيل معرفة أن العربة قد عُدِّلت. أصبح بالإمكان وضع حصة أسبوع من قِرب الماء تحت قاع العربة المزوَّر، وبالإضافة إلى ذلك، صنعنا قمرات سرية مختلفة وحاويات في صناديق الطعام. ومن أجل تغطية العربة، شددنا مظلة مزدوجة من البلاستيك والقماش على إطار ليحمي المحتويات، ويمكن أن ننام تحته أيضاً.

أحد مكامن مخاوفي كان يراعات الضوء. لم أعرف كم منها يمكننا العثور عليه في الطريق —تلك التي سنأخذها معنا عندما نغادر بيت معلم الشاي لن تعيش حتى نعود. كان الوقت أواخر الصيف، وما يزال ضوء النهار يمتد كل ساعات اليوم تقريباً. ومع ذلك، وفي غضون أسابيع قليلة فقط، ستشرع الليالي في أن تصبح أكثر ظلمة ثانية، وقبل أن يمر قمران مكتملان، سوف يحول عيد القمر السنةَ باتجاه الشتاء. وبينما كانت خطتنا هي أن نعود إلى القرية قبل ذلك، فإن خفوت ضوء

Twitter: @ketab_n

مصابيح اليراعات ربما يصبح مشكلة وسيبطئ سير رحلتنا. جعلتني فكرة تلاشي وهجها غير مرتاحة لسبب آخر أيضاً: لم أعرف كم كان الماء مختبئاً عميقاً في شرايين الأرض، أو أي نوع من الظلام سوف نحتاج إلى النزول فيه لكي نعثر عليه. كانت سانيا قد صنعت لنا اثنين من المشاعل الأمامية المدارة بطاقة الشمس، لكن ضوءهما كان أكثر خفوتاً من مصابيح اليراعات، وظل أحدهما يئز وكأنه مصاب بالفواق. "لم أستطع الحصول على أسلاك جيدة كافية،" قالت سانيا، منزعجة، وترتب علينا أن نقبل بذلك.

لم تكن قد أخبرت أحداً بخطتنا، ولا حتى والديها. قالت إنها لا تريدهما أن يقلقا. ظننتُ أنها ربما لم تكن لتستطيع التمسك بقرار الذهاب معي لو أنهما طلبا منها أن تبقى.

فردتُ قطعة قماش بلاستيكية مشمعة لتغطية المركبة الآلية والعربة، وكدست أغصاناً جافاً وقطعاً من الخردة فوقها. وعندما رضيتُ عن التمويه، خرجتُ إلى ضوء النهار. كنا قد ملأنا فم الفراغ الكهفي بالقمامة التي كانت ملقاة حوله، وأقفلت الفجوة خلفي بحيث بدت مغلقة.

كانت السماء بلون الصخر والأشنة والكدمات الطازجة. سقطَت القطرات الأولى من المطر على قماش قميصي الكتاني عند حافة القرية، متمددة إلى بقع كبيرة غير منتظمة وناشرة بللها على بشرتي. وبحلول الوقت الذي وصلت فيه الطريق المفضي إلى بوابة البيت، كانت أطراف بنطالي تقطر ماء وقد لوث التراب المتحول إلى طين قاتم قماشها الفاتح. عبقت رائحة عشب البحر الخشبية الهشة في الجوّ الذي أعتمه المطر.

بدافع الاعتياد كنت قد حملتُ أوعية المطر إلى الحديقة في الصباح بعد أن نظرت إلى السماء، حتى مع أنه لم يكن لدي سبب لاستخدامها. فليأخذ القرويون ماء المطر معهم عندما يأتون غداً ويجدون البيتَ فارغاً، فكّرتُ. إنه آخر شيء أقدمه لهم لفترة. سوف يقودهم يوكارا إلى الكهف داخل التل قبل أن أعود، كنتُ متأكدة من ذلك؛ كنتُ أشك بأنه ذهب مسبقاً إلى هناك في مرات سريّة، حتى مع أنني

Twitter: @ketab_n

طلبتُ منه أن يتجنب ذلك، لأن حدوث زيادة مفاجئة في الرحلات إلى التل بين القرويين لن تمر دون أن يلاحظها الجنود.

أغلقتُ عينيّ ووقفتُ في المطر. مشيتُ على العشب وقد خلعتُ حذائي. استقامَت أنصاله الزلقة واستوت، راسمة أشكالاً شبكية على جِلد باطن قدميّ. سال الماء من شعري إلى مؤخرة رقبتي، مبللاً ظهري وذراعيّ، ومنقطاً من طرف أنفي. طرحتُ عني ملابسي مثل الجِلد القديم، وشعرتُ بأنني جديدة، طازجة ومستعدة.

كان إناءُ التجميع الذي كنتُ قد وضعته على درجات الشرفة نصف ممتلئ تقريباً.

مشيتُ إلى داخل المنزل، واستبدلتُ ملابسي بأخرى جافة وجلستُ على الأرض.

حتى الآن، كنتُ قد حاولت إبقاء البيت، سطحياً على الأقل، كما كان في زمن والديّ، على الرغم من حقيقة أنني لاحظتُ كيف أنه أراد الانثناء خارجاً من شكله تحت ثقل التغيير. وقد جهدتُ أنا نفسي لفعل الشيء نفسه، لكن أسبابي كانت مختلفة. أردت أن أتأكد من أنه عندما يأتي القرويون إلى هنا بعد أن نكون قد غادرنا، لن يخبرهم أي شيء في الغرف بأنني ذهبت بعيداً وربما سأبقى بعيدة لوقت طويل. تركتُ الملابس على ظهور المقاعد، كما لو أنني وضعتها فقط لألتقطها بعد قليل. كان هناك كتاب مفتوح ووجهه إلى الأسفل موضوع على مقعد غرفة الجلوس الطويل، الذي لم تكن لدي النية لأخذه معي. كان نصف شايي الصباحي ما يزال متروكاً في الكوب على مائدة المطبخ؛ لم أنظفه. أردتُ أن أترك خلفي إطاراً ثابتاً لحياة سائرة في طريقها: سوف يُخفي وهم النوعية غير المتغيرة حقيقة التغيير الكبير. أملتُ تأجيل شكوك القرويين أطول وقت ممكن.

حتى الليل، أو صباح آخر.

كلُّ شيء أصبحَ جاهزاً.

أغلقتُ الباب وكنستُ البلاطات الحجرية التي تعبِّد الطريق إلى بيت الشاي.

Twitter: @ketab_n

تشبثَت أوراق الشجر المبللة بالمطر وريشات العشب بشعيرات المكنسة. ركنتها على جدار شرفة بيت الشاي.

مشيتُ إلى حافة حديقة الصخور حيث نبتت ثلاث أشجار شاي. كان المطر قد توقف، والتمعت قطرات الماء على أوراقها النحيلة. كان قبر أبي مغطى بالعشب، ولم يعد يميّزه شيء عن بقية الحديقة الآن. أردتُ أن أقول له شيئاً، لكن فمي لم يكن يحتفظ إلا بالصمت.

كان تراب حديقة الصخور مشعثاً من المطر. التقطتُ مشطاً عن الأرض وسوّيته حتى أصبح مرتباً. تموَّجت آثار الأسنان المعدنية بين الصخور مثل ماء يتدفق في عتمة الأرض دون أن يسرع أو يبطئ خطوه.

كانت دفاتر الملاحظات تثقل حقيبتي، وكانت الظلال في الحديقة تتكاثف، عندما أغلقت البوابة ورائي.

عندما وصلتُ الجسر، بدا كل شيء كما ينبغي. كانت الفتحة المخبأة مغطاة بالخردة، ولم يكن هناك ما يوحي بأن أحداً زار ذلك المكان منذ غادرتُه في وقت أبكر من النهار. ظننتُ أنها لم تصل إلى هناك بعد. نقلتُ كرسياً مكسوراً ولفة من الأسلاك عديمة النفع إلى جانب حتى أفسح لنفسي مجالاً للدخول إلى المُختبَأ.

لم أفهم مباشرة ما رأيت. استغرقني الأمر بعض الوقت قبل أن تعتاد عيناي على الفجوة المعتمة تحت الجسر، ووقتاً أطول قبل أن أفهم ما كانتا تخبرانني به.

كانت المركبة والعربة ذات الإطارات الأربعة قد اختفتا بمحتوياتهما.

توقفَ النفَس في صدري، وتشكلت كتلة ثقيلة في قاع معدتي. شعرتُ كما لو أني ابتلعتُ كتلة ضخمة حادة من الجليد.

أرسلتُ رسالة إلى جهاز رسائل سانيا، ثم أخرى إلى جهاز رسائل عائلتها. لا ردّ. ولأني لم أعرف ما أفعل غير ذلك، شرعت في المشي باتجاه بيتها. سلكتُ الطريق المختصر عبر مقبرة البلاستيك، حيث انزلقَت قدماي على السطوح المبتلة بالمطر والشقوق التي تنفتح على صميم الماضي المدفون نفسه. مررتُ بقليل من الناس الذين كانوا يمتحون ماءً مبقعاً بالوحل من جدول صغير قرب حافة المقبرة.

Twitter: @ketab_n

كان بعضهم يحاولون اصطياد المطر من السماء بقربهم ودلائهم. مررتُ بالبيوت، ورأيت الناس يجعلون الماء الساقط من الغيوم يغسل وجوههم العطشى وأجسادهم وأيديهم.

انعطفتُ إلى الطريق حيث تسكن عائلة سانيا وتوقفتُ.

كان جنودٌ في الأزياء العسكرية الزرقاء يقفون خارج بيت سانيا. كان الباب مفتوحاً، أنا متأكدة من هذا: لم تكن هناك دائرة زرقاء عليه، وإنما اللون الرمادي الكالح الذي يرتديه على الدوام فحسب، لم أرَ سانيا ولا والديها، وإنما استمر الجنود في الدخول والخروج من الباب، ورأيت اثنين منهم يسيران باتجاه الفناء الخلفي وورشة سانيا.

كان جندي طويل القامة يقف في الفناء الأمامي، وعندما أدار رأسه، تعرفتُ عليه رغم المسافة. كان موروموكي، مساعد تارو أشقر الشعر.

استدرتُ وأجبرتُ نفسي على الهرب. تضخَّمت قدماي وأصبحتا ثقيلتين على الطريق الموحل، وتعلَّقَت الغيوم خفيضة، تمسح قمم التل الداكنة وتنفجر بثقل مياهها.

في هذا المشهد حيث تحوَّلَ كل شيء وتفككَت أوصال العالَم، سِرت عائدة إلى داخل منزل معلم الشاي، وانتظرتُ.

لم يتحرك أحد على الطريق الضيق. لم تومض الأضواء على جهاز رسائلي. لم يدُر العالَم أبطأ ولا أسرع.

بعد منتصف الليل ذهبتُ إلى غرفتي واستلقيتُ في السرير في الغسق الرمادي المزرقّ لليلة التي بلا شمس، ولم أستطع النوم، ولم أستطع التحرُّك. قرب الصباح غفوتُ لفترة قصيرة، وعندما استيقظتُ، كان من الصعب أن أتنفس. ذهبتُ إلى الشرفة من أجل بعض الهواء النظيف.

كانت السُّحُب قد انسحبت. أعشى سطوع الصباح عينيّ. مشيتُ فوق العشب الرطب وتمدَّدت بِركةُ التجميع وسط الحديقة. وعندما انحنيتُ لأشرب منها، رأيتُ انعكاس صورتي على سطح الماء لوهلة قبل أن يتبدد.

Twitter: @ketab_n

سمعتُ الباب يُغلِق نفسه ببطء بينما تصدِر مفصلاته صريفاً.

استدرتُ لأعود إلى الداخل.

كانت الدائرة الزرقاء على الباب ما تزال تلمع برطوبة الطلاء، مشرقة في الصباح المضيء مثل خاتم مقصوص من السماء.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الجزء الثالث: الدائرة الزرقاء

الدائرة وحدَها تعرف شكلها

إن سألتها أين تبدأ وأين تنتهي، ستبقى صامتة، وإنما دون أن تنقطع.

وي ولونغ، «طريق الشاي»

القرن ٧ من عصر تشيان القديمة

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الفصل السابع عشر

الماء هو الأكثر مرونةً بين كل العناصر. لا يخشى أن يحترق في النار أو أن يتلاشى في السماء، لا يتردد في التحطُّم على الصخور الحادة في المطر الهاطل أو في الغوص إلى كفَن الأرض المظلم. يوجد وراء كل البدايات والنهايات. على السطح لن يتغير شيء، وإنما في صمت العُمق تحت الأرض، سوف يختبئ الماء ويستدرج بأصابع ملاطِفةٍ قناة جديدة لنفسه، حتى يستسلم الحجر ويستقر ببطء حول الفراغ السرّي.

الموت رفيق الماء الوثيق، ولا يمكن فصل أيٍّ منهما عنا، لأننا مصنوعون من طلاقة الماء وقُربِ الموت. لا ينتمي إلينا الماء، لكننا ننتمي إلى الماء: عندما ينسربُ عبر أصابعنا ومسامنا وأجسادنا، لا يعود شيء يفصلنا عن التراب.

أراه بوضوح الآن، ذلك الهيكل القاتم النحيل، واقفاً بجوار حديقة الصخور، بجوار نباتات الشاي، أو يمشي بين الأشجار. الوجه صبور، وليس غير مألوف. كان الوجه نفسه منذ البداية. أفكر بأنه ربما كان ينتظرني طوال الوقت، حتى عندما لم أكن أدركُ ذلك بعد.

أستطيع أن أشعر بالماء وهو يريد أن يغادرني. أستطيع أن أحسَّ بثقل غباري.

بضعة أيام مضت قبل أن أدرك وضعي.

Twitter: @ketab_n

في ذلك الصباح الأول، بعد أن استدرتُ ورأيت الدائرة الزرقاء على باب البيت الأمامي، وقفتُ ساكنة لفترة طويلة. انساب ماء المطر الذي كنتُ قد شربته من بركة التجميع نازلاً عبر ذقني ورقبتي، وتسرب داخل ياقة سترتي. مسحته بظاهر يدي. رفرفَت ثلاثٌ من أوراق الشجر في الهواء الخفيف، وفكّرتُ بأجنحة يراعات الضوء وهي ترفُّ على زجاج جدران المصباح. حدّقتُ في التفاف الدائرة الذي لا نهاية له، الذي لَم يعرِض أي طريق للخروج. كانت الأرض ما تزال ثابتة تحت قدميّ والسماءُ حيث ينبغي أن تكون. واصلَ العالَم الحياة وراء الحاجز غير المرئي الذي أُقيم من حولي: كان الناس يفكّرون بأفكارهم، يمشون في الطرقات، يتحدثون إلى الذين يحبون. للحظة تموج الواقع من حولي غير واضح المعالم، متداعي الحواف ومنقسماً إلى اثنين. جزءٌ مني ما زال يسير خارج تلك الحدود، فكرتُ، يحيا الحياة التي ينبغي أن تكون. هي في طريقها إلى الأرض المفقودة، وهي شبهُ حقيقية مثلي، في لحظات أكثر حقيقية، ربما، لكنها تنظر في الاتجاه الآخر، وهي لن تعود.

انكسرَت الفكرة وغامَت وانسربَت مبتعدة.

أنا كنتُ هنا، ولا شيء يُمكن أن يغيّر ما رأيتُ.

كانت الأغصان تتأرجح في النسيم: لوَّن الضوءُ شبكة العشب الكثيفة داكنة الخُضرة، حيث تشابكت العيدان في عُقَد فوضوية الأطراف. كان الظل الوحيد الممتد على الأرض هو ظلي، وفي هدأة الصباح لم أستطع أن أميز صوت خطى أو أنفاس، لا كلمات محمولة في الريح. مشيتُ إلى الباب ولمستُ الدائرة. علُق بعض الدّهان بأصابعي. مسحتُ اللون الدَّبِق على بنطالي، وتلطخ النسيج بثلاثة شرائط زرقاء. كنتُ أدرك أن غسلها مستحيل. جعلتني الفكرة غير مبالية.

صرّت ألواح الأرضية عندما خطوت إلى داخل البيت. كان حلقي جافاً كالرمل؛ وكان الابتلاع مؤلماً. توقفتُ في المطبخ، أدرتُ الصنبور وتذكرتُ على الفور أنني ذهبتُ إلى التل لإغلاق أنبوب الماء قبل يومين. لن يكون فيه أي ماء.

Twitter: @ketab_n

كان فيه ماء.

ملأتُ كوب شاي واجترعته. شربت ملء كوبٍ آخر، ثم آخر. لم يتوقف الماء عن الجريان. ميزتُ المذاق: كان آتياً من الينبوع في التل. أغلقتُ الصنبور، ثم فتحته ثانية. ما يزال فيه ماء.

اسمتعتُ إلى صوت أنفاسي. استمعتُ إلى حركة الدم في عروقي. استمعتُ إلى صمت البيت وحاولتُ أن أفهم ما حدث.

طفَت وجوه القرويين في عقلي، الرجاء والامتنان على الشفاه المتشققة، الأيدي تحمل قِرب الماء المليئة، ألواح عظامهم المترمّدة تحت جلودهم المشدودة. خطواتهم المنضغطة بقوة على الأرض، عندما يحملون الثقل الذي تعتمد عليه حياة أبنائهم وأزواجهم أو آبائهم تحت ملابسهم. كان أحدهم/ أو إحداهن قد دخل منزلي، وجلس في مطبخي وأخذ إلى بيته مائي —الماء فقط، صحَّحتُ في عقلي، ليس مائي. وعند العودة إلى القرية، نظر إلى الإعلانات على طول الشوارع، ومبلغ المكافأة مكتوباً عليها. وبعد أيام أو أسابيع، بخطوات ثابتة أو مترددة، مشى إلى الحرس في الطريق. قال، لدي شيء أقوله ربما يهمّكم.

منذ متى يعرِف الجيش؟

هل كانوا يتعقبون حركاتي وتحضيرات سفري، هل كانوا يعرفون عن المركبة وجهاز المرور المزور؟ ربما كانوا يعرفون عن الينبوع منذ أسابيع، لكنهم عرفوا بطريقة ما أنني كنتُ سأغادر القرية، وانتظروا. ربما كانوا يراقبون عند مكان اختباء المركبة، ويرصدون كيف حملتُ أنا وسانيا الطعام والماء إلى هناك.

وبالأمس، عندما مشت سانيا على حافة مقبرة البلاستيك لتنتظرني، خرجوا إلى الفضاء المفتوح، ثلاثة جنود أحذيتهم الثقيلة وأزيائهم الزرقاء، ربما اثنان فقط —واحد سيكفي، لأن سانيا لم تكن كبيرة البنية. استطعت أن أراهم يغلقون الطريق عليها عند مدخل بطن الجسر تحت السماء القاتمة المعلقة ويسحبون سيوفهم من أغمادها. ضبّبَ المطر الشفرات لتبدو مثل سطح مرآة متقرح. أوثق أحد الجنود

Twitter: @ketab_n

يديها خلف ظهرها وخطا الآخر إلى الفضاء تحت الجسر، حيث كانت العربة تنتظر، مستعدة للذهاب. أخذوا المركبة والطعام والماء المحمل في العربة، وقادوها بعيداً، ولم تكن لديها وسيلة للهرب أو الاتصال بي.

حاولتُ ألا أتخيل ما حدَث لسانيا.

تحت كل أفكاري، كنتُ أعرف أن هناك احتمالاً آخر. أنها لم تؤسر. أن الجنود لم يكونوا في حاجة إلى القدوم إليها.

لكنني لم أفكر في ذلك. لن تستقر الفكرة في حدود جسدي دون أن تمزقه.

فكرتُ في كل شيء أعرفه عن الأحداث في بيوت جرائم المياه الأخرى في القرية. لم يكن هناك الكثير: إشاعات، ثرثرات. لمحات غير مؤكدة لسجناء بعيدين وهادئين مثل الأشباح. دمٌ ناشف على رمل ممر الحديقة.

كانت لحظة من الرعب الأجوف حين أدركتُ أنني ربما لن أتمكن من مغادرة البيت، لكنني تذكرتُ عندئذ أنني كنتُ في الخارج فعلاً، بلا عواقب. لم تكن لديّ فكرة كم يمكنني أن أتسكع بعيداً عن البيت. وماذا سيحدث عندما أصل إلى تلك الحدود غير المرئية المرسومة حول حياتي؟ هل ستُطلق النار عليَّ على الفور، أم سيكون التحذير كافياً؟

كانت ثمة طريقة واحدة فقط لأعرف.

كانت ساقاي ترتجفان عندما خرجتُ إلى الشرفة.

كان الطريق من الباب الأمامي للبيت إلى البوابة مألوفاً ومعروفاً لي مثل راحة يدي. كنتُ قد قطعت ذلك الطريق مرات لا تُحصى معظم أيام حياتي، ويمكنني أن أصف شكله وعيناي مغلقتان. ومع ذلك، بدت لي الرحلة عبر العشب الآن غريبة وجديدة، كان قوسُ كل خطوة ناصع الوضوح وكل حركة لمركز جسدي ثقيلة مثل صخرة مقتلعة من الأرض. رأيت فراشة عالقة في نسيج عنكبوت تحت الطنف لم أكن قد رأيته في اليوم السابق. رأيت التموجات في البلاطات الحجرية، وشكل حوافها المائل غير المتسق؛ طبقات المادة الجامدة بلون المعدن الكامد وقد انحشرت

Twitter: @ketab_n

وتعانقت بفعل الزمن. رأيت قدمي المقدودة من العظم الهش والجلد الرقيق، تمتد شاحبة وضعيفة على الدرع الحجري في إطار سيقان العشب الناعم.

تردد النَّفَس في داخلي متعجلاً، رثّاً، وتوقعت في كل خطوة أن أشعر في داخل جسدي —بماذا، بالضبط؟ رأيتُ جراحاً فتحها الرصاص، ضمادات مشوهة ببقع الدم الجاف الدَّبِق، محاطة بسائل أصفر، لكنني لم أكن قد شاهدتُ أبداً رصاصة وهي تشق طريقها إلى ضحيتها. لم أكن قد رأيت الألم على وجه شخص، عندما يشق المعدن جِلده ويمزق أنسجته ويغرق في العظم. تخيلت ألماً لاذعاً حارقاً، مثل انفجار صغير في لحمي، ثم حاولتُ أن أتخيل الألم نفسه مضاعفاً مئة مرة، لأنني كنتُ متأكدة من أن فكرتي الأولى لم تكن قريبة من الواقع. كم سيكون الذي أدركه؟ هل سيكون لي الوقت لأتعقب الأشياء بينما تغادرني الحياة ببطء، أم أن كل شيء سينتهي سريعاً جداً حتى أن الألم الصارخ الذي يحدثه الجرح سيصل بالكاد إلى وعيي؟

ترسَّب الدم في قدميّ وأنا أجبر نفسي على قطع خطوة وراء الأخرى. مالت سيقان العشب تحت عقب حذائي ثم عادت فاستقامت ناهضة باتجاه السماء ثانية عندما ارتفعت قدمي عنها.

خشخش شيء من جهة الغابة. لم أرَ الحركة بين الأشجار. أدركتُ أنني توقفتُ. صفَر نفَسي، علُق في حنجرتي المتصلبة. أرخيتُ عضلاتي وأخرجتُ الهواء من رئتيّ إلى الصباح الهش الذي عبق برائحة مطر الليلة السابقة. لم تكن البوابة بعيدة الآن. خطوة: يمكن أن أبلغها في بضع خطوات طويلة. خطوة، وأخرى وأخرى: يمكن أن ألمس معدن البوابة الباردة بصقيع الليل إذا مددتُ يدي. خطوة أخيرة: كنت أقف مباشرة أمام البوابة.

حفَّت أوراق الشجر وهزت الريح الأغصان. تغيَّرَت الظلال على رمل الطريق. رنّ جرسُ الريح المتدلي من شجرة الصنوبر ورائي بخفوت.

أخذتُ نفَساً، أغلقتُ عينيّ وفتحتُ البوابة.

Twitter: @ketab_n

لم يحدث شيء.

نظرتُ حولي، ومع ذلك لم أرَ أي شيء يوحي بوجود شخص آخر.

خطوت خطوة عبر البوابة.

ثم أخرى.

عند الخطوة التالية شقت السماء فرقعة حادة، وإنما خافتة حدّ الإدهاش، كما لو أنه قد انقصف لوح خشب سميك إلى اثنين بضربة آلة معدنية واحدة. اندفع ملء قبضة من الرمل على بعد عرض إصبعين من أصابع قدمي. تجمدتُ. تلاشى صدى الفرقعة في الفضاء.

عندما كنتُ طفلة، كنت ألفُّ نفسي داخل ستارة في زاوية مكتب أمي وأختبئ هناك خلال العواصف الرعدية، في العتمة الغسقية الناعمة المهدئة حيث ينسرب الضوء من خلل نسيج القماش. كنتُ أنتظر حتى تلتحم الصدوع المهدِّدة في العالم وتتلاشى، ويصبح المشي في البيت بدون الملجأ الذي توفره الستارة آمناً مرة أخرى. الآن، ضربني الباعث نفسه. كلُّ واحدة من ألياف جسدي صرخت بأن عليّ أن أستدير وأركض إلى داخل البيت بأسرع ما تستطيع قدماي أن تحملاني، وأتكور في الزاوية داخل الستارة، حتى تنغلق صدوع العالَم ثانية، حتى لا أنزلق عبرها إلى الظلام الضيق المتشابك أو الضوء اللاذع مفرط البياض. لكن أطراف الستارة تهرأت منذ عصور، وأصبحت الزاوية مليئة ببيوت العناكب والغبار المعقود، ولم يعد ثمة مكان متبق في البيت أو الحديقة حيث يمكن أن أفر من صدوع العالم مفتوحة الشقوق زجاجية الحواف.

خطوت أماماً مرة أخرى.

مزق الصوت الهواء وتدفق الرمل على قدميّ حيث وصلت الرصاصة إلى الأرض. رفعتُ عينيّ ورأيت حركة ربما على بعد عشرة أمتار: شريطاً من الأزرق بين سيقان الأشجار، وبريق المعدن الجارح حيث ضربته شعاعات الشمس.

Twitter: @ketab_n

أكدت محاولتي الثالثة ما كنت قد بدأت أخمنه. تناثر الرمل ثانية، قريباً بما يكفي فقط ليكون تحذيراً موثراً، لكنه تعمَّد أن يكون خارج إطار جسدي. أولئك الجنود يعرفون كيف يطلقون النار، وقد أرادوني أن أعرف حدودي. ومع ذلك، بدا أنهم لا يقصدون إيذائي لسبب ما.

ألقى صمت خانق بثقله على المشهد، عندما تراجعتُ ببطء إلى الحديقة عبر البوابة.

عندما مالت الشمس إلى العصر، كنتُ قد اكتشفت حدود أسري. كانت الحدود تتعقب سياج الحديقة في كل مكان سوى وراء بيت الشاي، حيث لم يكن ثمة سياج. كان الجدار غير المرئي قد أقيم على بعد عشر خطوات تقريباً من جدار بيت الشاي الخلفي، لكنني كنتُ حرة في الدخول إلى بيت الشاي نفسه. استنتجتُ أنه لا بد من أن يكون هناك العديد من بنادق المفرقعات في محيط البيت المباشر، والتي تتعقب تحركاتي باستمرار.

بعد عودتي إلى داخل البيت، أغلقتُ الباب وأسدلتُ كل الستائر على كل نافذة. فهمتُ السبب في أن نوافذ البيوت الأخرى المعلَّمة بالدائرة الزرقاء كانت دائماً مسدلة. عندما تصبح الحياة مقيدة داخل حدود ضيقة، يكون حتى أقل وهم بالحرية ثميناً. لن يستطيع خشب الباب المتهالك وزجاج النوافذ الهش أن يمنعني من أولئك الذين يهددونني. ومع ذلك، إذا استطعت أن أخفي شريحة صغيرة من حياتي عنهم، وأجعلها لي أنا وحدي، فإنني لن أتخلى عن هذه الشذرة من الخصوصية، التي ربما تكون آخر ما تبقى لدي.

تذكرتُ أجهزة الرسائل. أحدُها ما يزال حيث حزمته لكي آخذه إلى الأرض المفقودة. والآخر كنتُ قد تركته في الصندوق الخشبي في غرفتي. سحبتُ جهاز الرسائل المزور من حقيبتي، ووضعتُ إصبعي على الشاشة وانتظرت أن يومض الضوء. لمع صف من النقاط على شاشة العرض: كانت الآلة تبحث عن صلة مع إحدى شبكات الأجهزة. وفي النهاية ظهرت رسالة "لا توجد شبكة" على الشاشة.

Twitter: @ketab_n

اخترت خيار "فتش مرة أخرى" تحتها. بعد دقيقة ظهرت الرسالة نفسها. مشيت إلى غرفتي واستخرجت جهاز الرسائل الثاني. أخبرني شاشته كذلك أنه لا توجد شبكة في البيت. أولئك الذين يستبقونني في الأسر تأكدوا من أنه لن تكون لي طريقة للاتصال مع العالم الخارجي.

قُرب المساء بدأت أقلقُ بشأن الطعام. كان لدي ماء، للآن على الأقل. كنتُ قد ملأتُ كل قِربي من حنفية المطبخ في حال انقطع الإمداد. لكنه لم يكن ثمة الكثير للأكل، مع ذلك. عندما كنتُ أتطلع إلى الرحلة، كنتُ قد حمَّلتُ المركبة بكل شيء يمكن أن يصمد لأكثر من يوم. في خزانة المطبخ عثرتُ على بضع من كعكعات القطيفة وأكلتُ واحدة منها مع شاي خفيف. كنتُ ممتنة للحديقة: التوت، الخضار والفواكه في طور النضوج. ومع ذلك، لن يكون الكثير منها صالحاً للأكل إلا بعد بضعة أسابيع من الآن. كان لدي ما يكفي من رقائق العصيدة لأسبوع، إذا استهلكتها باقتصاد.

عندما هبطت الشمس إلى أقصى مستقر لها الليلة، فتشتُ أدراج المطبخ بحثاً عن سكين سميكة الحد. وقفت أمام الباب الأمامي المغلق. قبل وقت طويل، كانت علاقة معاطف معدنية ذات شعبتين قد عُلقت على الباب بمسامير. كنتُ عادة ما أعلق قلنسوة حشراتي عليها. نقلتُ القلنسوة إلى الرف على الجدار ووضعت حافة السكين على الخشب المطلي بالأبيض. ميزتُ ضربات فرشاة الدهان، بحركات يد أمي: كانت قد كشطت الطلاء القديم، وجعلت الباب يبدو لامعاً وجديداً مرة أخرى. مرَّت أكثر من عشر سنوات منذئذٍ، والدهان تشقق.

ضغطتُ حد السكين بقوة على الباب ورسمتُ خطاً عمودياً واحداً على الخشب، على جانبي الخاص المعاكس للدائرة الزرقاء. تقشّر الطلاء تحت القَطع. ما يزال هناك الكثير من الفراغ لخطوط أخرى.

Twitter: @ketab_n

عندما عدت إلى غرفتي دفعتُ بالسكين تحت وسادتي. تمّددتُ وسقط ضوء أواخر الصيف على وجهي، واستقر جهاز الرسائل قائماً أبكم على الطاولة بجوار سريري.

في الصباح رسمتُ خطاً عمودياً آخر بجوار الأول. بدا الهواء في البيت خانقاً ومتجهماً. وعندما فتحتُ الباب، رأيت صينية طعام متروكةً على درجات الشرفة. لم يكن هناك الكثير: نصف رغيف من الخبز، حفنة من التين المجفف، كيس صغير من الفاصولياء. وضعتها لتنتقع في وعاء ماء وقسمت الطعام بعناية إلى حصص، لم أكن أعرف كم يوماً سأحتاج لأن أعيش عليه. وضعت الصينية في المكان الذي كنتُ قد وجدتها فيه.

فكرت في الماء الذي يجري من أنبوب المطبخ عندما لم يكن ينبغي أن يجري، في بنادق المفرقعات التي وجهت طلقاتها عن قصد بجواري مباشرة، لكنها أخطأت الهدف. فكرتُ في الطعام المتروك على الشرفة. بدأت أتيقنُ مما لم أستطع فهمه: ثمة شخص ما يريد أن يبقيني حية، للوقت الراهن على الأقل.

وأراد أن أكون خائفة أيضاً.

في الليلة التالية ظللتُ أراقب من النافذة لأرى ما إذا كان أحد سيدخل إلى الحديقة. وصل الجندي بعد السادسة صباحاً بقليل. كان يحمل صينية عليها مقدار من الطعام. وعندما وضعها على درجات الشرفة، نهضت رغم التعب الذي يُثقل أطرافي. رفع أنظاره عندما فتحتُ الباب.

"لماذا العلامة على بابِ بيتي؟" سألتُ.

التقط الجندي الصينية الفارغة ولم يُجب. استدار وشرع في المشي مبتعداً. ذهبتُ خلفه. كنتُ أعرف أن القيام بذلك ليس آمناً، لكنه كان عليّ أن أحاول.

"ما الذي أنا متهمة به؟" سألتُ. "ألا أستطيع أن أتحدث إلى أحد ما؟"

استمر الجندي بالمشي دون أن ينطق بكلمة واحدة. عدوتُ قليلاً لأتجاوزه وأغلقتُ الطريق عليه. توقف ووضع إحدى يديه على مقبض سيفه. أدركت عندئذ

Twitter: @ketab_n

فقط أنه ابن الخباز الذي كنتُ قد ذهبتُ معه إلى المدرسة، والذي رأيته في القرية يكتب الإعلانات.

"دعني أتحدث إلى أحد ما،" قلتُ. "إذا كان يجب أن أعيش في الأسر، فإنني أريد أن أعرف تهمتي، على الأقل."

وقف هناك، متوتراً، وانتظرت أن أحس بجرح السيف البارد الحارق على جِلدي. ظل بلا كلام.

"أرجوك،" قلتُ وكرهتُ نغمة صوتي الراجية. وعندما لم يُجِب، سألت، "لماذا تفعلون هذا؟"

بقيَت يده على مقبض السيف حين قال، "ليس مسموحاً لك بالتحدث إلى أحد، وليست لدي الإجابات عن أسئلتك. إنني أؤدي عملي وحسب." صمتَ وراقبني، وللحظة رأيتُه الولد الذي كنتُ قد رأيته يركض لاهثاً في فناء المدرسة بين الصفوف لسنوات، دون أن أمنحه الكثير من الانتباه أبداً."

"ينبغي أن أشُجَّ وجهك،" واصل الحديث، "لكنني سأتسامح معكِ هذه المرة. ربما لن يكون الحراس الآخرون بنفس اللطف. سيكون من الحكمة أن تظلي داخل المنزل عندما يتم إحضار الطعام."

شرع في المسير باتجاه البوابة مرة أخرى. وقفتُ في مكاني، لأن صوته وتعبيره حوّلا لساني إلى حجر وصنعا لقدمَيَّ جذوراً في الأرض. رأيت ظلاماً خلف عينيه أفزعني: ليس ظلاماً مولوداً من الأشياء التي يضطر المرء إلى رؤيتها رغم رغبته في إدارة وجهه عنها، وإنما واحد أكثر كثافة وشراسة وحدة.

ظلامٌ يولد عندما يقوم المرء بأشياء يريد الآخرون أن يشيحوا بأنظارهم عنها.

عرفت بيقين كامل أنني إذا تبعته أو تحدثتُ إليه مرة أخرى، فإنه سيشجني بسيفه ويتركني أنزف حتى لا أعود أتحرك ثانية. راقبته وهو يختفي عبر البوابة بين الأشجار، وبعد الكثير من اللحظات التالية فقط تدفق دمي خفيفاً بما يكفي لأستطيع العودة إلى داخل البيت.

Twitter: @ketab_n

في مساء اليوم الثالث كنتُ أقف بجوار حديقة الصخور، عندما رأيت حركة على الطريق قادمة من القرية. من بعيد استطعتُ معرفة الشخص الذي كان يسير على قدميه ولا يرتدي زياً أزرق. بدت أقصر من أن تكون سانيا. تحرك هيكلها مقترباً أكثر، امتزج بظلال الأشجار، ولم يخرج أحد ليقطع عليها الطريق. وبينما اقترَبَتْ من البوابة، ميزتُ القادمة بأنها ماي هارمايا. على بعد نحو عشرة أمتار خارج البوابة، توقفَتْ في مكانها وحدقت في المنزل. تحولت عيناها وأصابتاني بنظرتها، ثم أدارت وجهها نحو البيت مرة أخرى، وتوقفت نظرتها على الباب. بعد لحظة تلفتَّت حولها، استدارَت وشرعت في المشي عائدة باتجاه القرية بخطوات متعجلة.

بينما كان هيكلها القصير ينسحب مبتعداً، عرفت أنني لن أرى المزيد من القرويين على الطريق بين الأشجار المحيطة بالبيت بعد الآن.

Twitter: @ketab_n

الفصل الثامن عشر

خدشَ حدُّ السكين الطلاء وكشف سطحاً خشبياً خفيفاً تحته. بدأ الخط الذي خربشتُه للتو الصف السادس من العلامات. دفعتُ بسكيني في غمد لم يكن يناسبها، لكنه يظل أفضل من عدم وجود غمد على أي حال، وضعتها في جيبي، تماماً كما كنت أفعل كل صباح في الأسابيع الخمسة الماضية.

لم أكن قد تحدثتُ إلى أحد بعد اليوم الذي أدار فيه ابن الخباز ظهره لي ومشى خارجاً من البوابة دون أن ينظر خلفه. كل صباح كنتُ أجد الصينية على الدرجات، ومن حين لآخر كنتُ أرى لمحةً خاطفةً لزي أزرق، لكنني لم أمتلك الشجاعة للتحدث مرة أخرى إلى الجندي.

فقط عندما تكون حدود الحياة هشة ومغلقة، تصبح الحاجة للالتزام بها، هذه الحاجة الموجعة، واضحة.

كل صباح ومساء ظللتُ أشغل جهازي الرسائل كليهما. ليس هناك ما هو أكثر إلحاحاً من الأمل: حتى بعد أن تخيلتُ أنني تخليت عن الأمل بأن يومض الضوء على أحدهما، كان الضوء يومض في داخلي، وكان عليّ أن أدفعه ثانية إلى العتمة حيث لن يكون له متسع ليعيش أو يتنفس. كل مرة ظلت فيها أضواء جهاز الرسائل مطفأة، كان قلبي يدق أثقل قليلاً. لكن ذلك كان يدوم لحظة فقط، ثم

Twitter: @ketab_n

يصبح أسري مرة أخرى سديماً كامداً أدخل فيه خطوة إضافية في كل مرة، غير عارفة متى يمكن أن يصبح المشهد واضحاً أو ما الذي يمكن أن أجده أمامي.

كنتُ أملأ أيامي بمحاولة العثور على طعام في الحديقة وتخزين أكثر قدر أستطيعه من الماء. أصبح وجود الماء في الحنفيات غير قابل للتنبؤ: في بعض الأحيان يكون فيها ماء، وأحياناً لا يكون. وعندما لم أكن أقوم باستخراج الخضراوات الجذرية أو أملأ القرب والأوعية، كنت أنشغل بالتخمينات العبثية عما يمكن أنه يحدث الآن في العالم الخارجي. لم أكن أعرف ما يحدث في القرية، أين في القارة تحدث المعارك أو ما إذا كان الطرق إلى شينجينغ سالكاً. حسب ما أعرف، ربما تكون شينجينغ قد احترقت وانهدت على عروشها، ولم تصلني الأخبار. بل إن القرية نفسها ربما لم تعد موجودة هناك بعد الآن. ربما يكون كل ما تبقى هو هذا البيت والحديقة، والأشجار التي تنحني في الريح، ورمل الطريق الذي يتدفق باتجاه القرية، وجوانب التل الخشنة والسماء وراءها.

ربما لم تعد أمي موجودة بعد. ربما لم تعد سانيا موجودة بعد.

جاءت لحظات عندما كان صمتُ البيت، هدوءُ حياتي الحبيسة بين حيطانه يهددان باعتقال خطواتي تماماً، حتى أشعر بأنني كنتُ أتحول إلى حجر. أولاً ستفقد قدماي مرونتهما، سوف يتلطخ جلدهما قليلاً قليلاً بالرمادي المطري ويقسو، حتى لا تعودا تنحنيان عند الركب والكاحلين، ولا تعود فيّ القدرة على رفعهما. وعندما لا أعود قادرة على السير خطوة واحدة، سوف أشاهد مادة الحجر المسامية تشق طريقها فيّ، مثل المرض، لتحجّر شفتيّ وخاصرتيّ وصدري، وتتقطر ثقيلة إلى أطراف أصابعي وراحتيّ، وتقيد معصمي وكوعيّ في أمكنتها. وسيكون آخر شيء يتحجّر هو وجهي: سوف يبقى الجفنان مفتوحين، وسأشعر بعينيّ وهما تجفان ببطء دون أن تتمكنا من الرفيف، وأسمع صدى قلبي يتردد في داخل صدفته الحجرية، حتى يهمَد هو نفسه أخيراً.

كان عليَ أن أتجنب الأفكار التي لها القدرة على تجميدي. لم يكن يجب أن أتوقف، ليس بعد.

Twitter: @ketab_n

ذهبتُ لألتقط صينية الطعام عن الدرجات وأحضرتها إلى المطبخ، وأفرغت الطعام على الطاولة. كان الإمداد متواضعاً اليوم: حفنة من القطيفة، كيس من بذور عباد الشمس. لقد لاحظ الحراس أن المحصول في الحديقة كان ينضج. بعد تناول إفطار هزيل أعدت الصينية إلى الشرفة وذهبت إلى الحمام لأغتسل. خلعتُ ملابسي وخطَوتُ تحت الدشّ. وبدل وابل الماء البارد، نزّت بضع قطرات فقط من رأس الدش. انتظرتُ فترة قصيرة، أغلقتُ الصنبور وأدرتُه ثانية. تنفس الأنبوب بصفير لوهلة، ثم صدر صوت صرير معدني خفيض من مكان ما عميق، كما لو أن الأنبوب يتقلّب ويغيّر الاتجاه. في النهاية اندفع الماء. وضعتُ نبات عِرق الحلاوة المُرغي على كامل جسدي بسرعة، لأنني كنتُ قد اعتدتُ عدم انتظام إمداد الماء في البيت في تلك الأيام. فكرتُ في سطح الينبوع والعلامة البيضاء التي لاحت مباشرة تحته عندما ذهبتُ إلى الينبوع للمرة الأخيرة، لكنني أحسستُ بدمي يدور بثقل مرة أخرى وطردتُ الفكرة. ما يزال لديّ ماءٌ تحت تصرفي على الأقل. حتى مع العلامة التي تدينني كمجرمة على بابي، لم أكن بحاجة لأن أسير بملابس متسخة أو أن أمضي أسابيع بلا استحمام. حتى في أسري كان لدي أكثر مما لدى معظم القرويين في حريتهم.

كنتُ ما أزال أجهل السبب.

بعد أن ارتديتُ ملابسي ذهبتُ لأكنس البلاطات الحجرية المفضية إلى بيت الشاي. مسَح عشبُ الليل الذي تشبث بالعشب قدمي من خلال أشرطة حذائي. كان اليوم ملفعاً بالغيم، لكنه لم ينزّ رطوبة المطر. جمعت الأوراق الساقطة على الممر في كومة عند زاوية بيت الشاي، واخترتُ حفنة منها لأنثرها على الحجارة وحملت البقية إلى كومة السماد خلف الكوخ، حريصة على عدم الاقتراب كثيراً من حدود سجني غير المرئية.

كانت ثمار عنب الثعلب محمرة العروق ومنتفخة على شجيراتها في ذلك الوقت، ساحبة الأغصان إلى أسفل بثقلها. التقطتُ وعاءً من الشرفة.

Twitter: @ketab_n

طقطقَت ثمار عنب الثعلب على قاع إناء البلاستيك هادئة مثل المطر، وانفجر عصيرها حلواً في فمي وانسحقت بذورها بحلبة بين أسناني. وبينما كنت أحمل حمل الثمار باتجاه البيت، وقد انقبضت أصابعي من حمض الشجيرات، رأيت مركبة آلية تقترب على الطريق. في البداية لم أعرها الكثير من الاهتمام. كان الجنود يأتون ويذهبون حول المنزل، غالباً على الأقدام، وإنما كانت مركبة آلية تحضرهم أو تأخذهم بين الحين والآخر. كان تغيير الحراس لا يُلحَظُ عادة: في بعض اللحظات كنتُ أتظاهر تقريباً بأنه ليس ثمة شيء غير عادي يحصل في حياتي، لأن الحراس أبقوا حضورهم غير مرئي في الغالب طالما لم أحاول عبور الخط.

مع ذلك، توقفَت المركبة تحت مظلة عشب البحر المخصصة لمركبات الزوار، وهو ما لم تفعله أي من المركبات السابقة. وضعتُ وعاء ثمار عنب الثعلب على حافة الشرفة. ترجَّل رجل طويل من العربة. سار عبر البوابة إلى الحديقة، وتوقف أمامي وانحنى.

لم أردَّ التحية بالانحناء.

"القائد تارو،" قلت. "ماذا فعلتُ لأستحق هذا الشرف غير المتوقع؟"

خطا أقرب إليّ، قريباً جداً حتى رأيت انعكاس صورتي في عينيه السوداوين الصارمتين بالرغم من شبكة قلنسوة الحشرات. توترت عضلاتي، وأرادت أن تخطو بي إلى الوراء، لكنني أجبرتُ نفسي على الوقوف في مكاني. كان يقيسني بنظرته. ولم أخفض عينيّ.

"يمكنني أن أرى أنك لم تتغيري منذ لقائنا الأخير، آنسة كيشيو،" قال تارو. التوت زاويتا فمه في ابتسامة جعلتني أفكر بالسكاكين والسيوف، بل بشيء أكثر حدة. "ما رأيك بضيافتنا؟" ولوّح بيده، كما لو أنه يلفّ البيت والحديقة في قبضته. "أعتقد أننا كنا لطيفين معك بشكل استثنائي: لديك الكثير من المساحة للتمرين، والطعام والماء يأتيان بانتظام: القليلون من السجناء يتمتعون بمثل هذا الترف."

"لا أستطيع إنكار أنني تساءلت عن السبب في منحي هذه المزايا،" أجبتُ.

Twitter: @ketab_n

"أفترض أنكَ أتيت لتنوّرني."

بدا تارو مستمتعاً، لكن تعبيره كان أشبه بقناع رقيق موضوع فوق ملامحه. لم يتحرك شيء وراء عينيه.

"سيكون من العار السماح لمواهبك الخاصة بأن تذهب دون استخدام، يا آنسة —أعني يا معلم كيوشو،" قال. "لذلك اقترح أن نتحادث على كوب من الشاي. هلا تلطّفتِ وأدّيتِ المراسيم لتكريم زيارتي؟"

على الرغم من لهجته الرسمية المهذبة، عرفتُ أن ما قاله لم يكن طلباً.

"أعطِني خمسَ عشرة دقيقة، قائد تارو، حتى أستطيع تهيئة كل شيء. ليس هناك حلويات،" علّقتُ دون أن أحاول تليين نغمة صوتي. "سوف تقبلُ اعتذاراتي عن ذلك، كما أتوقع."

"كما تريدين، معلم كيشيو،" أجاب.

تركته في الحديقة ومضيت إلى داخل البيت. وبعد التأكد من أن الستائر مسدلة بإحكام، تناولت زي معلم الشاي من خزانتي وارتديته. كان أنعم وأكثر ألفة مما كان عليه ذات عيد قمر أصبح ينتمي الآن إلى عصر آخر وحياة أخرى، عندما ارتديته للمرة الأولى. لكنّ ثمة شيء غريب كان فيه أيضاً، كما لو كنتُ أرتدي جِلداً ليس لي، وإنما مستعار وحسب. كان ارتدائي زي المعلم عملاً غير عقلاني وغير ذي جدوى: كنتُ أعرف أن تارو لم يتوقع مني ذلك. لكن شكل حفل الشاي اللامتغير المتصل بسلسلة غير منقطعة من المعلمين كان الجسر الوحيد الملموس الذي استطعت أن أبنيه مع هشاشتي الخاصة، ومع الحُرمة التي يتمتع بها معلم الشاي. لقد وفّر الزي لي درعاً يمكن أن أحتمي وراءه.

كان لديّ العديد من مجموعات الشاي في بيت الشاي، وكنتُ قد كنستُ الكوخ وغيّرتُ هواءه يومياً، بل إنني غسلت الأرضيات عدة مرات، ولذلك كان كل ما احتجته هو حمل الماء إليه. وبعد عشر دقائق خرجتُ من البيت مرتدية زيي وحاملة قربة ماء ملأتها من صنبور المطبخ.

لم أرَ تارو على الفور. ثم لاحظت أنه يقف خارج بيت الشاي ويرشّ الماء

Twitter: @ketab_n

على العشب من الحوض الحجري الذي أمامه. كان ترطيب العشب بالماء يرمز إلى التطهير الرمزي لبيت الشاي ومحيطه، ولم يكن مسموحاً لأي أحد سوى معلمي الشاي وتلاميذهم أن يفعلوا ذلك. صعد الغضب مريراً في حلقي واستقر خلف عينيّ. تردد صوت ارتطام باطن حذائي برفق على البلاطات الحجرية وأنا أسير إلى الكوخ.

"أخشى أن عليك أن تزحف عبر باب الزوار مرة أخرى،" قلتُ. "لم نغيِّر ارتفاعه عندما أصلحنا بيت الشاي."

مسح تارو يديه المبلولتين على قماش سرواله السميك وابتسم ابتسامته المسنونة. تحولَت النظرة في عينيه السوداوين مثل حركة تخفق في مرآة داخل غرفة مظلمة.

"خمّنتُ ذلك،" أجاب.

لم ينحنِ أيٌّ منا. درتُ حول بيت الشاي إلى مدخل المعلِّم.

بعدما أشعلتُ النار، وسكبتُ الماء في المرجل لأسخنه ووضعتُ مجموعة الشاي في الصينية، سحبتُ باب الزوار المنزلق لينفتح قليلاً. بعد لحظة دخل تارو زاحفاً على ركبتيه. كان قد خلع قلنسوة الحشرات في الخارج. وبلا أي تفكير، ومسترشدة بذاكرة عضلاتي، انحنيتُ له. انتشرَت ابتسامة على وجهه مرة أخرى، وانحنى ردّاً على انحناءتي. بدا لي أنه بالَغ في الإيماءة من باب الازدراء، وإنما قليلاً فقط بحيث لم أكن متيقنة تماماً. اندفع الدم إلى خَديّ. أخذتُ نفساً عميقاً وفكرتُ بالماء: الماء الذي حملني وقيّدني، الماء الذي يفصلني عن الغبار، الماء الذي لم يغادرني، ليس بعد.

ظهرتْ عشرُ فقاعات في قاع المرجل.

حضّرتُ الشاي وقدمتُ الكوب لتارو. تناوله بغير استعجال، نفَخ فيه، ولم يرتشف، لأن الشاي كان لا يزال ساخناً جداً، ووضعه على الأرض.

كان يراقبني بثبات. وأدركتُ أنني كنتُ أتعرض لتقييم. أرعبني ثقل نيّته وبروده. لقد أتى إلى هنا لغاية في ذهنه. لم أعرف ما هي، لكنه بينما يجلس هناك، صامتاً بلا حراك، أدركتُ أن شيئاً لا يستطيع أن يعطل غايته، لا شيء يكسر أو حتى

Twitter: @ketab_n

يخدش سطحها الصلب اللامع. لم يكن في عجلة من أمره. كان يستطيع أن ينتظر وأن يبحث عن نقطة ضعفي حتى يجدها.

في نهاية المطاف، بعد صمت طويل، قال، "إنك لستِ خائفة مني، نوريا. لماذا لا تخافين؟"

لاحظتُ أنه أسقط الألقاب واستخدم اسمي الأول، وهو ما كان خرقاً متعمداً لآداب مراسيم الشاي، وطريقة غير محترمة لمخاطبة معلم شاي خلال الطقوس. لم أُجِب، وهو لم يرفع أنظاره عني.

"تعرفين أنني أستطيع إيذاءك إذا أردتُ؟" واصل الحديث. لم يتغير تعبيره. "أو أستطيع أن آمُر أحداً آخر بأن يفعل ، وأشاهد."

كنتُ أدرك ذلك، بالطبع. الجميع يعرفون عن الأشياء التي تحدث في الظلام، تلك التي يكون من الأسهل لك أن تحوِّل بصرك عنها وتتجنبها. كنتُ قد فكّرت بها، ربما كثيراً جداً. بأمي، بالجدران حولها، والتي ربما تكون أقرب وأكثر سماكة من هذه التي تحتجزني؛ بالمعدن الذي لا ينحني الذي ربما يخز الآن جِلدها الرقيق الهشّ. بسانيا. دفعتُ بهذه الفكرة خارج عقلي، ثانية، لأن حدودي بدأت تهتز وتتداعى، ولم أستطع أن أسمح لذلك بأن يحدث، ليس الآن.

"إنك تتحدثين بتحدٍّ ولا تنحنينَ لي،" قال تارو. "لماذا؟"

قلتُ الشيءَ الوحيد الذي استطعتُ أن أقوله في ذلك الموقف، وبينما تغادر الكلمات شفتيّ، أدركتُ أنه كان صحيحاً.

"لم تعد تستطيع أن تفعل لي أيَّ شيء مهم."

رفع تارو كوبه إلى شفتيه، نفخَ فيه مرة أخرى ورشف.

"لا شيء على الإطلاق؟" سأل. بقيَت النظرة المقيِّمة نفسها حاضرة في سواد عينيه. "ماذا لو قلتُ إنني أستطيع أن أعيدَ إليك حياتك؟"

"لن أصدّقك،" أجبتُ.

"أعرفُ عن الينبوع،" قال تارو. "لكنني متأكد أنّك خمّنتِ ذلك مُسبقاً. كان من الحكمة لو أنكِ أبلغتِ عنه. أفهم أن أباك كان عنيداً في هذا الأمر، ونقلَ

Twitter: @ketab_n

العناد نفسه إليكِ. إن تقاليد معلمي الشاي البالية مضحرة من وجهة نظري. كانت بالطبع مسألة وقت فقط قبل أن تتأكد شكوكي." أدار تارو إصبعه على حافة كوب الشاي المستديرة. كانت أمي قد علمتني إصدار صوت من كوب الشرب باستخدام نفس الحركة: عندما أمسحُ الحافة بإصبع رطب، فإن ذلك يصنع صوتاً غريباً عالي النبرة، يتردد صداه ويملؤني بالقلق مثل فكرة هاربة لا أستطيع القبض عليها. كانت أمي قد أخبرتني بأنني إذا فعلت ذلك بالكوب لوقت طويل، فإنه سينكسر. لم أجرؤ على استخراج الصوت من كأس مفرد منذئذ.

"حتى معظم معلمي الشاي نسوا هذا،" واصل تارو. "لأنهم يعيشون في المدن منذ أجيال طويلة الآن، لكن جوهر المهنة الخفي يتصل بأنّ معلّمي الشاي كانوا ذات مرة حراس الينابيع. لقد وثق أبوك بحظه كثيراً. معلم شاي في قرية آسنة المياه استطاع مقاومة إغواء المدن، وحديقته مزدهرة وطعم شايه أفضل من شاي أولئك الذين يشترون أفضل أنواع الماء؟ كان واضحاً أيّ سر كان يحرس.

توقفَت أصابع تارو على حافة الكوب. كنتُ أستمع إليه وهو يتحدث بقلق متصاعد، ولم أستطع احتواء نفسي.

"ما الذي تعرفُه عن تحالُف معلّمي الشاي مع الماء؟" سألتُ، بعدائية أكثر مما قصدتُ.

رنت ضحكة تارو مثل رنين الزجاج.

"لا حاجة بك لأن تكوني قلقة إلى هذا الحد. لم يكن أبوك يكذب عندما قال لكِ إنها معرفة سرية،" قال. "صحيح. أولئك الذين تدربوا كمعلمي شاي فقط هم الذين يعرفون."

كدتُ أسأل كم منهم عذّبَ حتى يحصل على معلوماته السرية، لكن الكلمات توقفت في فمي وخفق شيء في ذاكرتي.

منذ البداية، كان هناك تأنٍّ مميز في طريقة خرق تارو لآداب مراسيم الشاي. كنتُ قد التقيتُ بضيوف ارتكبوا أخطاءً لأنهم لم يكونوا يعرفون الإتيكيت، أو لأنهم نسوا جزءاً منها. كانت أخطاؤهم ممزوجة إما بالخلط أو الجهل: كانوا يشعرون

Twitter: @ketab_n

بالحرج عندما تنكشف خلفياتهم الأُميّة من أخطائهم، أو أنهم لم يكونوا يعرفون حتى أن هناك آداباً دقيقة ينبغي أن تُتَّبع، ولم يكونوا يهتمون كثيراً. لكن تارو، مع ذلك، أعطى الانطباع مسبقاً منذ زيارته الأولى بأنه أراد ذلك، كان يستطيع اتباع الآداب تماماً، لكنه خرقها عن قصد فقط لأن لديه السلطة ليفعل ذلك. كان على دراية بمراسيم الشاي حتى آخر تفصيل بقدر ما أنا كذلك، وبسبب هذا، كان يعرف بالضبط كيف يثير حفيظة معلِّمي الشاي والضيوف الآخرين.

كل ذكرى كانت لديّ عنه تكشفت الآن في ضوء جديد: كيف حوّل زيارته الأولى إلى فحص عرَضي؛ كيف أمر بتفكيك بيت الشاي إلى أشلاء وهو يعرف أن إعادة بنائه بالطريقة نفسها ستكون مستحيلة؛ كيف قام بمصادرة كتب معلِّمي الشاي من البيت مع أنه كان يعرف أن أي معلم شاي لا يمكن أن يترك سجلاً مكتوباً عن ينبوع سري خلفه. كيف رشّ الماء على العشب رغم حقيقة أن تلك مهمة معلم الشاي وتلاميذه وحدهم، وأنها ستعني تدنيس المراسم إذا مارسها أي شخص آخر.

راقبني، وانتظرني حتى أفهم.

"أنتَ معلِّم شاي،" قلتُ.

أدار تارو رأسه قليلاً. لم أستطع قراءة تعبيره.

"كنتُ،" أجاب. "أو حتى أكون أكثر دقة، كان يفترض أن أكون. تعلمتُ من أبي، كان حافظاً للماء، واحداً من الأخيرين. كان يحتقرُ معلمي الشاي في المدن، ويعتبرهم خائنين للمهنة."

تطوّحَت الرطوبة المتصاعدة من المرجل في هواء بيت الشاي، وتركزت على النافذة ووجهي.

"لكنك لا تمارسُ المهنة،" قلتُ.

أفرغ تارو كأسه، وضعَه على الأرض ودفعَه باتجاهي. ملأتُه.

"ليس بعد أن كشفتُ عن موقع ينبوع أبي للجيش،" قال. "جعلتهم يعرفون أيضاً أنني ربما أكون مهتماً بوظيفةٍ في الجيش. كانوا لطيفين جداً معي بعد ذلك.

Twitter: @ketab_n

لكننا نشرُد عن الموضوع،" قال. "كما قلتُ، أستطيع أن أعيد إليك حياتك، إذا أردتِ." رفع الكوب إلى شفتيه، لكن السائل كان ما يزال ساخناً جداً، فوضعه مرة أخرى. "ربما ليس كما كانت تماماً، وإنما جزءا كبيرا منها بما يكفي."

أبقيتُ يديّ على ركبتيّ، ولو أنني أردتُ أن أمسح الرطوبةَ عن جبهتي، ولم أقل شيئاً.

"لم تسمعي، هل سمعتِ؟ عن أمكِ؟"

أدركتُ أنني لا ينبغي أن أقبل المقايضة معه، لكنني كنتُ قد حدقت في شاشة جهاز الرسائل الفارغة لأيام كثيرة جداً، وابتكرت أفكاري الكثير جداً من القصص التي لم أرِد متابعتها إلى النهاية. لم تكن لدي القوة لوقف دفق كلماتي.

"ما الذي تعرفه عن أمي؟"

لم يتغير تعبير تارو.

"حدثت ثورة في شينجينغ، أمك مفقودة منذ شهر،" قال. "يُعتقد أنها ماتت."

كنتُ أخشى هذه المعرفة، ومع ذلك ووجهتُ بها الآن. سوف يأتي الحزن فيما بعد، لكنه الآن انسكب خارجاً مني ببساطة، تشتت وخلَّف فراغاً خلفه.

"ليس في نطاق سلطتي أن أعيد الموتى،" قال تارو. "ولكن ماذا عن أولئك الذين لا يزالون أحياء؟"

رأني أحفل وقرأتُ الرضا على وجهه.

"أليسَ هناك أحدٌ آخر ستحبين أن تنقذيه إذا استطعتِ؟"

تعلَّقَ نفَسي بحنجرتي ودقَّ قلبي أسرع.

"أين هي؟" سألتُ.

أمال تارو رأسَه وتحول تعبيره إلى تأمُّل.

"طلبَت مني أن أوصل إليكِ رسالة. طلبتْ منكِ أن تقبلي عرضي."

ابتلعتُ ريقي.

"ما هو العَرض؟"

"يمكنُ أن تستعيدا كلاكما حريتكما وربما تستأنفان حياتكما كما هي حتى

Twitter: @ketab_n

الآن، بسلام، وفي حماية الجيش. بل يمكنكما أن تستخدما الينبوع بحرية أكثر من بقية القرويين."

فكرتُ في الأسابيع التي كان فيها الينبوع لنا وحدنا فقط. التوَت زاويتا فم تارو، وعرفتُ أنه شاهد التغيير على وجهي. أجبرتُ نفسي على النظر في عينيه مباشرة.

"بأيِّ شرط؟"

"يجب أن توافقي على أن الينبوع يعود إلى الجيش من الآن فصاعداً، وأن تعملا كلاكما لي." توقف، تاركاً الكلمات تستقر في عقلي. "لقد ارتكبتما بعض الأخطاء الحاسمة، بطبيعة الحال، لكنكما كشفتُما أيضاً عن ذكاء ومكر. كدتُ أصدق لوهلة أنه لا يوجد ينبوع. كان على موروموكي أن يتجسس عليكما لوقت طويل ويقوم بالكثير من الاستعلام والاستفسارات قبل أن يعرف من أين يأتي الماء وكيف يتم تهريبه إلى القرية. يمكننا أن نستخدم جواسيس بمهارتكما."

للمرة الثانية خلال حديثنا تحرَّكت الصور في ذاكرتي واتخذَت تفاصيلها شكلاً جديداً. زيارة الشاي التي قام بها موروموكي في اليوم الخطأ؛ وقوفُه عند بوابة بيت سانيا وأحاديثه معها. وثمة ذكرى كانت شبه منسية، لكنها طفت الآن إلى سطح الذاكرة، واضحة وسط الأخريات: الضيف أشقر الشعر في جنازة أبي، الوجه الذي بدا مألوفاً لكنني لم أتمكن من تسميته. طوال هذا الوقت لم أدرك كيف كانت الشبكة تنغلق من حولي.

كان كل شيء صامتاً في الغرفة، ولم أستطع رؤية الطريق أمامي بسبب الضباب المتصاعد من الأسابيع الماضية والإبهام الذي لفها؛ بسبب صدوع العالم، الذي جعل كل شيء مرآة قاتمة لم أستطع أن أميِّز فيها وجهي نفسه.

"وسانيا طلبت مني أن أقبل بهذا؟"

"قالَت إنها كانت ستفعل، إذا كان يعني أن تتمكنا من رؤية بعضكما ثانية."

فكّرتُ في سانيا، واستطعتُ أن أحس بنفسي وأنا أتحول نحو تقبل الفكرة. كنتُ أشعر بالملل. "نعم" كانت كلمة سهلة في فمي، والصورة خلف عينيّ من المستحيل تحويل النظر عنها: يدها في يدي عند في الينبوع، حيث التيار الهادر

Twitter: @ketab_n

يضغط على أنحاء جسدينا، علامتنا إلى الأبد في ذاكرة العالَم والماء.

أغلقتُ عينيّ وأخذتُ نفَساً.

"إنها تعتقدُ أن الأمر يستحقّ،" واصل تارو بنعومة. "لذلك أتتَ إلينا."

فتحتُ عينيّ. انسلَّت الكلمات هاربة، والصور، كل ذلك الذي لم أستطع أن أجعله حقيقياً حتى لو أردتُ.

"أنتَ تكذبُ،" قلتُ.

تحول وجه تارو إلى تعبير لم يكن ابتسامة تماماً، وسقط عنه شيء، قناع، خطة محبوكة بإحكام —لم أكن متأكدة أيّهما. رأيت صدعاً يظهر في نيته المحكمة، ولذلك رتّب وجهه إلى نسيج فارغ لا يتحرك مرة أخرى، وأدركتُ أنني كنتُ محقة.

"يمكن أن أعترف بأنني كذلك،" قال تارو. "لكنك لن تعرفي ذلك. ليس لديك سوى كلمتي فقط، وأنتِ لا تثقين بي." صمَت. حدّقنا كلٌّ منا في الآخر، وكانت الأشياء الوحيدة التي تتحرك في الغرفة هي أنفاسنا وأفكارنا. "ماذا لو قلتُ لكِ أن سانيا لم تأتِ إلينا من أجلك وإنما لأنها أرادت أن تحمي عائلتها؟ هل تجدين تصديق هذا أسهل؟"

لفَّت الظلال سانيا وحملَتها أبعدَ عني، حتى لم أعُد أراها. لم أرفَع يدي. لم أقل كلمة واحدة لأمنعها عن الذهاب. مشَت مبتعدة ولم تنظر إلى الوراء.

كنتُ وحيدةً، وقلتُ الشيء الوحيد الذي استطعت أن أقوله.

"لا شيء سيجعلُني أقبل عرضَك."

رفع تارو كوب الشاي إلى شفتيه، وأفرغه ببطء، ومسح فمه ووضع الكوب على الأرض.

"هل هذه هي كلمتك النهائية؟" سأل. "فكري بروية. لن تكون هناك فرصة أخرى."

"إنها كذلك."

هزّ تارو رأسه. ترددت نهائية إيماءته في جدران الغرفة الضيقة. وقف على قدميه وسقط ظله عليّ. وللحظة، اندغم بي كما لو أنه ظلي.

Twitter: @ketab_n

انتقلتُ عبر الأرضية إلى مدخل الزوار وفتحته قليلاً لتارو. ركعَ ثانية وكان على وشك الزحف خارجاً إلى الشرفة، لكنه وقف واستدار باتجاهي.

"ينتابني الفضول،" قال، وللمرة الأولى لمحت شيئاً فيه يشبه الاهتمام الأصيل. "لماذا؟ هل تعتقدينَ أن مكافأة ما تنتظرك، في حياة أخرى أو في الآخرة، إذا فعلتِ ما تتصورين أنه الصواب؟"

"كلا،" قلتُ. "أعتقد أن علينا اتخاذ خيارات صعبة كل يوم رغم معرفتنا أنها دون مكافأة."

"لماذا؟" كرَّر.

"لأنه إذا كان ثمة شيء، فإنها الطريقة الوحيدة لترك علامة في حياتك يمكن أن تُحدِث فرقاً."

لم يطرِق تارو موافِقاً، لم يبتسم، لم يسخَر. نظر فقط، واستدار ثانية ليغادر.

"ينتابني فضول أيضاً،" قلتُ، وتوقَّف. "إذا كنتَ لا تؤمن بالمكافآت، إذا كنت تعرف أن سلطتك نفسها سوف تتلاشى، لماذا تستمر في تعظيمها وتقوم بأشياء تعرف أنها خاطئة؟"

لم يتحرك تارو قيد أنملة من سؤالي. ظل صامتاً. سمعتُ صوت أنفاسه في هواء الكوخ الرطب، وتخيلتُ أن ثمة ارتجافة لا تكاد تلحظ خالجَت تعبيره، لكنني ربما كنتُ مخطئة. كان ينظر بعيداً، وعندما أدار وجهه باتجاهي ثانية، كان الذي رأيتُ هو الحجر والزجاج.

"لأنه إذا كان ثمة شيء،" قال أخيراً، "فإنني ربما أستمتع بالأمر بينما ما يزال موجوداً."

كنا نجلس جاثيَين على ركبنا، كل منا مقابل الآخر، ولم يفصل بيننا شيء، ولم يربطنا شيء معاً. كان يمكن أن تكون خياراته خياراتي؛ كل الظلال تتقاسم اللون نفسه، وكلها تختفي في الظلام.

"وداعاً، قائد تارو،" قلتُ أخيراً. "لم يعُد هناك ما يمكن أن أصنعه لك."

لم أنحنِ للوداع. ومع ذلك انحنى تارو لي، وهذه المرة لم أرَ الازدراء أو التهكم في

Twitter: @ketab_n

حركته، ولو أنني لم أرَ الاحترام، أيضاً. انتظرتُ حتى زحفَ خارجاً من الكوخ ولم أعد أستطيع سماع وقع خطوات حذائه على الشرفة أو على حجارة الممر.

في ذلك المساء أحصيتُ الخطوط التي كنتُ قد رسمتها على الباب، وأحصيتُ الأيام التي أعرف أنها مرت على بيوت جرائم المياه الأخرى بين وقت ظهور العلامة الزرقاء وإعدام السكان.

عندما خرجتُ لأملأ مصباحي الليلي ببراعات الضوء، رأيت هيكلاً كامداً نحيلاً يقف في جوار زاوية بيت الشاي، حيث تتكاثف الظلال. لم أستطع رؤية وجهه، ليس بعد، لكنني أحسست بأن ذلك الهيكل كان ينظر مباشرة إليّ قبل أن يستدير ويختفي خلف بيت الشاي، فيما وراء الحدود المخصصة لي.

Twitter: @ketab_n

الفصل التاسع عشر

كان الغبش ما زال مخيماً في الخارج عندما نهضتُ لأصنع شاي الصباح. كان صنبور الماء سيئ العمل، كما كانت حاله كل يوم تقريباً خلال الأسابيع الثلاثة الأخيرة: في البداية انفجر الماء خارجاً في الإناء في انهمار مندفع، خفَتَ إلى قطرات، ثم استقر أخيراً في قَطْرٍ هزيل. تَّمدد معدن الأنابيب وانحسر الصوت في الأحشاء مبتعداً عن المنزل. وضعتُ إناء الشاي تحت قَطْر ماء الصنبور.

لم يتبقّ الكثير من الوقت الآن.

بينما كان إبريق الشاي يمتلئ، ذهبتُ لأرسم خطاً جديداً على الباب. كان السادس في الصف السابع. كان أكثر من أسبوع فقط قد عبَر منذ زيارة تارو. شعرتُ بأن يدي ثقيلة، وكانت شفرة السكين مترددة في التحرك واقتحام سطح الخشب المدهون؛ ولكنني حتى لو أوقفتُ الحركة، وتركتُ الصف السابع فارغاً، فإنني لم أكن لأمنع الساعات من النفاد من حولي.

عدتُ إلى المطبخ ورأيت أن خيط الماء قد توقف نهائياً. حدقتُ في داخل إبريق الشاي: لم يكن ممتلئاً حتى إلى النصف. أفرغتُ آخر قطرة من الماء فيه من القِربة قبل الأخيرة التي كان لا يزال فيها شيء. سوف أحتاج إلى محاولة ملء القربة في وقت لاحق، إذا وافق الأنبوب على العمل. لم أغلق الصنبور، وإنما وضعتُ وعاءً

Twitter: @ketab_n

كبيراً تحته. سوف أسمع إذا شرع الماء في التدفق مرة أخرى. تسنى لأذنيّ الوقت لتصبحا حساستين للصوت الذي كان في السابق عادياً جداً حتى لم أكُن أعِيرهُ أيّ اهتمام.

أحكمتُ أزرار سترتي، وارتديتُ جوارب صوفية على قدميّ والتقطتُ شالي من على رف الحائط عند المدخل. كان الصباح بارداً، أبرد كثيراً من معظم صباحات الشهر الثامن من السنة. فتحت الباب واستدرجتُ إلى الداخل عبق الحديقة المتعافية من عريها الليلي. غامَت أنفاسي في هواء الخارج البارد.

بينما أنحني لالتقاط صينية الطعام عن الدرجة، رأيت اللمعان المائي لنصف قمر متورم فوق التل. كان عيد القمر يقترب. قريباً سيخبز القرويون كعك العيد الحلو الدبق ويعلقون مصابيح اليراعات المطلية بالألوان التي لا عدد لها من طنف منازلهم. لقد صُنع التنين مسبقاً من أجل المسيرة، وستكون مقبرة البلاستيك صاخبة بينما يبحث الناس عن إكسسوارات لزينة العيد وثياب الأولاد. هذه السنة ربما لا تكون ثمة ألعاب نارية؛ سوف تُعتبر بالغة الخطورة، بلا وجود ماء مدخَّر لإطفاء الشعلات. سوف يترتب العثور على الضوء في حرائق أخرى.

ربما في ليلة عيد القمر ستتجول تنانين البحر مرة أخرى وتنثر انعكاساتها المتلألئة في أنحاء قبة السماء المظلمة.

ربما سيجلس أحد ما على "القمة" ويشاهدها من هناك. ربما سيكون شخص آخر جالساً بجوارها، واضعاً يده على ذراعها، ولن تكون ثمة حاجة لأن يختلف أي شيء.

اعتقلَ انتباهي صوتٌ قادم من جهة البوابة. كان أحدٌ ما يتحدث بخفوت. استدرتُ لأنظر، لكنني رأيتُ فقط بقعة من الزرقة تختفي في الأيكة. مع ذلك كانت الأصوات ما تزال تعوم في هدأة الفجر: جنديان كانا يتحدثان. أحدهما ضحك.

سوف يسيران إلى القرية لاحقاً هذا المساء، عندما تنتهي نوبة مراقبتهما. سوف يُلمِّعان أحذيتهما ويشتريان الخبز، أو ربما اللوتس الأزرق في السوق، وسوف ينامان كل الليل أو يبقيان مستيقظين دون أن يحصيا ساعات حياتهما. سوف تنسحبُ

Twitter: @ketab_n

الريح على قلنسوتيهما وستشرق الشمس على مفاصلهما، حتى أنهما لن يلاحظا البرودة المنعشة أو الدفء المخدِّر.

لم أكن أعرف اسميهما، أو من أين أتيا، ولم أكره أحداً أبداً مثلما كرهتهما في تلك اللحظة.

كانت الصينية خفيفة. لم يكن عليها شيء سوى حفنة من الحبوب المجففة في وعاء خزفي صغير. كانت خطواتي مهزوزة قليلاً فقط عندما حملتها إلى الداخل وأغلقت الباب خلفي.

تفاجأتُ من قوة الغضب الذي تملّكني. تفاجأتُ من حركة ذراعي، ومن الصوت الذي صنعه الوعاء عندما اصطدم وتحطم على الجدار.

أعاد نسيج الواقع ترتيبَ نفسه من حولي بطريقة لم أستطع أن أحوِّل أنظاري عنها. حبكَت خيوط الحياة نفسها حول بعضها، تشابكَت وأصبحَت كُلًّا واحداً مرة أخرى، صانعةً شبكة أبقَت الوجود متماسكاً معاً. استطعتُ أن أرى الصدوع خلالها بوضوح، والجدائل تصبح سائبة وتنسرب مبتعدة عني. ما زال العالم ينمو وينبض بالحكايا، لكنه لم يعد لي فيها موطئ قدم.

خلف كل ذلك ثمة فراغ أكاد أمسكه الآن بيديّ: فضاء بارد من الصمت واللاشيء، مكان نَصِلُه عندما نتلاشى من ذاكرة العالم.

المكان حيث نموت حقاً.

أردتُ أن أهرب، لكنني كنتُ مقيّدة بسلسلة من الأحداث التي جلبتني إلى هنا، الماضي الذي يتمدد خلفي في حجر ولن يستسلم أبداً، لن ينكسر أبداً، لن يغير شكله أبداً. وسوف أظل أنظر في اتجاهه حتى لا أعود أنظر إلى شيء على الإطلاق. ربما تنعطف القصص عنه في هذا الطريق أو ذاك، لكن الحقيقة وراءها لا يمكن أن تتحول. إنها لا تنحني بأي قوة غير قوتها هي.

نهضَت الحُرقة من مكان ما أعمق من حنجرتي وصدري، وانفجرت من فمي في نشيج خشنٍ، ثقيل. تعثرَت أنفاسي وتكوَّر جسدي وانطوى كله على الغضب والحزن، وتعاقبَت نوباتُ النشيج خارجة مني في تتابع متسارع حتى لم أعد أستطيع

Twitter: @ketab_n

كبحها. تداعيتُ على الباب وتركتها تأتي.

طفا الغبار بسكون في شعاع ضوءٍ شقَّ غسق البيت الرمادي. كانت أطرافي ثقيلة. كنت متمددة على الأرض. كانت جداول مشدودة مالحة تجفّ على خدَيّ وزوايا عينيّ، وتذوقتُ طعم المعدن الحار في فمي.

أستطيع أن أبقى هنا، فكرتُ. سوف يأتي الجنود غداً. القربُ شبه فارغة. يمكنني أن أبقى هنا حتى تتدفق مني مياهي.

تكاثَف الصمتُ على جِلدي. أردتُ أن أستسلم له. أغلقتُ عينيّ.

تحرَّك شيءٌ في الصَّمت الميت الناشف مثل العظام.

لو أن تلك الذبابة تكفُّ فقط عن الأزيز، فكرتُ. عندئذٍ سأستطيع أن أنام.

لكنها لم تفعل: استمرَّت في الدق على الزجاج، غير قادرة على فهم السبب في أنها لا تستطيع أن تنعتق إلى الهواء الحر في الخارج. فتحتُ عينيّ ورأيتُ ظلها يتقافز في الحيز الضيق بين النافذة والستائر التي تغطيها.

تحرك شيء عميقاً في ذاكرتي: ذبابة أخرى، جسمها الثقيل يلتمع أخضرَ وأسود، وجناحاها يرفان بينما تشق طريقها صعوداً وهبوطاً على جدار شبكي، باحثة عن فُرجة.

أدرتُ رأسي ورأيتُ حقيبتي المحبوكة من أعشاب البحر، التي كنتُ قد تركتها متكئة على الجدار تحت رف الملابس. وعبر سطحها المحبوك استطعت أن أميز مستطيل دفتر ملاحظاتي.

تكشَّفت طيات الذاكرة أكثر. استسلمَت الذبابة على الجدار الشبكي وحطّت على طاولة مغطاة بالأدوات وقطع الأسلاك. نضَح سطح القرص الفضي الملون بالضوء بينما تضعه سانيا في فجوة آلة العالَم الماضي وتُغلق الغطاء. خشخشَت السماعات. تدفق سيلٌ من الكلمات التي لن تتركني وشأني في الهواء الساكن الحار.

كان عقلي يحاول فهم شيء، حبلٌ غير مرئي امتدّ عابراً خلال السنين والعصور والحيوات.

تحولَت الذاكرة: كتابٌ مغطى مغلف بالجِلد كان ثقيلاً في يديّ، وعلى صفحاته

Twitter: @ketab_n

تبني الكلمات جسوراً إلى الماضي الذي كان سيضيع بغير ذلك. حروف رسمتها يد معلم شاي ذهب منذ زمن طويل جذبتني، وبطريقة ما، كان ما يزال هناك، حيّاً بين هذين الغلافين، بسبب ما خلفه من بعده. أمسكَتْ بي العبارات وجرتني لتعيدني من كفن الصمت.

هذه قصتي الأخيرة، وبعد أن سجلتُها على تلك الصفحات، جفَّ مائي بحرية.

ثمة أحداث فقط يعطيها الناس شكل القصص لكي يفهموها أفضل.

الكثير جداً من القصص ضاعَت، والقليل جداً من المتبقية صحيح.

رغم البرد الصقيعي المتسلل من الفجوة تحت الباب، بدَت الأرضية الخشبية دافئة عندما ضغطتُ راحتي عليها ودفعتُ نفسي ناهضة ببطء. كان ذلك أشبه بالنضال ضدَّ ريح عاتية: اضطررتُ إلى إجبار نفسي على البقاء في وضع الجلوس وألا أستسلم للإعياء الذي ألقى بثقله عليّ محاولاً أن يجرَّني ثانية إلى أسفل. كانت الحقيبة على بعد متر مني أو نحو ذلك فقط. رفعتُ يدي لأصل إليها، تلمّستُ بحثاً عن حزام كتف الحقيبة وكدتُ أفقد توازني. في النهاية تمكّنتُ من القبض على النسيج المحبوك بإحكام وسحب الحقيبة باتجاهي. أخرجتُ كتاب معلم الشاي. كان جِلد الغلاف ليناً على أطراف أصابعي.

جرَت كتابة يدي على الصفحات مائلة ضيقة. وصفَت المداخلات بإخلاص المراسيم ومعدات الشاي التي كنتُ أستخدمها، المناخ، كيف كان الضيوف يلبسون وكيف يتصرفون. ومع ذلك، احتلّ معظم المساحة سجل بعثة يانسون الذي كنتُ قد كتبته من الأقراص الفضية الملونة: مجزأً، غير مكتمل، لكنه يظل صحيحاً في صميمه. واصلتُ تقليب الصفحات ووصلت إلى محتويات القرص الأخير الذي كنتُ قد استمعتُ إليه مع سينيا ذات مساء صيفيّ غائم.

كانت حكاية دمار وخراب، عن محيطات تصل مراكز القارات، تبتلع اليابسة والماء العذب. الملايينُ يفرون من البيوت، الحروب تُخاض من أجل مصادر النفط

Twitter: @ketab_n

التي تتكشف تحت الثلج الذائب، حتى تجف عروق الأرض. الناس يجرحون عالَمهم حتى يفقدوه.

ثم تحولَت إلى حكاية الحقائق التي تُزور، والأكاذيب التي تروى، والتاريخ الذي يغيَّر إلى الأبد: قصة كتب تتداعى وتتحول إلى مزق من السديم الورقي تحت قاع البحر وتُستبدَل بكتب الأجهزة التي يسهل تعديلها، حتى أنه يمكن مسح أي حادثة من ذاكرة العالم بضغطات قليلة على الأزرار، حتى لا تعود المسؤولية عن الحروف والحوادث أو الشتاءات المفقودة تعود إلى أحد.

كانت قصة سعى أولئك الممسكون بالسلطة في تشيان الجديدة إلى تدميرها، تماماً كما دمّروا كل شيء آخر تقريباً عن العالَم الماضي. ومع ذلك، كنتُ أمسكُها بين يديّ: ليس كل الحقيقة، لأن كل الحقيقة لا يمكن أن تعيش أبداً، وإنما شيء لم يكن ضائعاً كله تماماً.

حدقتُ في الجُمَل على الصفحات وبدأتُ أدركُ ما ينبغي أن أفعل.

كان يمكنني أن أبقى وأنتظرَ حتى يتغلبَ الغبار على الماء. كان بوسعي أن أدع أحداً آخر يقص حكايتي، إذا كانت من الممكن أن تُحكى: أحداً سوف يلويها ويطوعها ويجعلها غير قابلة للتعرُّف عليها، وربما يُسخِّرها لغاياته هو/ أو هي. لو أنني تركتُ قصتي لأولئك الذين رسموا الدائرة الزرقاء على بابي، فإنها لن تعود لي. لن أعود مقيمة فيها بعد. لن أعود موجودة في أي مكان.

كان يمكنني أن أدع ذلك يحدث. أو كان بوسعي أن أحاول ترك علامتي في العالم، وأمنحها شكلي أنا.

كان الثلثُ الأخير من كتاب معلِّم الشاي لا يزال فارغاً.

حملتني قدماي بالكاد عندما نهضتُ على قدميّ.

كانت الستائر الثقيلة تغطي نافذة غرفتي. في الضوء الكابي فتحت كتابَ معلم الشاي على صفحة جديدة فارغة، وجلستُ على السرير ونقلت مصباح اليراعات فوق الحمّالة الليلية كي يلقي ما يكفي من الضوء على الصفحات.

Twitter: @ketab_n

لمعَ الحبرُ على طرف قلمي وتركَ لطخة نجمية الشكل على الورق عندما بدأت العمل.

كانت الكلمات بطيئة في القدوم بداية، باهتةً وسقيمةً في العتمة حيث ظلت مخزونة لوقت طويل. لكنني ما إن مددتُ لها يداً حتى بدأت تومض وتلتمع وتعوم في اتجاهي، وتصبح أشكالها أوضح. ثم انبجسَت أخيراً إلى السطح، مشرقة وجريئة، أمسكتُ منها بما أستطيع وتركتها تنسكِبُ خارجة مني.

كتبتُ عن الينبوع المخفي الذي لم يكن أحد آخر قد كتب عنه أبداً من قبل. كتبتُ عن أسماك النور التي تتموج في محيط السماء مثل أسراب عريضة من السمك التي تومض بهياكلها والتي يستطيع المرء أن يرى فيها أشكال التنانين إذا كان يعرف كيف تنظر. كتبتُ عن مقبرة البلاستيك، عن الأسرار الغارقة في طبقاتها، عن أشياء الماضي المسحوقة التي كانت ذات مرة تنتمي إلى أحد ما وتعني شيئاً، كل واحد منها.

كسرَت العباراتُ على الورق دائرة الزمان والمكان. تدفَّق الماء إلى البيت من التل مرة أخرى، كان أبي يسير في الغرف. رأيتُ الطريقة التي يمدد بها أصابعه بعد تمشيط حديقة الصخور وإسناد المشط على درابزين الشرفة، الطريقة التي يمسّد بها حاجبيه كلما أحنى رأسه فوق المرجل ليعُدّ الفقاعات في القاع. كانت أمي تجلس في مكتبها، ورأيتها تحك شعرها وترجعه إلى الوراء، غارقة في الفكر، وهي تحني رأسها محاولةً أن تتذكر أين تركَت قلمها. شممتُ رائحة خزامى ونعناع صابونها المصنع يدوياً، وحساء البصل الذي كان أبي يطبخه أحياناً. سمعتُ أصواتَ خطواتهما: أحدُهما في خطوٍ متزاوج بطيء ثابت، والآخر أكثر قلقاً وتبرُّماً. ملأَتْ أصواتهما المطبخ ثانية وحوّمت في الحديقة، لم أعد وحيدة بعد الآن.

كتبتُ عن سانيا. عن الوهج الذي يحتل قسمات وجهها عندما كانت تنتقي القطع واحدة بعد الأخرى من أمعاء آلة الزمن القديم في ورشتها، وتحفظ ترتيبها عن ظهر قلب وتضعها بأناقة على الطاولة. الطريقة التي كانت ترتفع بها إحدى زوايا فمها أعلى قليلاً من الأخرى عندما تبتسم، وكيف كانت تعرف دائماً ما تقول أو

Twitter: @ketab_n

لا تقول لتجعلني أشعر أفضل. عادتها في سحب شعرها الداكن إلى الخلف بمنديل، خطوط يديها، الشقوق والجلد الممزق عند أطراف أصابعها. الطريقة التي بدت عليها أطرافها داخل الماء الداكن حيث لم يصل ضوء النهار.

في الخارج تغيّرَت السماء وبهتَت، لكن داخل الغرفة كان كما لو أن الظلال اضمحلت وتكورت، ونثر الكتاب بهاءه الخاص، أكثر اكتمالاً وأعلى إشراقاً من مصباح اليراعات. أصبحَت شريحةُ الصفحات الفارغة في النهاية أكثر نحولاً. استحضرتُ الأرواح التي تحيط بي وأمسكتُ بها وطويتها بين الغلافين مع كل الأشياء الأخرى الضائعة، حتى ملأَت بالكتابة كل بوصة أخيرة من الورق، وآلمني معصمي.

عندما وضعت قلمي أخيراً وأرحتُ جبهتي على جِلد الغلاف الأخير، كان الليل قد بدأ يتبدد خارج الستائر. بدا جسدي مثل قشرة فارغة: خفيفاً بما يكفي لتحمله أي نسمة عابرة، حراً من ثقل الماء والكلمات.

ارتديتُ زي معلم الشاي. كان فضفاضاً وناعماً على جِلدي، وشممتُ رائحة عرقي غير المغسول عليه. كانت جواربي زلِقة على الأرضية الخشبية عندما مشيتُ إلى المطبخ وكتاب ملاحظاتي في يدي. كان غلاف القماش الخفيف في خزانة المطبخ حيث كنتُ قد تركته. أرخيتُ الشريط الذي يغلقه ونظرتُ في الداخل. بضعُ ملاعق من الشاي كانت قد تبقت في القاع، نفسُ الشاي الذي كنتُ قد انتقيته في سوق كولياري من أجل مراسيم حفل تخرجي. كان الشذا أخف مما كان عليه حينذاك، لكنني أحسست بالدفق نفسه فيه: الرطوبة التي تثيرُ تراب الأرض، الريح التي تهز فروع كل الأشياء التي تنمو، الضوء الذي يتماوج على الماء.

رفعتُ قِربة الماء الأخيرة عن الأرض. انخضَّ وزنها الصغير بخفوت. وضعتُ فم القربة على معدن الصنبور. تحدثتُ إليه بحلو الكلام وقبيح الكلام، بل ربما صرختُ وانتحبتُ، لكن الماء لا يعبأ بأحزان الإنسان. إنه يتدفق بلا إبطاء أو يُسرِّع خطوه في عتمة الأرض، حيث لن تسمعَ إلا الصخور.

ثَمَّ سبعة صفوف من سبعة خطوط عمودية انحفرت على باب منزلي، وجفَّ

Twitter: @ketab_n

طلاء الدائرة الزرقاء في الخارج منذ وقت طويل.

كل شيء جاهز الآن.

في الصباح، ما يزال العالَم ما كانَه عندما غادرناه، ومع ذلك لم أستطع أن أميزه مباشرة عندما فتحتُ الباب وخطوتُ خارجةً إلى الحديقة. لم يكن اللون وحده هو المختلف، وإنما الرائحة أيضاً، والصمت: أعرف الكثير من أنواع الصمت، لكن هذا الصمت كان غير مألوف.

لوهلة فكرتُ بأنني وُلِدتُ ثانية من جديد.

لففتُ الشالَ بإحكام أكثر وسحبتُ أكمام سترتي لتغطي يديّ. كان يمكنني أن أخطو هابطة من الشرفة بحذائي وجواربي، لكنني أردتُ أن أعرف كيف سيبدو ملمس العشب الجليدي تحت قدميّ العاريتين. صلصَلت عيدانُه وشقَّ برده الهش كالورق طريقه إلى داخلي عندما مشيت إلى حديقة الصخور.

أطلَّت الشمس خارجةً من وراء الغيمة، وانبهَرْتُ. كنتُ قد تخيلتُ شتاءات العالَم الماضي، لكن هذا الإشراق كان مختلفاً. استراحَت طبقة رقيقة من الثلج على أغصان نباتات الشاي وعلى العشب وفي طيات رمل حديقة الصخور. وعندما سقط عليها الضوء، تبلَّلت عيناي، واضطررت إلى إغلاقهما.

كل قِرَب الماء في الشرفة كانت فارغة. غطّى الجَمد الأبيض جوانبها المخدوشة. حملتُ القِربة الأخيرة من المطبخ إلى شرفة بيت الشاي، التقطّتُ عصا المكنسة وكنستُ عن البلاطات الحجرية أشباح أوراق الأشجار البيضاء العروق التي كانت تشرع في أن تصبح نديّة في الشمس. انتقيتُ حفنة لأنثرها على البلاطات ثانية، حتى لا يبدو الممر كثيراً وأنه قد كُنِس حديثاً. كان ذلك واحداً من الأشياء التي طالما أصر عليها أبي.

كان مدخل الزوار ضيقاً ومحكماً من حولي عندما زحفتُ عبره إلى داخل بيت الشاي، دافعةً بقِربة الماء أمامي. أفرغتُ الماءَ في المرجل وذهبتُ لأحضِر بعض الخُثّ المجفف من السقيفة. في غرفة الماء سحبتُ كتاب معلم الشاي من تحت سترتي ووضعتُه على الأرض تحتَ رفٍّ مخصص لأوعية الشاي. وضعتُ وعاءً معدنياً كبيراً،

Twitter: @ketab_n

ووعاءً خزفياً أصغر وكوبَ شاي وحيداً بجوار بعضها فوق صينية. حملتُ الصينية إلى حافة الموقد، نثرتُ الأوراق المتبقية من الكيس في الوعاء الخزفي وأشعلتُ النار تحت المرجل.

فكرتُ بأبي، الذي كان في دمي وعظامي، وبأمي، التي لم يتبقَّ منها شيء سواي.

فكرتُ بسانيا.

أدركتُ، كما تعرفُ في حُلم أن الشخص الآخر في الغرفة مألوف، حتى لو لم تكن تعرف وجهه، أو كما تعرف أنك تحب.

بدأ البخار يتصاعد من المرجل، وانتظرتُ حتى استطعتُ أن أحصي عشر فقاعات صغيرة في قاعه.

ملأتُ الوعاء المعدني بالماء الحار، حضَّرتُ شاياً خفيفاً في الوعاء الخزفي واستخدمتُه لتدفئة الكوب. ثم ملأت الإناء الصغير ثانية وسكبتُ الشاي من الكوب فوقه، حتى أصبحت الجوانب البنية المسامية رطبة. تدفقَت حركاتي بلا عناء، سهلةً لينةً مثل شجرة تنحني في الريح أو موجة تلهو على سرير البحر.

كان الماء صافياً وشاحباً في الكوب، وعبقُه طريٌّ من حولي.

فتحتُ باب الضيوف المنزلق للزائر الذي كان قادماً، وجلستُ في وسط أرضية بيت الشاي، حتى أتمكنَ عبر إطار الباب من رؤية الأشجار وهي تتقوس فوق الممر، والضوء الذي تنثره الشمس على الحجارة الناعمة الندية.

ليست هذه هي النهاية التي تخيلتها لنفسي. ومع ذلك، فإنها الوحيدة التي لديّ. أو أن ذلك ربما لا يكون حقيقياً تماماً: أظن أنه كان يمكنني أن أركض عبر البوابة وأستمر في الركض حتى أسمع صوت فرقعة تشق الهواء وأحس بحرق لاسع في مكان ما من جسدي. ربما كان ذلك ليكون أسرع من انتظار الجنود الذين لا بد من أنهم يقتربون الآن؛ نصال سيوفهم؛ الدم الذي لن أراه يجف على البلاطات الحجرية. لكنني كنتُ سأغير الرحلة فقط، وليس النتيجة. ليس ثمة طريق للخروج. ومع ذلك قررت أن أستمر في التنفس قدر ما أستطيع. ربما أنتهي هنا، لكنه سيكون

Twitter: @ketab_n

ثمة آخرون ممن سيحملون الحكاية. ربما ستصبح بقعة من العالَم أكثر اكتمالاً من بعدهم.

سوف ينتهي الطقس عندما لم يعد ثمة المزيد من الماء.

لا أستطيع أن أرى وراء الحديقة. لا أعرف ما إذا كانت المدن قد تداعت، ولا أعرف من يصف الأرض اليوم بأنها له. لا أعرف من يحاول أن يقيد الماء والسماء دون أن يدرك أنهما ينتميان إلى الجميع وليس لأحد على الإطلاق. ليس ثم قيود من صنعة البشر يمكن أن تحتجزهما.

لا حاجة بي لأن أرى وراء الحديقة، ليس بعد الآن.

قريباً جداً الآن، طالما أنني لا أزال وحيدة في بيت الشاي، سوف أدخل إلى غرفة الماء، وأدفع بيدي تحت الرف وأتحسس حتى أعثر على فجوة صغيرة في لوح الأرضية الممدد في الزاوية. إنه واحد من ألواح بيت الشاي القديم، الأغمق من الأخرى. سوف أدفع إصبعي في الفجوة وأرفع اللوح، غير المُمَسمر في مكانه. سوف أدخِل يدي الأخرى تحته بحرص، حتى أتمكن من إزاحة اللوح. تحته تختفي كوة تنتُ برودة الأرض.

جِلدُ غلاف الكتاب ناعم ودافئ، مثل جلدِ كائن حي تقريباً تحت لمستي. لن يراني أحد وأنا أضع الكتاب بحرص في الفجوة عبر الثقب وأدفعه قليلاً إلى جانب، تحتَ ألواح الأرضية الصلبة، حتى لا تلتقطه أصابع الباحثين أو نظراتهم.

الزائرة تفتح البوابة الآن، تخطو عبرها إلى الحديقة، تبحثُ عن ممر يقود إلى بيت الشاي. خطواتُها لا تترك علامات في الثلج الرقيق. تنهضُ ريح ونباتات الشاي تهتز نافضة عن أغصانها الغبار الكامد. تُحَوِّم نُدَفٌ مضيئةٌ هابطة إلى الأرض، حيثُ بدأ الثلج يذوب مُسبقاً متحولا إلى ماء دافق، ممدّداً جدوله الهزيل في الضوء. أتعقبها وهي تتخذ مكانها، عميقاً، عميقاً في الجدول، حيث ليس ثمةَ بداية ولا نهاية.

مذاق بقايا الشاي حلو في فمي.

حاولتُ ألا أفكر في سانيا، لكنها ظلت تنزف داخلة إلى أفكاري، وتساءلتُ: هل أنزف أنا إلى أفكارها، إلى ما قد يكون تبقى منها؟

Twitter: @ketab_n

تصعد هذه الصورة أمام عينيّ بلا دعوة، وتصعد ثانية، ولن تختفي: هي تقف في كهف التل بجوار البركة. هي تنظر إلى الماء المزبد، وتحب أن تظن أنها قادمة إليّ. ومع ذلك أرى واحدة أخرى منها، تستدير مبتعدة عني، ولن تعود. لا أعرف أيهما حقيقة وأيهما محض انعكاس في الماء الصافي، بالغ الحدة حتى أن المرء ربما يظنه حقيقياً.

أستطيعُ أن أختار نهايتي، النهايةَ التي أريد.

اليومُ في الخارج يضطرم مشرقاً، وفي إطار الباب أراها وهي تخطو أقرب، إليّ.

أمدُّ إليها يدي.

Twitter: @ketab_n

خِتام

تخطو داخلةً عبر الباب.

"ما شأنُك، يا آنسة؟" يسأل بوّاب بزي أزرق في كوخه الزجاجي. مدخلُ بناية الجامعة هادئ في هذا الوقت المبكر من الصباح.

"أنا هنا لأرى المُحاضِرة كيشيو،" تقول الفتاة. تبدو قلقة وهزيلة في ضوء الردهة الاصطناعي الكابي، عمرُها ليس أكثر من عشرين سنة. "لم أرتب موعداً، ولكن هل يمكنك أن تعلِمَها بأنني هنا، من فضلك؟"

"هل يمكن أن أرى جهاز مرورك." يسألُ البواب ويفتح نافذة صغيرة في الجدار الزجاجي. تُسلِّمه الفتاة الجهاز. يقرأ معلومات الهوية على الشاشة، يرفع سماعة الهاتف الداخلي ويدير رقماً قصيراً. "المحاضِرة كيشيو؟" يقول في السماعة. "هنا فتاة شابة تطلب أن تراكِ. الآنسة فانامو." يقيسُ الفتاة بنظراته، ويعلو وجهه شيء يشبه الابتسامة. "حسناً إذن." يضع السماعة. "سوف تأتي لتقابلك هنا." يعيد إليها جهاز الرسائل.

تلاحظ الفتاة تعبير ليان كيشيو وهو يتجمد على وجهها لحظة عابرة عندما تصل الردهة. البواب لا ينظر إليهما لأنه مشغول بالعبث بلعبة الما يونغ على جهازه، وليس ثمة أحد آخر في الردهة.

Twitter: @ketab_n

"من فضلِك، اتبعيني،" تقول ليان، وتتبعُها الفتاة.

عندما تدخلان مكتب ليان، تُغلق الباب خلفهما، تدير المفتاح في القفل، تمسك كتفي الفتاة وتسأل، "أين نوريا؟ هل هي بخير؟"

تقرأ الجواب في تعبير سانيا وتضمها بين ذراعيها، وتضيع منها كل الكلمات.

تخبرُها سانيا بكل شيء، لاحقاً.

تخبرها كيف انسحقت القرية في قبضة الجيش، وكيفَ أُخِذ الماء من الناس، وأصبحُ الينبوع سراً مُشاعاً.

تقولُ كيف أرادت نوريا البحث عن الماء في الأرض المفقودة وكيف كانت خطتهما للذهاب معاً.

تقول كيف رأت دورية ماء خلف منزل عائلتها في اليوم نفسه الذي كانتا تخططان فيه للمغادرة، كيف ركضَت إلى مكان اختباء المركبة الآلية وساقتها إلى الغابة الميتة حيث اختبأت هناك لأسابيع. أرسلَت إلى نوريا الرسالة تلو الأخرى، لكن الرسائل ارتدَّت جميعاً. في النهايةِ تسلَّلَت إلى القرية سراً، فقط لتجد أن الجنود أخذوا عائلتها ولتجد دائرة زرقاء مرسومة على باب بيت معلم الشاي.

تقول كيف قررت أن تسافر عبر القارة إلى شينجينغ، لأنه لم يعد لديها مكان آخر تذهب إليه.

عندما تقول كل شيء، يخيم الصمتُ على الغرفة، وتسحَق ليان منديلاً مبللاً في يدها.

"لا أعرفُ ما تريدين أن تفعلي، سيدة كيشيو،" تقول سانيا في النهاية. "لكنني أعرف ما يجب أن أفعل." تصمتُ للحظة. "لقد أحضرتُ لك شيئاً." تُخرج من حقيبتها لفَّة رثة من القماش وتضعُها على المكتب. تفك عقدة الصُّرة.

تلمتَع سبعةُ أقراص فضية ملونة فوق القماشة الدافئة.

العالَم غبارٌ ورماد هذا الصباح، لكنه ليسَ خالياً من الأمل.

Twitter: @ketab_n

لم أجرؤ على الذهاب إلى الينبوع طوال سبعة أسابيع. أمس، أدرت مقبض حنفية الماء في المنزل، ووضعتُ فم قربة الماء على فم الحنفية المعدني. حادثتها بحلو الكلام وبقبيح الكلام، وربما صرختُ وانتحبتُ، لكن الماء لا يعبأ بأحزان الإنسان. إنه يسيل دون أن يبطئ أو يسرّع مسيره في غياهب الأرض، حيث الصخور وحدها هي التي تسمعه، وحسب.

جاد الأنبوب ببضع قطرات في قربتي، ربما بملء ملعقة فقط.

أعرف ما يعنيه ذلك....

"بينما كنت أقرأ مخطوط الرواية، لاحظت كيف تجسدت ردة فعلي في هيئة مادية من آن لآخر. كنت أجلس على حافة مقعدي وقد توترت كل عضلاتي، وغمرتني مشاعر كثيفة من الخوف والأمل. يكشف ذلك عن براعة إيمي إيتورانتا في إقامة الصلة العاطفية بين القارئ وشخصيتها الرئيسية."

جوانا سينيسالو، كاتبة روائية.

ISBN 978-91-87333-19-4

9789187333194

دار المنى